كشكول الحياة

قراءات في الحياة والناس

محمد ولد امام



كشكول الحياة

قراءات في الحياة والناس

من إصدارات



إحدى مؤسسات



تُطلب إصدارات ومنشورات
مجموعة نجيبويه المعرفية
من:

رقم (44) - بلوك (52) - منصور (1) سيدي البرنوصي
هاتف: 522765808 - 667893030 (212+)
مركز نجيبويه - الدار البيضاء - المملكة المغربية

****

وحدة (505) - برج (أ)
16 ش. ولي العهد - حدائق القبة
هاتف: 224875690 - 1115550071 (20+)
دار المذهب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

****

تفرغ زينة - خلف مصرف أورابنك
هاتف: 37030207 - 20203238 (222+)
ديوان الشناقطة - أنواكشوط - الجمهورية الإسلامية الموريتانية

رقم الإيداع القانوني في الخزانة العامة (المكتبة الوطنية) للمملكة المغربية 2019 (MO) 4555
ردمك ISBN 978-9920-727-62-4

 dr.a.najeeb@gmail.com
 www.facebook.com/najeebawaih
 @najeebawaih
 +90 531 623 33 53

كشكول الحياة

قراءات في الحياة والناس

محمد ولد امام

الطبعة الأولى: 1441هـ/2020م

إهداء

إلى الإنسان!

****

ملاحظة

عائدات هذا الكتاب ليست للمؤلف،

فقد تبرع بها للأعمال الخيرية



أولاً:

يتفكرون

(التصوف، الفلسفة، تجارب حياتية)

اقـرأْ علـى هـذي الـديار سـلاما ... والـراحلينَ أصـادقًا ونـدامى
لمـا غـدوتِ لكـلّ عشـقٍ قِبلـةً ... نَصّـبْتِني للعاشـقينَ إمامـا
إنَّـا بنـو ذي الأرض، أصـلُ أديمِهـا ... متجـذِّرونَ وعاشـقونَ قـدامى..

المؤلف

هـذه جُـذاذات أو قصاصـات أو شـظايا وظـلال سـيرة نفـسٍ بشـريةٍ علـى هـذه الأرض، مرّت بما يمُرّ بـه أغلبُ مـن عاشـوا عليهـا مـن متناقضـات، وفيهـا انطباعـاتٌ شخصـيةٌ وأخـرى موضـوعية، عـن مسـائلَ مختلفـةٍ اخـتلافَ الحيـاةِ نفسِـها والتجربـةِ الذاتيةِ عينِها..

ففيها مقالاتٌ كُتبت في أزمنةٍ مختلفـة، عـن مواضـيعَ مختلفـة، وفيهـا أصـداء مـن السيرة الذاتية قليلة، وبعضُ التأملاتِ في الأدبِ والتاريخ والإعلام..

وأغلبُها من وحيِ اللحظة، فلا إعدادَ يسبقُها ولا يُراد لها ذلك، بل هي أقربُ لمـا نسـميه تقليـديا بــ (الكنَّـاش) أو الكشـكول الـذي يحـوي جـذاذاتٍ متفرقـةً يجمعُهـا الشخص على مدى فترة زمنية أو حتى مدى عمره كله، فيها الفوائد والأشعار وحتى الخطابات الشخصية!

وهي مراعاةً لطبيعة العصر، عبارة عن ما يمكن أن نسميه "كبسـولات" صـغيرة، تعطـي الفكـرة في أقـل عـدد مـن الكلمـات، وفيهـا تلخـيص ومراجعـة لـبعض الكتـب المؤثرة، وفيها تأملات في الحيـاة والنـاس، وفيهـا تجـارب في السـفر والوظيفـة، وفيهـا مقالات أدبية وعلمية في مجالات اللغات والتصوف والترجمة والإعلام..

كل هذا باختصار شديد جدا ليناسب المطالع العصري الـذي لـيس لديـه الوقـت لقراءة المطولات، فيمكن أن يقـرأ صـفحة هنـا، وصـفحة هنـاك بعـد فـترة، وهـذه هـي طريقة هذا الكتاب، وقد حرصـت كثـيرا علـى تفـادي التفاصـيل الكثـيرة والاسترسـال والاستطرادات المطولة، كما أنك ستجد هنـا مقـالات قصـيرة جـدا أقـل مـن صـفحة، مثل التدوينات السريعة، فيمكنك أن تطالعها بسهولة دون الاضطرار لقراءة صـفحات حتى ينتهي المقال، فكما أن في الشعر ما أصبح يسمى بالقصـيدة الومضـة، التـي قـد لا تتجـاوز السـطر الواحـد، فـأعتقـد أننـا أيضـا في عصـر "المقـال التغريـدة" أو "المقـال التدوينة" لضيق الوقت وسرعة إيقاع الحياة، فلا وقت لـدى النـاس لقـراءة المعلقـات ولا البيان والتبيين أو الأغاني، حتى الإعلام بدأ يعتمد على المقـاطع القصـيرة لسـرعة انتشارها وتوفرها على مختلف المنصـات، كمـا أن في الفهرسـت المراجـعَ لمـن يريـد

الاستزادةَ أكثر، وفي عصرنا أصبحت المعلومةُ متاحةً أكثرَ على كثير من المنصات وبأشكال مختلفة ومتباينة حسب حاجة كل مُطالع وباحث..

ولأن أغلبَنا قد لا يجد الوقتَ لمطالعةِ الكتبِ والروايات الأدبية، فهنا سيجد ملخصات لأهمِّ ما طالعتُ شخصيا مع رأيي فيه وفي الكاتب وأحيانا في المدرسة التي ينتمي لها عموما، فإن أعجبه موضوع الكتاب مثلا يمكنه أن يبحث فيه ويستزيد وإن لم يعجبه تخطى للموضوع الموالي دون أن يخسر وقتا كبيرا وهكذا..

فالكتب التي نطالعها هي المكون الأساسي لثقافتنا ووعينا، وحتى لو نسيناها فإنها تدخل في لاوعينا وتكون أرسخ، وهناك مثل إسباني يقول إن الأسد هو مجموعة خراف مهضومة، بمعنى أن المادة الخام تبقى موجودة حتى لو اختفى شكلها واتخذت أشكالا أخرى..

وقد قال نيوتن إنه إذا كان يرى أبعد من العلماء الذين سبقوه فذلك لأنه يقف على أكتافهم، فالعلم تراكمي، وكلما طالعت أكثر، رأيت أكثر، واتسعت الرؤية أكثر..

وفي الأدب يستوي أن تفهم النص وأن تسيء فهمه، لأن أي نص أدبي ناضج ليس له معنى واحد، بل يزيدك من المعاني كلما زدته تأملا وتذوقا، ويمكن أن ترى ذلك في الفصل الذي تناولتُ فيه بعض أشعار أبي الطيب في هذا الكتاب..

كما أن في هذا الكتيب وصفا لتجاربي الشخصية علّها تُفيد القارئ في حياته أو تلهمه لتحقيق أحلامه أو أهدافه، أو تعطيه تجربة أخرى في هذه الحياة.

وإن لم يستفد من هذا الكتاب إلا شخص واحد ولم يستفد ذلك الشخص إلا بفكرة واحدة فقد حققتُ هدفي منه.

لمن يكتبون.. ولماذا نقرأ؟!

هناك نوعان من الكُتّاب.. كاتبٌ تقوده جذوة الاكتشاف وحماس المكتشف.. ليخلق شيئا.. أو يعرّيه للناس.. وهو يكتب مدفوعا بنية التغيير وعنده دائما مسوغات تستحق القراءة..

وكاتبٌ همُّه أن يصير "كاتبا"..

***

بالقراءة نتخلى شيئًا فشيئًا عن أجزاء منا.. وبالتمادي نخرج من ذواتنا إلى عوالم أرحب.. ونبتعد حتى نرى أنفسنا من خلال الآخر.. وتلك متعة القراءة وسحرُها أيضا.

هناك كتب تجعلني مغتربا أشد الاغتراب عن نفسي فأراها لأول مرة ونتجاذب أطراف الحديث كأي غريبين في محطة قطار.. وشيئًا فشيئًا تتجلّى لي نفسي.. وأنهي الكتاب وقد عرفتها أكثر!



مراعاة الناس أم القيم؟

أصبحت ظاهرة مراعاة الناس أكثر من الدين والضمير بل وإدمان مجاملاتهم والسعي لنيل الإعجاب ظاهرة متفشية للأسف، وأغلب الناس لا يضع الأمور في سياقها العام، فينسى كم الحياة قصيرة وتافهة، وأن مهمته على هذه الأرض ليست إرضاء فلان ولا علان، بل عليه الإقبال على شأنه، ومراعاة القيم التي يؤمن بها فقط، لا مراعاة الناس والقلق بشأن أحكامهم، وأقول هذا انطلاقا من تجارب شخصية، فقد كنتُ أولي اهتماما كبيرا لآراء الناس وصورتي في أذهانهم وكان ذلك يسبب لي قلقا كبيرا ويغيّر حتى من سلوكي لكي أنال إعجابهم أو على الأقل أن أنجو من انتقاداتهم وياله من غباء وسذاجة! مع العمر أدركت كم كنت ساذجا، فأغلب الناس أصلا ليسوا مهتمين بك أو بي أو بأي أحد قدرَ اهتمامهم بأنفسهم، وكلهم لديه تصورات ورواسب وأحكام مسبقة لن تتغير مهما كان، والبعض الآخر غير مهتم أصلا.

ومع إدراك هذه الحقيقة غيرتُ أولوياتي تماما فعلي أن أكون صادقا مع نفسي أولا، ثم مبادئي وقيمي وضميري، وبعد ذلك لا أبالي أَذَمَّ أم مدحَ القائل!

فلا مدح الناس، حتى لو افترضنا أنه صادق، سينفع، ولا ذمهم سيضر، وعند المتصوفة مفهوم جميل يسمى المراقبة، ويسميه الغربيون (the observer) فما دام العمل الذي تقوم به لا يسبب تناقضا أو تنافرا مع ضميرك ومبادئك التي تؤمن بها فلا تكترث لشيء بعد ذلك.. فأغلب الناس كما أسلفنا إما لديه موقف أو حكم مسبق ثابت لن يغيره شيء، أو هو غير مهتم أصلا بما تقوم به، فمحاولة إثارة إعجاب الناس أو تجنب انتقاداتهم هي محض سذاجة لن تجدي نفعا، فلنُقبلْ على شؤوننا ولنراعِ مبادئنا ولا نكترث بعد ذلك.



آراء الناس

نقابل في هذه الحياة شخصياتٍ متنوعة ومثيرة للتأمل أحيانًا، وكل شخصية يمكننا أن نتعلم منها شيئًا، وقد قال أحد المفكرين، كل شخص ألقاه يتميز عني بخصال حميدة ومنه أتعلم تلك الخصال.

أغلب المفكرين والفلاسفة وغيرهم مجمعون تقريبا على أن أهم علامات النضج هو عدم القلق كثيرًا حول آراء الناس وصورتنا لديهم، وعند البحث في هذه القضية سنجد أن آراء الناس غالبا تُبنى على أشياء وانطباعات أبعد ما تكون عن الموضوعية، فبعضها مبني على أحكام مسبقة عن شخوصنا ولا علاقة لها بتصرفنا مهما أحسنّا التصرف سيبقى ذلك الحكم أو تلك الصورة التي لديهم عنا كما هي، وهناك من يتخذ منا موقفا انطلاقا من تصور لديه هو، واللهاث وراء آراء الناس من أهم المثبطات وأسباب الفشل، فعلينا أن نراعي الله أولا والضمير والقيم، وبعد ذلك لا نبالي بمن مدح أو قدح، وهذا المعنى متردد كثيرا في كتب التصوف وكتب الغرب التي تتناول التعامل الإنساني على حد السواء، وهي المعنى الحقيقي للإخلاص، عكس الرياء الذي هو في الحقيقة مراعاة آراء الناس فقط، والشخص المفكر أو حتى الناضج فقط لا يهتم كثيرًا بما يُقال عنه ويدرك عبثية محاولة ثني بعض الناس عن أحكامهم المسبقة وآرائهم وحتى نميمتهم أو كلامهم فيه بالسوء وهذه الأمور قد تكون بدافع الغيرة مثلًا وهي بذلك تنويه مبطن لأنهم يرونك فوقهم أو أعلى منهم وأنت على الأقل تشغل تفكيرهم ويسعون للنيل منك وفي هذا تقدير ما فوقه تقدير منهم لك! فلو لم تكن مُهمّا عندهم جدا لما بالوا بك أصلا، ثم إن هناك الحقد والحسد وأمراض القلوب الكثيرة، وكلها متعلق بالشخص الآخر لا بك، فاحمد الله أنك أنت هو المحسود والمتكلَّم فيك بالسوء ولستَ حاسدا ولا متكلما بسوء في أحد..

ويجب ألا يثنينا عن خير أو عمل نريد تحقيقه مجرد أنه يمكن أن يُفهم خطأ أو ألا يعجب فلانا أو علانا من الناس، فلنفعل ما يُمليه علينا الدين والقيم والضمير وبعد ذلك ليقل مَن شاء ما شاء.. لا يهم.

يقول المفكر والإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس متسائلا: هل يضر

الذهب عدم مدح فلان له؟ وهل يزيد الدر مدح علان له؟

وقد قال أبو الطيب:

والدرُّ درٌّ برغم مَن جهلهْ..

وتروي كتب الفلسفة أن أحد الفلاسفة اليونانيين كان متقشفًا جدًّا وجاءه الإسكندر وهو مَن هو في القوة والمال والجبروت، فوجده يلبس أسمالا بالية ويجلس تحت شجرة، فقال له الإسكندر ما تريد مني؟ فأجابه الحكيم: أريدك فقط أن تتحرك من أمامي لأنك تحجب الشمس عني! ورغم شهرة الإسكندر بضيق الباع وسرعة الغضب، إلا أنه ذهب قائلا: لو لم أكن الإسكندر، لوددت أن أكون هذا الفيلسوف!



السلام الداخلي

أي شيء ثمنه سلامك الداخلي لا يستحق!

عرفتُ أشخاصا كثيرين يرون الحياة جهادا دائما لتحصيل المال والمكانة، غالبا على حساب الأشياء الصغيرة المهمة مثل العائلة، الأصدقاء، تثمين التجارب الحياتية بدل المقتنيات، وهؤلاء الأشخاص يجنون على أنفسهم أكبر جناية وأعظمها، ولست هنا بصدد القول إن المال غير مهم، ولكن جعلَه محورَ حياتنا وقيمتنا هو الخطأ بعينه، فيكفي من المال ما يغنينا عن الغير، أي الكفاف وما زاد عليه زوائد لا قيمة لها، وفي الأثر عن الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، وأتذكر أنني قرأت أن أحد الفلاسفة اليونان الأقدمين دخل سوقا عامرة في أثينا مع بعض تلامذته، فانبهروا بتنوع وجودة المعروض من البضائع، وقالوا له: ما أكثر ما نحتاج من هذه الأشياء، فقال الفيلسوف الحكيم، بل ما أكثر ما نحن في غنى عنه!

فالغنى عن الشيء لا به، ورحم الله أبا الطيب إذ يقول:

ذكر الفتى عمرُه الثاني، وحاجتُه ما قاتَه، وفضولُ العيش أشغالُ.

فما يحتاجه الإنسانُ هو قوته وكفافه، والباقي أشغال وزوائد..

وفي عصرنا الحالي استفحلت خطورة حب التملك وأصبح ظاهرة تُدرس تحت اسم (consumerism) أو النزعة الاستهلاكية، وصارت أقرب للمرض النفسي، ومؤخرا ظهرت دعوات في الغرب لمواجهة هذا الجشع التسوقي، فظهر مصطلح جديد، (minimalism) الذي يدعو للتخَفُّف من المقتنيات غير الضرورية، وقد قرأت كثيرا مما كتب حول هاتين الظاهرتين من الكتّاب والمفكرين الغربيين، وأدركت حجم المأساة التي يعيشها الإنسان المعاصر الذي يعتقد أن قيمته في ما يملك، ففي تحليله لتنامي النزعة الاستهلاكية في أغلب المجتمعات الحديثة في العقود الأخيرة، يبدأ عالم الاجتماع البولندي البارز زيجمونت باومان بالانطلاق من حقيقة بديهية، وهي أن جميع البشر مُستهلِكون بشكل فطري، وكانوا على مر الزمان مُستهلِكين بغرض إشباع حاجاتهم ورغباتهم، فليس اهتمامنا بالاستهلاك شيئا جديدا،

فعملية الاستهلاك والإشباع سمات إنسانية طبيعية تسبق بالتأكيد ظهور الاقتصاد الرأسمالي الصناعي والتقنية الحديثة والأسواق الضخمة، إلا أنه يلفت انتباهنا إلى ظاهرة جديدة على التاريخ الإنساني بصفة عامة، لم يتصف بها النزوع الإنساني الاستهلاكي من قبل، وهي ظاهرة مُجتمع المُستهلكِين أو بتعبير آخر مُجتمع السوق. والحقيقة الثابتة هي أن ما زاد على كفاية الإنسان من المال، لن يزيده سعادة، وإنما السعادة في الرضى، والاستسلام لما ترمينا به الحياة واعتبار قدر الله خيرا كله.



نحن هنا للحظة، على ذرة غبار!

ومن الأهمية أن يدرك الإنسان مدى ضآلته وقصر المدة التي يقضيها ضيفا على هذه الأرض، إدراك هذه الحقيقة العلمية والمشاهَدة يمنع الإنسان من الكِبر والعجب أولا، ثم يعطيه بصيرة في تصرفاته حتى لا يضيّع العمر القصير في أشياء تافهة أو غير مهمة على المدى الطويل.

عندما تنظر إلى عمر الأجرام التي تَمكَّن العلماء من قياس أعمارها، ستجد أن الأرض حديثة جدا، وبعد الأرض الحياة أحدث بكثير، ومئة عام بالنسبة لمليارات السنين هي فقط ثانية واحدة! كما أن حجم الأرض كلها، هو كذرة غبار بالنسبة للمجرة.. وهكذا.

ويمكن لك أن تقول ألا شيء مهمًا على المدى الطويل سوى العلاقة مع الله فقط.

وكان كثير من المفكرين يضعون جماجم على مكاتبهم لتذكيرهم بحتمية الموت وقربه، وبعضهم يضع كفنا في مكان يراه فيه كل يوم!

ومن المهم والمطلوب شرعا بالطبع، أن تكون لدينا وصية، وأتذكر أنني عام 2005 تعرضت لوعكة صحية خطيرة وأنا في مصر، ورأيت بأم العين مدى قرب الموت وأنه قد يزور أي وقت، فلم يعد الأمر بالنسبة لي شيئًا يحدث للآخرين فقط، ومنذ ذلك الحين وأنا أجدد كتابة وصيتي كل فترة من الزمن، وبعد أن أتيح Google Docs صرتُ أحدثها عليه كلما تذكرت، ورغم أن هذا الموضوع قد يكون مزعجًا أو مُخيفًا في البداية إلا أن صاحبه يكون على استعداد، ليعلم أن الموت قد يزور أي وقت وفي أي مكان، فإذا جاء كان مستعدًا حسب استطاعته، كما أنه يجعلك تضع الأمور في نصابها فلا تهتم بالكثير من الأشياء فعما قليل سيزول الجميع، كما أنني منذ ذلك الحين لم أعد أُسوف لأنني دائما أرى أن شيئا لم أفعله اليوم قد لا أتمكن غدا من فعله وبالتالي نادرًا ما أؤجل أو أخطط للمدى البعيد.

وأتذكر أنني قرأت كتابا كان عنوانه:

(Don't Sweat the Small Stuff . . . and It's All Small Stuff)

ويعني ألا نهتم بصغائر الأشياء .. وكل الأشياء صغائر! أو تافهة.

وعموما يجب ألا نعطي للأشياء أكبر من قيمتها الحقيقية، فكل الأشياء فانية في النهاية طبعا ونحن كذلك، فما جدوى القلق حيالها وتنغيصها لوقتنا القصير هنا؟



وهل يستحق الأمر؟

ومن الأشياء المرتبطة بهذا المعنى السابق ضرورة عدم حمل الضغائن أو الأحقاد، فهذه الأشياء ستضيّع وقتنا الحاضر وربما المستقبل ومن أجل ماذا؟ شيء حدث في الماضي ولا يمكن تغييره مهما حاولنا! ثم إننا لا نسامح من أجل الشخص المسيء بل من أجل أنفسنا أولا فما يقتضيه منا عدم المسامحة ثمن غالٍ وكبيرٌ جدًّا.. من وقتنا وصحتنا وسعادتنا.. وأغلب الأديان وحتى علماء النفس في العصر الحديث يأمروننا بأن نسامح دائما، فيجب ألا نبيت على ضغينة أو حقد لأي أحد، ولنعامل مَن نلقى من الناس معاملتَنا للمسافرين معنا على قطار، مهما كانوا سيئين فكلها فترة قصيرة ويذهب كل في اتجاهه وتنتهي الرحلة، فلم الخصومة والغضب؟ هي فترة سنقضيها معا لأي سبب كان وبأدينا أن نجعلها فترة سعيدة أو تعيسة.. الخيار لنا.



الخلوة

أعتقد أن الخَلوةَ (وهي بفتح الخاء حسب القاموس بالمناسبة) جزء مهمٌ جدًّا من حياتنا، ولا أعني هنا بالضرورة الخَلوة الطويلة أو المنقطعة تماما عن العالم الخارجي، هذه جيدة لكن الأهم هو أن يكون لدينا وقت خاص للتأمل والتفكير، دون إزعاج من العالم الخارجي، وهذا قد يكون لمدة ساعات قليلة فقط، أو خلال نزهة تريُّضٍ يومية، ومن المعروف أن أهل التصوف لديهم، على اختلافهم في هذا، أنماط من الخلوة.

ومفهومها لا يقتصر علينا ففي الديانات الأخرى أيضا الخلوة مهمة سواء للتعبد أو التأمل، وحتى مَن لا يؤمنون بالدين عموما في الغرب الآن الكثير منهم يدعون للخلوة اليومية وللتأمل (meditation)، وهو طقس عندهم لتقييم الحياة وتأمل ما يحدث حولهم، وأعتقد أن الخلوة يجب أن تكون جزءا من حياتنا، وهي فعلا جزء من حياتي شخصيا، ويجب أن نتأمل فيها نعم الله ونركز على الشكر له والحمد سبحانه على نعمه الظاهرة والباطنة، وتأمُّل أهدافنا في الحياة كذلك وما أنجزناه فعلا ليكون حافزا لنا على الاستمرار، فضلا عن الأهداف المستقبلية التي ننوي إنجازها..

وعندنا في الإسلام كثير من الأمثلة في السلف للخلوة والتعبد والتحنث، وما الاعتكاف في المساجد إلا نوع من الخلوة التي نتحدث عنها..

ولا أخفيكم سرًا أنني قرأت كتاب الشقيري الأخير المعنون "40 يومًا" بكثير من التشكك والحذر من أن يكون مجرد كتاب آخر من كتب التنمية البشرية.. أنا الذي لم أتابع أيًا من برامجه المصورة ولا برامج نظرائه.

لكنني وجدتني أمضي فيه صفحةً بعد أخرى بتأمل وتدبر، وقد أسرني الجانب الصوفي فيه إن صح التعبير، وما زالت الصوفية ساحرة بالنسبة لي، كما أن تجربة "الخلوة" تراودني منذ زمن، والكتاب يتحدث باختصار عن تجربة الرجل في الخلوة والانقطاع عن وسائل الاتصال تماما إلا ما كان من هاتف قديم لا يتصل بالإنترنت للطوارئ العائلية فقط، وقد اصطحب المؤلف معه كتبا 40، واختلى بنفسه

وهواجسه واضطراباته أو ما يسميه هو "كلاكيعه".

بعد قراءة الكتاب الأولى، وجدتني أُعيده وأدون منه مقتطفاتٍ وأسطرا.

الكتاب لا يهمني فيه أساسا إلا فكرة الخلوة مع النفس، والانفصال عن عالم الاتصال، وفي الماضي كنت أقضي عادة فترات في البادية من دون اتصال بالإنترنت ودون حتى الهاتف العادي، فقط الاتصال الشخصي ومطالعة الكتب الورقية ثم بعد ذلك على جهاز "كيندل" للكتب. وكانت تجربة رائعة، فقد أنهيت كتبا عديدة ووثقت علاقاتي الشخصية مع العائلة والأصدقاء..

وقد عزمتُ على تجربة هذه الفكرة عند أول فرصة بحول الله، ومن الأكيد أنني سأصطحب الرسالة لقشيرية التي أسرتني هي الأخرى منذ سنوات.

ربما أكتب عن تجربتي الخاصة مع "الخلوة" يومًا ما إن كتب الله البقاء.



الحياة هي ما يحدث لنا بينما نخطط لأشياء أخرى..

أعتقد أن هذه المقولة تنطبق علينا جميعا ولكنها تظهر أكثر لدى المغتربين، فالمغترب دائما، ربما في لاوعيه، يعتقد أنه خارج الزمن، وأن الزمن سيبدأ عندما يرجع إلى وطنه، فيؤجل معظم أو كل مشاريعه وأهدافه إلى أن يرجع، وهذه الفكرة عموما موجودة لدى الإنسان في كل مرحلة من مراحل عمره، فهو إما صغير ينتظر الكبر، أو مسافر ينتظر الرجوع أو طالب ينتظر التخرج، أو عاطل ينتظر التوظيف.. وهكذا.

ولا يدري معظمنا أن الحياة لا تتوقف ولا تنتظر أحدًا ولا شيئًا، فنحن في انتظار هذه الأشياء ننسى أن الحياة تمر سريعا، ونحن في انتظار شيء ما حتى نبدأ الحياة ولكن أغلبنا لا ينتبه إلى هذه القضية مبكرا، فهو يمضي من طالب ينتظر انتهاء الدراسة، إلى عاطل ينتظر الوظيفة، إلى موظف ينتظر الترقية، ثم الزواج والأولاد ثم فجأة يجد الشباب والحياة عموما مرت بين يديه!

وبالنسبة للمغترب فالحالة أشد لأنه دائما يؤجل الحياة إلى أن يحصِّل المال ويعود، وهذا في نظري أكبر خطأ، فحتى لو حصل المال تكون الحياة قد فاتته، كما أنه في هذه الدوامة قد لا يحصل ما يكفي أو ربما لا يعرف ما يكفي وبالتالي يستمر في هذه النظرة إلى أن يشيب فيرجع لا يستطيع الحياة لضعفه وشيبته، فتكون الحياة قد فاتته وهو يخطط لأمور أخرى قد تحصل وقد لا تحصل، لذلك فالأهم أن ندرك أن الحياة لا تتوقف، فلا نتوقف عند كل مرحلة ننتظر أن تكتمل، بل علينا أن نعيش خلال كل هذه المراحل، مع الأسرة أولا والأصدقاء، مع العمل على إسعاد من حولنا، وتحقيق ما نصبو إليه من أهداف، فلا أحد يضمن الظروف، لذلك علينا العمل على أهدافنا دائما، ونحن طلاب، ونحن موظفون، ونحن في الغربة.. أي خلال كل هذه المراحل ولا ننتظر أن نُنهيها كلَّها فقد لا نهيها أولا، وقد ننهيها ونكون انتهينا نحن معها!

وعلينا أن ندرك أن فكرة الاغتراب لا تمنع الحياة، فلنعشها ولا ننتظر العودة.

المعاملة بالمثل

هنـاك قـانون إنسـاني مهـم في علاقاتنـا هـو قـانون "المعاملـة بالمثـل" أو Reciprocal law فعندما تعامـل شخصًـا، أيَّ شـخص، معاملـة رقيقـة جميلـة أو تجامله مجاملةً لطيفـة، أو تثني على أي شيء يخصـه، فأنـت بـذلك تجعلـه لا إراديًا يعاملك بالمثل، وقد جربتُ شخصيًا هذا فقد كنت أستعمل خدمة التاكسي المرتبط بالهاتف Uber يوميًا للذهاب للعمل، وكنت أحيانا ألاطف السائق وأسأله عن دولته وحياته وأبدي اهتمامًا حقيقيًا به فكان يهش لذلك ويخبرني عن نفسه وآماله وأحلامه ويكون في غاية الغبطة وتكون الرحلة ممتعة لكلينا، وأحيانًا أخرى أجرب أن أبدي امتعاضي من الإشارات والتأخر والضيق بالزحمة مثلا، فكانوا يبدون أيضًا ضيقًا وربما تعمد بعضهم الإبطاء وتململ وتشاغل بهاتفه وتكون الرحلة مُمضّة متعبة.

وهذه التجربة يمكن أن تجرب في تعاملكم مع الناس جميعا، وأعتقد أن النتيجة ستكون هكذا غالبا..



مع الرسالة القشيرية

منذ سنوات قمت بنشر رحلتي مع الرسالة القشيرية في التصوف، وهو كتاب أنصح به جدًا فقد أثر فيّ شخصيًا تأثيرًا كبيرا.

وقد حوى هذا الكتاب من اللطائف ما جعلني أطرق تفكّرًا وتأمّلًا.. في العديد من الاقتباسات والوقفات.. فهو كتاب لطيف وعميق.

أثراني النقاش حول الكتاب.. وأضاف للرسالة أبعادًا أخرى، وإسقاطات واقعيّة نحتاجها.

فهو فعلا يستحق المطالعة حيث يرى المؤلف أنه في عصره بدأ الشيوخ الذين يتبعون طريق التصوف مع العلم الشرعي بالاندراس وبدأ الجهل والاستخفاف بأوامر الشريعة وقلة المبالاة بالمحرمات يظهر على متبعي هذه الطرق يقول القشيري:

«ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب أو لوم، وأنهم لو كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائي عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صُرفوا».

وبسبب ذلك كله وخوفا من إنكار هذه الطريقة برمتها لأجل ما يقترفه هؤلاء المخالفون، وخوفا من ازدياد التمادي والاغترار والشطط وإشفاقه "على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه"، انبرى صاحبنا القشيري إلى تأليف هذا الكتاب، يجمع فيه أقوال شيوخ هذه الطريقة الأوائل والثقات منهم وتعاريفهم ومصطلحاتهم وأحوالهم. فكانت هذه الرسالة القشيرية من أشهر أمهات الكتب في علم التصوف.

الكتاب مقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول يتناول شيوخ الطريقة وأهم أعلامها، وهي بداية جيدة فإذا أردت علمًا فعليك أن تنظر ممن تأخذه أولا، كما أن أسماءهم ستتردد على القارئ إلى آخر صفحة فمعرفتهم ضرورية.

الفصل الثاني في تبيان وتفسير أهم المصطلحات المتداولة بين شيوخ الطريقة، ليس بالصعب ولا بالغريب.

الفصل الثالث: هو عبارة عن أبواب تتناول لب التصوف (الرجاء، التوكل، الجوع، الصبر، المراقبة، اليقين .... إلى تتمته)

وحيث إن حقيقة التصوف بأنه (باطني) فما كان من الممكن التعرف عليه إلا بما تكرم به شيوخ الطريقة ونطقوا به.

وهنا أريد أن أنبه إلى شيئين:

1- قد لا يصدق البعض بعض ما يكتب في الكتاب عن بعض الأولياء وما يحدث لهم من قصص، لكن كيف ستنفيه بلا دليل وحجة؟ إذا علمت أن الله يتولى أولياءه! أنا لا أتوقع من نفسي التصديق الأعمى كما أنني لا أحب النفي الأعمى.

2- جملة وردت في الكتاب أراها جميلة جدًا (كان ثمة تصوف ولا اسم، واليوم اسم ولا تصوف).

وبالرغم من أن التصوف غالبا ما يكون ملازما للتدين، لكنه يحافظ على استقلالية تميزه عن رجل الدين والفيلسوف العقلي أيضا. مدار الصوفي هو الخَلق وراحتهم وحبهم، بخلاف مدار رجل الدين، الذي غالبا لا يحب غير من يدور في فلكه ويخضع لقراراته، إلا إذا خرج من حكم الطائفة محلِّقًا في فضاء العرفان أو متأثرا بفلسفة إنسانية يقوم بتأويل تدينه من خلالها.

المتصوف يتسامح مع الناس ويشدد على نفسه، وفي رواية صوفية لأبي علي الدقاق: (أن شابا أخرجوه من محلةٍ لفساده، فرأى القطب أمه تبكي، فقام واستشفع له عندهم لخاطرها. وطاف بعد أيام ووجدها تبكي. فسألها: هل أخرجوا ابنك لفساده من محلةٍ ما؟ قالت: لقد مات. فقال: وما حاله وقتها؟ قالت: قال لي لا

تخبري الجيران فإنهم يشمتون بي ولا يحضرون جنازتي، وأعطاني خاتما كتب عليه "بسم الله" لأدفنه معه. فنفذت الوصية. وعندما همت بالبكاء على القبر سمعت هاتفا منه يقول: اذهبي يا أمي فإني مع رب كريم).

ورأى محمد الثقفي في منامه رجلًا فيه من أحوال النساء -مخنّث- احتقره الناس، فكان يقول: (غفر الله لي باحتقار الناس إياي).

أما حمدون القصار فكان يقول: (إذا رأيت سكرانًا فتمايل لكيلا يبغي الناس عليه - أي لكيلا يروا أنفسهم أفضل منه فيؤذونه بكلام أو فعل -). نستشف من الأمثلة السالفة سعة صدر الصوفي مقابل ضيقه في المفهوم التقليدي للمتدين، فنادرًا ما نرى أحدهم لا يحتقر الاثنين.

يضاف في رصيدهم أيضًا التسامح الديني، فالكتاب خالٍ من مفاهيم التكفير، بل على العكس، في رواية صوفية عن إبراهيم الخليل: (أنه لقي مجوسيًّا ولم يطعمه، فسمع ربه يقول له في المنام: إنّا أطعمناه على مجوسيته سبعين سنة وتركنا رزقه عليك يوما واحدًا فلم تطعمه!).

يرى الصوفي أن احتقار الخلق من أعظم الشرور، خصوصًا مساكينهم، لأنه يلهيك بِشَرِّهم عن شر نفسك. وفي سبيل المساكين قاطعوا الدولة وأغنياءها وجيرانهم، لأنهم من جملة الأغيار الذين بسببهم يتألم الخلق ويجوعون، فكانت امرأة تخيط على مشاعل بيوت السلطان فقال لها أحدهم: لا تخيطي على مشاعل بيوتهم.

وجاء خياط لعبدا الله بن المبارك يسأله أنه اشترى من أحدهم خيوطا وإبرة وخاط ثوبا للسلطان فهل يعتبر من أعوان الظلَمة؟ فقال: إنما أنت من جملة الظلَمة أما أعوان الظلمة فهم من يبيعونك الخيط والإبرة.

نستطيع أن نقول إن المفارقة بين رجل الدين والمتصوف أن الأول يكتسب وجاهته من كلامه وسلطته الروحية وربما من سلطته السياسية، أو بالاشتراك بينهما. أما المتصوف فلا سلطة له ولا جاه، راحته في صمته، وقناعته من زهده، قريب من الخلق في العلانية، بعيد عنهم في السر، يسعى لإطعامهم ويرفعهم من الدونية إلى السواء، كثير الترحال فكرا وجسما، لكن حديث سره غالب على حديث لسانه.

عزاءات الفلسفة

قرأتُ مؤخرا كتابين بديعين للمفكر والفيلسوف المعاصر Alain de Botton الأول تحت عنوان: consolations of philosophy، والثاني بعنوان: status anxiety.

وقد تناول في الكتاب الأول بعض الفلاسفة الذين تأثر بهم هو شخصيا، والذين تناولوا الشأن الشخصي في التعامل مع الناس ومع الحياة الشخصية في فلسفاتهم، فأفرد لكل فيلسوف موضوعا معينا، مثلا تحدث عن المشاكل المادية والاستهلاكية مع الفيلسوف أبيقور، وتحدث عن مشاكل العلاقات مع الفيلسوف الألماني شوبنهاور..

وأعتقد أن من أجمل ما في هذا الكتاب هو أنه ينزل بالفكر الفلسفي إلى حياة الناس اليومية ومحاولة حل المشاكل أو فهمها على الأقل، فقد عانى من هذه الصعوبات كل من عاش حتى الآن وفهمُها مهم جدا للتخفيف من آثارها.. وباختصار فإن من أهم الأفكار حسب رأيي في هذا الكتاب هي محاولة الاستفادة من هؤلاء المفكرين الكبار في مواجهة صعوبات الحياة مثلا استخدم بوتون مثال وفلسفة سقراط وحياته لتوضيح أن حكم الآخرين علينا أو على تصرفاتنا يجب ألا يكون له تأثير حقيقي على كيفية حكمنا على أنفسنا.

هذا لا يعني أننا يجب أن نعتبر أنفسنا متفوقين من خلال كوننا أقلية. لا، الرسالة الحقيقية هي أن الأرقام التي تدعم أي حجة أو وجهة نظر أخلاقية لا علاقة لها بالقوة الحقيقية لتلك الحجة. العقل فقط هو الذي ينبغي أن يرشدنا في أحكامنا على أنفسنا والآخرين. وعبر الكراهية الموجهة بشكل غير عادل نحو هذا الفيلسوف البريء، ندرك مدى الأذى الذي نواجهه نحن أنفسُنا على أيدي أولئك الذين إما أنهم غير قادرين أو غير راغبين في معاملتنا بالقسط والعدل. لكن إذا أخبرنا العقل أننا على صواب، فيجب علينا التمسك بذلك وعدم مراعاة أي شيء آخر كما فعل سقراط الحكيم.



عدم وجود ما يكفي من المال

ما هي الثروة؟ هل هي مجرد ثروة مادية أم أنها هي كل ما يوفر لنا سعادة حقيقية؟ كانت هذه هي الأسئلة التي تناول الفيلسوف أبيقور. كانت إجابته أنه مثلما أننا غير قادرين على تمييز ما هو جيد لجسمنا المادي، وسنكون سعداء بالطعام غير الصحي إلى حد المرض (كما يفعل الكثير منا). لذلك نحن لسنا قادرين على الحكم على ما هو جيد حقا لأرواحنا، لحياتنا.

أريد أن أؤكد هذه النقطة - إذا تُركنا لأنفسنا ولأذواقنا الغريزية، فلن نجد أي سبب للامتناع عن فعل أي شيء نراه ممتعا وهذا طبعا سيؤدي للجريمة والفوضى وغير ذلك.

يقول أبيقور إننا عندما نتمسك بالمثل وبكل ما نملك من أمر ممتع، نخطئ في الحياة. لكن التأمل العميق فقط هو الذي يمكن أن يُظهر لنا أن أمرًا ما يسيء لصحتنا الروحية أو الجسدية.

لذلك يقول إن السرور هو الهدف النهائي للحياة - لكن ما يمنحك المتعة الحقيقية لا يمكن العثور عليه إلا من خلال التفكير العميق. إذن ما الذي يجب أن نكرس كل طاقاتنا له إذا كنا نريد حياة سعيدة؟

يجب أن نجد الصداقة، والرفقة الجيدة - الارتباط مع أشخاص يدركون طبيعتنا الحقيقية بكل عيوبنا هذا ما نحتاج إليه حقًا. في الواقع، كل سعينا المحموم وراء المال والقوة هو مجرد مظهر من مظاهر حاجتنا إلى الاحترام والاستماع إلى إخواننا. قد نسعى للحصول على ثروة دون سبب سوى ضمان احترام واهتمام الأشخاص الذين ينظرون إلينا بطريقة مباشرة. ولكن هل نحن بحاجة إلى المال لحملهم على احترامنا؟ ألا يقدر الصديق الحقيقي كل كلمة لك ويحترمك حتى لو كنت مفلسًا؟

ثاني أهم مكونات السعادة حسب هذا الحكيم هو الحرية - حرية أن نكون أنفسنا. هذا يعود في النهاية إلى أن نكون مع أشخاص يقبلوننا كما نحن.

وقدم أبيقور وأصدقاؤه ابتكارًا جذريا. من أجل عدم العمل لصالح أشخاص لا يحبونهم والرضوخ لنزواتهم المهينة، فقد نأوا بأنفسهم عن العمل في العالم التجاري

بأثينا ('يجب أن نحرر أنفسنا من سجن الشؤون والسياسات اليومية')، فقبلوا طريقة حياة أبسط في مقابل الاستقلال. ستكون لديهم أموال أقل ولكن لن يضطروا مرة أخرى إلى اتباع أوامر الرؤساء البغضاء.

لم تؤثر البساطة على إحساس الأصدقاء بالمكانة لأنهم، عن طريق الابتعاد عن قيم أثينا، توقفوا عن الحكم على أنفسهم على أساس مادي. ليست هناك حاجة لأن تكون محرَجًا من الجدران العارية، ولا فائدة من الرياء بالذهب (الهاتف أو السيارة) بين مجموعة من الأصدقاء.

لذلك، فقائمة السعادة أو متطلباتها حسب أبيقور هي:

1. كوخ.
2. الأصدقاء.
3. تجنب الرؤساء، المتغطرسين.
4. الفكر.
5. الفن.

قد يكون من الصعب تحقيق السعادة فعلا. ولكن العقبات ليست مالية في المقام الأول.



الإحباط

كل الإحباط ينشأ من وجهة نظر خاطئة نحو العالم حسب الفيلسوف سينيكا.

نشعر بالإحباط لأننا نتوقع أن يتصرف العالم بطريقة معينة ومن ثم يتبين لنا أن الواقع مختلف. ينصحنا الفيلسوف العظيم الرواقي (stoic) بأن نكون مدركين دائمًا أن أسوأ سيناريو ممكن دائمًا وأن نكون مستعدين له، وعندما يحدث ذلك، نكون مستعدين له ولن ننجرف إلى الغضب أو الصدمة أو القلق أو اليأس، وكل هذه هي علامات لعقل غير مستعد ولم يكن متسقا مع الواقع. صحح وجهة نظرك للعالم لتقبل حقيقة أن الواقع قاسٍ وبالتالي تجد العزاء من هذه الإحباطات الشائعة.

هذا لا يعني أنه يجب عليك قبول كل شيء، فقد تكافح بشدة لتفادي المحن والمصائب ولكن عليك فقط أن تكون مدركًا لإمكانية حدوثها حتى لا تكون فريسة للغضب والحزن والإحباطات الأخرى.

الكتاب الثاني لم يعجبني كثيرا في معظم الأحيان. ومع ذلك، مثل القراء الآخرين، قرأته رغم ما لدي من مشاكل معه.

يمكن تلخيص الكتاب على النحو التالي: نحن جميعًا قلقون بشأن إحساسنا بوضعنا أو رتبتنا في العالم. مشكلة اليوم هي المساواة. لم نعد نعتقد أن الأشخاص الأكثر سوءًا هم "غير محظوظين"، لأن هذا كان المصطلح القديم بالنسبة لهم. بدلًا من ذلك، فهم الآن "فاشلون". هذا خطأهم. لذلك نحن نخشى الفشل أكثر من أي وقت مضى، لأنه خطأنا.

يحدد بوتون خمسة أسباب للقلق حول المكانة (الإحساس بالغبطة والتبجح والتوقع والجدارة والاعتماد) ويوفر ما يعتقد أنه خمسة علاجات للأمراض (الفلسفة والفن والسياسة والدين و "البوهيمية").

وكلام المؤلف عن الدين كان غير صحيح بتاتا حسب رأيي ولكن مع ذلك كان كتابا يلقي الضوء على مشكلة كبيرة في عالمنا.. وإن كان دون كتابه الأول في المستوى حسب تقييمي الشخصي.

ومن المهم أن ندرك أن مطالعاتنا يجب أن تكون واعية، أي أن نقرأ بتمعن

وبروح نقدية أيضا ألا نبتلع أي شيء يُلقى لنا.. بل نتفحصه وننقده، وليس علينا أن نترك الكتاب كاملا أو نأخذه كاملا بل نأخذ ما ينفعنا أو يفيدنا ونترك الباقي.



الإعلام الإنساني

من أهم القيم الخبرية (News Values) قيمة البعد الإنساني (human interests) حسب رأيي لأن لها تأثيرًا مباشرًا وكبيرًا على حياة الناس، ومن أهم المناحي التي يشتغل بها الإعلام هو هذا الجانب الإنساني المضيء بعيدا عن أخبار الأحداث والفظائع التي هي عادة مائدة الإعلام، وبعيدا أيضا عن الإسفاف في الوظيفة الترفيهية للإعلام.

وقد حظيتُ بشرف، ومتعة، المشاركة في إنتاج قصص ساهمت في تغيير حياة كثير من الأسر والأشخاص، خصوصًا الحالات الإنسانية والمرضية التي تناولناها فأبرزناها للعالم وكنا سببًا في إيجاد متبرعين لها من حول العالم، وذلك أساسا عبر سلسلة (قصة إنسان) التي أنتجها قسم الميدانيات (VJs) بقناة الجزيرة الرقمية (الجزيرة بلس)، أتذكر كل القصص وأصحابها من ذوي الإعاقات والأمراض والظروف الإنسانية الصعبة، فقد كنا نتابع الأشخاص ونحرص على إيصال صوتهم، وفي أغلب الحالات يجدون من يتبرع لهم بما يغير حالاتهم، ومن أسعد الأوقات أن نقوم بقصة متابعة (follow-ups) عن أحد الأشخاص بعد أن لقي الدعم وتم علاجه أو إيجاد حل لقضيته، فنراه سعيدًا فرحًا بعد حالته الأولى، خاصة إذا كان المعنيُّ طفلا، ومن هذه القصص التي ساهمتُ فيها قصة مدينة العميان (دالي كمب) في الشرق الموريتاني، فما زال كلام الأطفال وهم يتمنون رؤية أهلهم ورؤية السيارة في أذني حتى الآن، وكذلك كلام أهل القرية من العميان ووصفهم ظروفَهم المعيشية، وكم فرحتُ عندما شاهدتُ حجم التفاعل مع قصتهم، وما جلبت من تعاطف معهم واستعداد لمساعدتهم عبر العالَم، وقد قيض لهم الله من سعى في التخفيف عنهم ودراسة الجين المسؤول عن هذا العمى الوراثي.

ومن القصص التي أحزنتني ثم أفرحتني، قصة طفل مشخص بمرض يشبه مرض الشيخوخة المبكرة (Progeria)، حيث كانت تبدو عليه أعراض التقدم في السن رغم أنه طفل وكان ذلك سببا في تركه المدرسة لاستهزاء زملائه وسخريتهم منه، وكذلك لم يعد يخرج للشارع لنفس السبب وكان يعيش طفولة غاية في الصعوبة،

وأهله فقراء لا يستطيعون مساعدته ولا علاجه، وعندما أنتجنا القصة وبثثناها لاقت تفاعلا كبيرا، وبعد سنة أنتجنا عنه قصة وهو في النمسا حيث تكفل محسنٌ نمساوي شاهد القصة مترجمة في القسم الإنكليزي للقناة فقرر أن يتبنى قضية الطفل، وكان متبرعون آخرون قد مكنوا الأسرة من الذهاب إلى إسطنبول قبل ذلك، فرأينا الطفل يتماثل للشفاء، يلعب ويذهب إلى المدرسة بشكل طبيعي.. وهذه أكبر جائزة يمكن أن نحصل عليها عن قصة.

كما أتذكر البنت مريانا من الأردن التي كانت تعاني من الشلل، ولم يكن في استطاعة الأسرة توفير العلاج لها الذي يكلف مبالغ طائلة، وكيف أنهم صاروا يبيعون الورود لجمع المال، وبعد أن أنتجنا القصة وجدت متبرعا وتم جمع المبلغ المتبقي وسافرت إلى أمريكا لإجراء العملية..

وكذلك تلك المرأة التونسية التي تحمل ابنها المُقعد على ظهرها يوميا لحضور دروسه في الجامعة، وكيف أثر تناولُنا لها على حياتها وحياة ابنها.

ومن مزايا هذا النوع من الإعلام هو بث الروح التفاؤلية والنظرة الإيجابية للحياة في المجتمعات، وأن العالم بخير رغم كل ما يجري من حروب ومجاعات وفظائع، وإلهام المتلقين للقيام بدور إنساني مجتمعي، فعندما نشاهد هذه القدرة على التأثير الإيجابي، نتفاءل بقدرتنا أيضًا على عمل شيء للناس والتطوع للمساعدة، لتخفيف ألم، أو إنقاذ شخص، أو على الأقل المواساة، كما أنه ينشر ثقافة الإنسانية والرأفة والمسامحة فضلا عن التعريف بأهمية التبرع والتطوع.

الأمثلة كثيرة في هذه السلسلة وهي موجودة على منصات الشبكة الرقمية، وهي عندي من أهم أسباب السعادة أن تحس أنك تُحدث تأثيرًا إيجابيًا على كثير من الأشخاص المحتاجين، فتكون سببا في إزالة معاناتهم وتفريج كربهم، ولا شيء يعدل عندي ذلك الشعور، خصوصا أنهم أشخاص لا تعرفهم ولا تربطك بهم أية أسباب شخصية غير الإنسانية، فهم من دول وخلفيات وأعراق وثقافات متنوعة.



Self-fulfilling prophecy

(نبوءة ذاتية التحقق)

هي نظرية تقوم على فكرة أنك عندما تسعى لشيء معين وتتنبأ به فإنك بذلك تساهم في وقوعه، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مثلًا عندما تتوقع من شخص ما النجاح وتتنبأ له به، فربما أثر ذلك فيه ودفعه إلى النجاح فعلا..

والعكس بالعكس، وهذه النظرة مهمة في التنشئة الاجتماعية، فعندما نشجع الأبناء ونربيهم على أنهم مميزون وناجحون، وأننا نتوقع منهم كل التفوق والامتياز، فنحن بذلك نساهم في امتيازهم وتفوقهم، لإيماننا بهم وتوقعاتنا منهم..

فهم لا يريدون أن يخيبوا ظننا فيهم وفي قدراتهم وملَكاتهم.

ولهذه النظرية أهميةٌ كبرى في الحياة السياسية خصوصا، حيث أن الإعلام يلعب دورًا محوريًا في الأحداث عبر هذه التقنية، فهو بتركيزه مثلا على اعتبار فصيل ما إرهابيًا أو عنصريًا فإنه يدفع ذاك الفصيل لا شعوريًا لأن يكون إرهابيًا أو عنصريًا وإن لم يكن كذلك أصلًا.

ومن استخداماتها السلبية ما يتم في مجال تربية الأطفال، حيث إننا نلقي عليهم باللوم ونكرر أنهم فاشلون ولا يستطيعون النجاح ولا التفوق، ونحن بذلك نساعد في فشلهم وربما ندفعهم إليه وإلى عدم استطاعتهم النجاح في أي شيء،

وهذه العملية تجري دون أن تُلاحظ في أكثر الأحيان، ولله في خلقة شؤون!



المعاصرة والمناصرة

قديمًا قالوا إن المعاصرة تمنع المناصرة، وهو قولٌ لا يخلو من وجاهة، فكم رأينا الناس يتجاهلون المبدعين وأصحابَ الشأن من المعاصرين، ويطنبون في إطراء مَن هو ربما دونَهم من الأقدمين، وحتى المبالغة أحيانًا في تقديم الأقدمين على المعاصرين جملة، وقد تجدهم يتجاهلون الأحياء حتى إذا توفي أحدهم إذا هم يكتشفون كم كان عبقريًا فذًا لا نظير له! وقد كان يعيش بين ظهرانيهم ولا يولونه أي اهتمام ولا اعتبار!

هذه الملاحظة أثارت انتباهي، فهل هي في الضمير الجمعي للبشر، حيث تكون المنافسة (حتى في أشكالها البدائية المحضة) تجعل الأحياء كلَّهم خصوما محتملين بينما الأموات لم يعودوا يشكلون أي تهديد وبالتالي فلا خوف منهم؟!



القدوة!

من خطورة الأدوار التي يلعبها الإعلام في المجتمعات، والتي قد لا تكون بديهية للجميع، هي قضية "صناعة الرموز" أو الأبطال أو مَن يُنظر لهم على أنهم القدوة الحسنة، من مشاهير وقادة رأي (Opinion leaders) أو مؤثرين (influencers)، والحقيقة أن الإعلام هو من صنعهم دون معايير معروفة، وقد يكونون أبعد الناس عما يوصفون به!

وهناك في الإعلام نظرية (Agenda Setting) وخلاصتها أن الإعلام يقول لنا بمَ نهتم، ومَن نُقلِّد، وما هو المهم من الأخبار. إلخ

إن تركيز الإعلام على قضية معينة أو شخصية ما وتكرار ظهورها فيه وكثرة تعرض exposure المشاهدين/ القراء/ المستمعين لها يجعل المتلقين يهتمون بها لا إراديا وهنا المشكلة، فوسائل الإعلام، ومؤخرًا وسائل التواصل الاجتماعي، أصبحت حرفيًا تُملي علينا ما ينبغي أن نهتم به ومَن ينبغي أن نتخذ أسوة!

والمتابع لهذه الوسائل باختلافها يرى أن المتلقي العادي عندما يرى الناس تتفاعل مع "شخصية ما" يعتقد أنها مهمة وفاعلة ما دام يراها في برامج الإذاعة والتلفزيون وفي المقابلات وعلى مواقع التواصل حتى يألفها وتصير من قادة الرأي فتنهال عليها الدعوات من كل حدب وصوب..

بينما يقبع آخرون، ربما ليست لهم نفس الصلات والعلاقات بالمجتمع الإعلامي، أو ربما يزهدون في الظهور فيه، أو لأي سبب كان، هؤلاء يتوارون، طوعًا وكرهًا، تاركين المجال لصناع القادة وموزعي البطولة هؤلاء.

لذلك من المهم أن ندرك هذا الدور، ونقيم الأشخاص المشاهير تقييما موضوعيا، فهل هم قادةُ رأي فعلا؟

وهل شهرةُ الشخص تعني أنه يمكن أن يصبح قدوة وأسوة؟



مع ذكريات رمضان

رمضان موسمٌ ديني، لكنه أيضًا موسم أسواق و بيزنس بامتياز، لكنني سأتناوله من حيث هو موسم ذاكرة، إن كمية الذكريات المرتبطة لدينا برمضان مذ كنا صغارًا نعشو إلى حكايات الأكابر، وننتظر معهم الفطور في ترقب ولهفة عجيبين، وما يرتبط بالفطور من استماع للإذاعة وبرامجها الخاصة، ومن صلاة ومن رياضة بعد الفطور وتنزه، ثم برامج السهرات مع الألعاب التقليدية قبل هجوم التلفزيون.

أتذكر سنوات مقامي في مصر أن لرمضان من الطقوس والأهازيج الصوفية (وحوي يا وحوي) وحتى الأطعمة (القطايف والكنافة) والأشربة (قمر الدين) ما يجعله متميزًا في كل شيء..

لن أسهب في العادات الغذائية والسلوكية الشائعة في هذا الشهر، بل سأتجاوز بك إلى معانيه وصوره العالقة في الذاكرة، صورة العائلة متحلقة أمام المذياع تستمع للقرآن الذي يُبث قبل أذان المغرب، عادة بصوت الشيخ محمد الأغظف ولد محمد سيدي، صوت تقليدي حميم، ارتبط عندنا بهذا الوقت، ومنظر صحن التمور وأواني الشراب (الزريق) البارد، فلم يكن الأكل شائعا مباشرة مع الإفطار، ولم تكن (الشُّربة) ولا الحلويات بهذا الشيوع، طبعًا من أهم الذكريات ما يتعلق بصلاة التراويح، الرياضة بعد الإفطار، السحور وما أدراك ما السحور! إنه ذلك الوقت السحري الذي لا يستيقظ فيه إلا الكبار، فكم منيتُ نفسي بالاستيقاظ ومشاركتهم السحورَ دون جدوى، وكم تصورتُ وجبة السحور حتى بنى خيالي لها صورًا وأشكالًا بديعةً وخيالية.

إن لرمضان أكثر من وجه، فهو يأتي محملا بكم كبير من الذكريات التي تشمل كل الحواس، فضلا عن معناه الروحي وما فيه من سمو إلى الملائكية.



في الحياة

نقابل في الحياة أشكالًا وشخصياتٍ مختلفةً، وما يثيرُ عجبي ليس هذا الاختلاف الأزلي، فهو طبيعي، ومن الشخصيات التي تعلق بالذاكرة، تلك الشخصية التي ترى في الجميع انتهازيين أو مجرد محظوظين، فإذا ظهر أحدهم في جريدة أو تلفزيون بدأ في نقده وأنه جاهل ولا يستحق وأبدى من معايبه الشيء الكثير، وكأنه بذلك يعوض نقصًا فيه، أو كأن العلم والجاه والخصال الحميدة مخزن محدود كلما أخذ منه أحد شيئًا قَلَّت حصةُ الباقين منه!

إنه ناقد ناقم على الجميع، وليس يدري أنه بذلك يضر نفسه أكثر مما يضر الآخرين، فهو، رغم كونه متعلمًا وناجحًا في حياته أحيانا، إلا أنه يود حصر هذه الصفاتِ فيه قصرًا وحصرا، وإذا أثنيتَ على شخص في حضرته فكأنها شتمته أقذع شتيمة!

هذه الشخصيات تجني على أنفسها أعظم جناية، ولا تدرك غالبا أن الناس يعرفون ويحسون بذلك، وأعظم جناية وربما حماقة هي أن تحسد أحدا على شيء.

هذا يضرك فقط، وفي النهاية آراؤك في الآخرين غير مهمة، فلا أحد سيأخذ كل آرائك في الآخرين على كل حال.. وإنما سيعرف أنك تكره فلانا أو علانا وهذا لا يعني له شيئا في النهاية.

فالكلام في الناس صفة الضعفاء، لا الأقوياء.



هل نسير مع القطيع فقط؟

هناك نظرية في الإعلام مفادها أن الناس يحبون دائما أن يكونوا موافقين للآخرين، في آرائهم وتصرفاتهم، لكي يكونوا مقبولين اجتماعيا، وهي حاجة يقول أصحاب علم النفس إنها متجذرة في البشر، فالإنسان اجتماعي بطبعه، ويحب أن يكون مقبولًا في مجموعته، ولكن هذه الحاجة البدائية قد تدفعنا من حيث لا ندري إلى أن نكون تابعين للقطيع، فتختفي شخصياتنا وآراؤنا الخاصة، ونصبح نسخا مكررة، وقد قام أحد العلماء بتجربة بسيطة، حيث رسم ثلاثةَ خطوط متفاوتةِ الطول، وطلب من مجموعة متطوعين أن يختاروا الخط الأطول، وأخبرهم أنه سيضع نقطة أمام كل خط اختاره شخص ما، من مجموعة ثانية من المتطوعين، وأعطاهم الورق فيه نقاط كثيرة أمام خط معين، وليس هو الأطول.. ولكن المتطوعين كلما رأوا أن أغلب الناس اختاروا هذا الخط اعتقدوا بدورهم أنه هو الأطول ومضوا معهم واختاروه أيضا.

وقضية موافقة الأكثرية هذه تلعب عليها وسائل الإعلام وخصوصًا وسائل التواصل الحديثة لأنها توهمنا أن الأغلبية مع هذا الرأي مثلا، وحتى في السياسة، تعطي بعض الجهات على هذه الوسائل في جميع استقصاءاتها نسبة أعلى لمرشح معين، عبر ما يعرف بجيوش "الذباب الإلكتروني" لإيهام الناس أن هذه هي الأغلبية وبالتالي التأثير عليهم..

والمتأمل لهذه الوسائل يرى كيف تؤثر بهذه التقنيات على الناس على مستوى اللاوعي، Subconscience.

ومن النظريات المعروفة في الإعلام أيضا والمطبقة بكثرة للتأثير على المتلقين، هي نظرية "confirmation bias" أو الانحياز التأكيدي، ويعني أن الإنسان يميل إلى تصديق واستقبال ما يتناسب مع معتقداته وآرائه وخبراته السابقة ويعضدها، فنرى المحافظين يتابعون القنوات المحافظة والجرائد والمواقع المحافظة وكذلك الليبراليون والتقدميون كل يتابع في الأغلب الأعم ما يناسب معتقداته السابقة ويعضدها، فإذا أردنا أن نؤثر عليه راعينا ما يعتقده حتى لا يكون هناك تعارض بين

رسالتنا وبين معتقداته.

وهذا التعارض يسمى cognitive dissonance أو التنافر المعرفي.

وفي إطار تأثير الرسائل الإعلامية علينا أيضا عبر وسائل التواصل يقومون بزيادة غير حقيقية في عدد متابعي شخصية معينة، فيظن المتلقي أنها لا شك تستحق الاستماع لها لأن كل هؤلاء الناس يتابعونها، ويتفاعلون معها، ومن هنا جاءت مسألة شراء الروبوتات الرقمية لزيادة المتابعين والمتفاعلين، وحديثا قامت هذه المواقع بمحاولة للتصدي لهذه الممارسات عبر إخفاء عدد المتابعين أو عدد من شاهدوا مقطعا معينا على يوتيوب مثلا حتى لا تستخدمه شركات الدعاية في التأثير على الناس.



هل يشوه فيسبوك وأمثاله عقولنا؟

إن مسألة مواقع التواصل الاجتماعي وتأثيرها فينا نفسيا أصبحت مسألة بادية للعيان، ومن أهم مظاهرها هذا الجوع والنهم للإطراء وإدمان المجاملة من الطرفين المُجامِل والمجامَل، حتى أضحى السكوت عن منشور ما وكأنه خيانة لصاحبه! كيف لم يُعجب فلان بمنشوري؟ كيف لم يعلق!

ولعل من أخطر الظواهر المرتبطة بالتواصل الاجتماعي هي المقارنات الظالمة، Unfair comparison، حيث نرى المنشورات الرائعة ونرى حياة المشاهير ونقارن أنفسنا بهم أو بالصورة – المزيفة غالبًا – التي يصنعونها لأنفسهم، وهي صورة مثالية غير واقعية، كما أننا نهمل الجوانب الأخرى الغائبة من الصورة ..

وأحب أن أعطي مثالا شهيرا على هذه المسألة، فلو أخبرتكم أن صديقي عبد الله مميز فهو يقرأ مدة ربع ساعة كل أسبوع، لكن أحمد أكثر تميزا بكثير فهو يقرأ ساعة كاملة كل يوم بانتظام، من الواضح أن أحمد أكثر تميزا ونجاحا من عبد الله في هذه الصورة، لكنها صورة ناقصة كثيرا فقد أغفلتُ تفاصيل حياتيهما الأخرى ..

فانظر إلى التفاصيل الآن:

عبد الله	أحمد
عمره 20 عاما	تجاوز الثلاثين!
هو المعيل الوحيد لأخواته	من أسرة ميسورة الحال
يعمل بدوام كامل	يعمل في شركة والده بدوام مرن flexible hours
يعاني من ضعف النظر	سليم الجسم

فانظر كيف اختلفت الرؤية لديك عنهما! وكلما زدنا التفاصيل كلما اتضحت الصورة أكثر وأكثر، فالمرة القادمة التي ترى فيها أحدهم بصورة مثالية على مواقع التواصل وتحس بأنك فاشل أو جاهل أو فقير أو تعيس.. فتذكر أنك ترى جزءًا صغيرًا فقط من الصورة، وهناك تفاصيل مُغفلة لا تعرفها وربما غيرت الصورة تماما.

فاحذروا من فخ المقارنة، فالمقارنة الوحيدة المطلوبة هي أن تقارن نفسك بماضيها فقط، كيف كنت في الماضي وكيف أصبحت اليوم، فهذا يدعوك للتحسين

والتطوير الذاتي بعيدا عن الإحباط وتبخيس نفسك بمقارنتها بآخرين يختلفون عنك في ظروف حياتهم وتنشئتهم وحتى جيناتهم.. إلخ.

فكم أثرت هذه الوسائل على ثقة الشخص بنفسه self-esteem وقيمته في الحياة self-worth، وكثير منا يعرض نفسه فيما يسمونه في الغرب العملة الاجتماعية social currency، أي أنك تقيم صورك ومنشوراتك وشكلك بعدد الإعجابات أو التعليقات التي تحصد، فكلما زادت زادت القيمة وكلما نقصت نقصت القيمة! وكأننا نعرض أنفسنا في المزاد! فكم منا نشر صورة أو منشورا ولما لم يلق الإعجاب المتوقع أحبط وحذفها من حسابه؟ وهذا اعتراف ضمني بأن قيمة ما ننشره – وبالتالي قيمتنا نحن – تتحدد بعدد الإعجابات والتفاعل معها من طرف أناس لا نعرف أغلبهم، ومستوياتهم متفاوتة معرفيا وأخلاقيا.. إلخ ومع ذلك نسمح لهم بتقييمنا بل نقيم أنفسنا اعتمادا على آرائهم! إنه لشيء عجاب!



ثانيًا:

في الإعلام والترجمة

«البودكاست» التدوين الصوتي..
وتجربة فيس وبلوغر ويوتيوب..

تعرفت على البودكاست أو التدوين المسموع منذ فترة وقد أعجبتني خصائصُه وإمكانياتُه فهو، بما أنه مسموع، يُمكنك الاستماع له خلال السياقة مثلا وخلال رحلاتك اليومية للعمل عكس الوسائل الأخرى التي تتطلب تفرغا ومشاهدة، كما أنه يتيح إمكانية تحميل الحلقات والاستماع إليها لاحقا في الوقت الذي تريد، وهو وسيلة عرفت انتشارا واسعا في الغرب خصوصا مع انتشار الكتب الصوتية المسموعة، وقد قدمت فيه إحدى عشرة حلقة تحت عنوان **(جرعات أدبية خفيفة)** تناولت فيها بعض القراءات والجولات في عالم الشعر والرواية والأدب عموما..

وبعد ذلك سجلت برنامج **(مناجاة الليل أو إمام_كاست ImamCast)** في 15 حلقة وهو عبارة عن تأملات في الناس والحياة والقيم.. وفيه أيضا لقاءات مع مثقفين ومفكرين..

وكنت في فيسبوك قد سجلت حلقات في بث مباشر تحت وسم **#تداعيات_أدبيات** خصصتها للتحدث عن المتنبي أساسا وآرائي في قصائده وحياته.. وقد بثتها إذاعة التنوير بعد ذلك، وهي أيضا على يوتيوب وعلى بلوغر على نفس الوسم.

روابط هذه الحلقات كلها في الفهرست.



مشهديات

كان "منتدى المشهد الموريتاني" أولَ مجالٍ أدبي افتراضي مفتوح.. ضمَّ نخبةً من المثقفين والكتّاب والشعراء غالبيتهم كانت من الطلاب المتفوقين الدارسين في الخارج لعدم توفر الإنترنت آنذاك في الوطن..

وشهِدَ المشهدُ بواكير الكتابة النثرية عندي.. وكذلك الترجمة الأدبية التي قدمتُ من خلالها بعضَ النصوص الأجنبية.. كما كانَ ركنًا دافئًا لتعاطي الثقافة والشعر.. ومناقشة جديد المنشورات.. ومنه انطلقت كوكبة كبيرة ممن لهم الآن شأن في الثقافة والفن والمجتمع.. وقد اقترحَ علي أولئك الأصدقاء إعادةَ نشرِ بعض تلك البواكير لكن أغلبها ضاع للأسف، فالموقع مرَّ بعدة تجديدات ضاع فيها الكثير.. لكنني سأنشر بعض تلك المقالات مثل مقال عن وهم الشهرة السيبرانية وهو مقال أعيد نشرُه على موقع موريتانيا الآن والأخبار إينفو تحت عنوان "وسائل نشرنا".. (رابطه في الفهرست)

وأتذكر أيام كتاباتي في المنتديات أن "بعضهم" راسلني قائلًا: قلمك رائع إلاّ أنك للأسف الشّديد ملتزم دينيا. وهذا سيمنعك من التّحليق في سماء الإبداع..

***

ولي صديق أديب ومن أهل التجنيح جدًّا.. دائما يقول لي "محمد لقد خنتَ الحداثة وكفرتَ بالإبداع وصرتَ مجرد "درويش من أهل ايكيدي" بعدما كنتَ تكتب وتبدع.. فأقول له.. شكرا على الإطراء الجميل!

ومن الطرائف في الإنترنت كثرة التحذلق واهتمام البعض بتخطئة الناس حتى ولو لم يكن يعرف عن ماذا يتحدث!

وأذكر أني مرةً نُشرت لي قصيدة في الرثاء على موقع المذرذرة اليوم.. وكان فيها البيت:

مَن يعشْ يلْقَ في الزمانِ رزايا   ويرى بالعيانِ غدرَ الزمانِ

فعلق بعضهم قائلًا إن الفعل "يرى" محله الجزمُ "ويرَ".. فأجبتُه ساعتها بنص

ألفية ابن مالك:

"والفعلُ من بعد الجزا إنْ يقترنْ بالفا أو الواوِ بتثليثٍ قمنْ"

وحتى جواب الشرط قد لا يُجزمُ وهو كثيرٌ في الشعر.

وذكرتني القصةُ بحكاية عند التلاميذ أن أحد تلامذة العلامة النحوي "اباه" يحظيه بن عبد الودود رَحِمَهُ اللَّهُ سمع أحدهم يقول ما في الأثر: " ربَّ صائمه لن يصومه..." فقال: "مَن هذا الذي لم يدرس باب الإضافة؟.. يقصد قولَ ابنِ مالك:

"واخصصْ بمذ ومنذ وقتًا وبرب منكرًا والتاء لله ورب"

فأجابه: "ومَن هذا الذي لم يتجاوزْ باب الإضافة؟".. مشيرًا إلى قول ابنِ مالك:

"وإن يشابه المضاف يفعلُ وصفًا فعن تنكيره لا يُعزلُ"

وتُروى هذه القصة عن العالم مولود ولد أحمد الجواد.

وقد نشرت في فيسبوك مرة تهنئة فيها.. جمع "التهنئات"، وفيها: وُقيت شرَّ الليالي.. وطارقَ الحدثانِ.

فعلق لي بعضهم بأن جمع تهنئة هو تهان وأن الصحيح وطارق الحدثين..

شكرتُهما على التنبيه وفهمتُ أنهما – ضمنَ أشياء أخرى - قطعًا ليسا من محبي شيخنا أبي الطيب الذي يقول:

وَلـمْ تَحْمِـلُ السّيفَ الطّوِيلَ نجادُه وَأنْتَ غَنيٌّ عَنْهُ بالحَدَثَانِ

وهو نفسُه القائل أيضًا:

إنّمَا التّهْنِئَاتُ لِلأكْفَاءِ ولمَنْ يَدَّني مِنَ البُعَدَاءِ

وكأنه تكفل بجوابهما عني على بعد آلاف السنين.. وربما تلك من معجزات المتنبي (مجازًا).



مستويات اللغة

تحدى جيلُنا العربيُ الأول من الكتّاب والروائيين الواقعيين خصوصًا عقباتٍ لغويةً كأداء كانت في طريقه، وذلك في مستويات الخطاب المتباينة تباينَ المخاطِب والمخاطَب والموقف، وهو ما عبر عنه بعضهم باللغة الدارجة أحيانًا وحتمية استخدامها للدلالة على مستويات المتحدثين، فلا يمكن أن نجعل رجل نظافة مثلًا يتحدث في رواية بنفس مستوى دكتور متخصص، فمن خصائص الشخصية في الرواية مستواها اللغوي.

ولهذا دعا بعض الأوائل إلى استخدام العامية كمستوى ثانٍ للغة الروائية، فحسب رأيهم من غير المستساغ أن يتحدث أستاذ الجامعة بنفس المستوى اللغوي (الفصيح) الذي يتحدث به بواب العمارة غير المتعلم، وقد تناول الكاتب المصري المسرحي توفيق الحكيم هذه القضية في بعض مقدمات مسرحياته، وقد كتب بعض أعماله المسرحية بالعامية المصرية، وأعتقد أن نجيب محفوظ وجيله ومن بعدهم قد خدموا اللغة الفصحى كثيرًا حيث قربوها من الواقع فوصفوا بها جميع العواطف والمواقف الإنسانية المعاصرة.

وقد أثبتت هذه التجارب الروائية بالفصحى أن هذه اللغة تصلح وعاءً لأدبنا الحديث كما صلحت لأدبنا القديم.



التنمية البشرية

أولَ ما اطلعتُ على "علم الحياة" أو "التنمية البشرية" أو "البرمجة اللغوية العصبية"، كان عبر كتابيْ ديل كارنيجي، ترجمة الأستاذ الزيادي، وقد لاقت حينها قبولًا كبيرًا لدي، خصوصًا كتاب "دع القلق وابدأ الحياة"، وسأتناوله في جزء الكتب من هذا الكتاب، فقد صادف هوىً خاصًا في فؤادي، أنا الذي عانيتُ من أنواع شتّى من القلق وضروب مختلفة منه، وكانت فكرةُ التأليف اعتمادًا على تجاربَ شخصيةٍ فكرةً بديعةً بالنسبة لي، وجديدة حيث إن أغلب الكتّاب والمؤلفين يتناولون المواضيع أكاديميًا بشكل جاف لا تظهر فيه التجربة الإنسانية غالبا، وبعد هذين الكتابين، قرأتُ عددًا كبيرًا في هذا المجال، ولكن للأسف أكثر الكتب كانت تجارية بحتة لا تحمل إلا كلامًا سخيفًا مقطّع الأوصال، فأُغرقت السوقُ بآلاف الكتب التي تقدم كل أنواع الوعود الزائفة، وما أرخص وأسهل الوعود!، ابتداءً من (كيف تتعلم الصينية في 5 أيام) إلى (كيف تجني المليارات في ساعات) حتى صار الأمر منفِّرا من كل كتاب يَعِدُ بشيء حتى لو كان صادقَ الوعد!

فحسب رأيي مؤلفو هذه الكتب هم فقط من استفادوا منها عبر العائدات المادية، وربما تكون أقصر الطرق لجني المال ليس قراءة الكتب التي تعِد بذلك بل بتأليفها!



من ترجماتي

سأقدم لك عزيزي القارئ هنا بعضًا من المقالات التي قمت بترجمتها مؤخرًا من اللغة الإنكليزية، في مواضيع جديدة ولم تتوفر لها مراجع كثيرة بالعربية.

Minimalism: المذهب التخَفُّفي"

«البساطة والوضوح والشعور بالخصوصية: هذه هي السمات التي تمنح حياتنا القوة والحيوية والفرح لأنها تمثل أيضًا علامات الفن العظيم»
- ريتشارد هولواي

ظهرت في مواجهة النزعة الاستهلاكية والمادية الطاغية على عالمنا اليوم مدرسة تمسي نفسها "Minimalism" وترجمتي لها هي المدرسة التخفُّفية، والبعض ترجمها ترجمات أخرى، وهي ببساطة حسب الكتب التي طالعتها في هذا لمجال، الاكتفاء بالحد الأدنى، أو الكفاف.

وطبعا هذه الفكرة موجودة منذ الأزل، وفي ديننا الحنيف خصوصا في المدارس الصوفية.. كما هو معروف ولكنني هنا سأحاول شرح المدرسة كما يتناولها أصحابها ومؤسسوها، وذلك لعدم وجود ترجمات لهذه الكتب في لغتنا حتى الآن، يقول هولواي: غالبًا ما يُطرح علي السؤال، " ما هو الحد الأدنى على أي حال؟" إنه سؤال تم تناوله من جميع الزوايا المختلفة - من أشخاص قابلتهم للتو ومن أشخاص عرفتهم منذ سنوات عديدة. أجيب عادةً بتفسير قصير وبسيط: "أحاول عمدًا أن

أعيش فقط مع الأشياء التي أحتاجها حقًا". لكنني دائمًا ما أرغب في الإجابة بشكل أكثر تعمقا. آمل دائمًا أن يسألوا أسئلةً متابعةٍ تسمح لي بتوضيح نمط الحياة بشكل أكبر. وعندما يفعلون، أود أن أضيف:

الحد الأدنى هو الكفاف. والتخفُّفية في جوهرها، هي الترويج المقصود للأشياء التي نقدرها أكثر، وإزالة كل شيء يصرف انتباهنا عنها. الحد الأدنى هو الحرية من حب التملك.

ويرى أصحاب هذه النظرة أن الثقافة الحديثة قد اكتسبت كذبة أن الحياة الجيدة موجودة في تراكم الأشياء، في امتلاك أكبر قدر ممكن. إنهم يعتقدون أن ما هو أكثر هو الأفضل واشتركوا عن غير قصد في فكرة أنه يمكن شراء السعادة من متجر متعدد الأقسام.

لكنهم مخطئون. فالتخففية وبالتالي السعادة تكمن في التحرر من شغف وحب المستهلك للامتلاك. إنها التحرر من حلقة النزعة الاستهلاكية المفرَغة والجرأة على البحث عن السعادة في أي مكان آخر. إنها تقدر العلاقات والتجارب ورعاية الروح. وبذلك، تجد الحياة.

عالمنا يعيش بوتيرة محمومة. لقد أسرعنا للغاية، وهرعنا في كل اتجاه، وتشددنا كثيرًا في طلب المال. نحن نعمل لساعات طويلة لدفع الفواتير، لكننا نقع في الديون. نحن نندفع من نشاط إلى آخر - حتى القيام بمهام متعددة على طول الطريق - ولكن لا يبدو أننا ننجز أي شيء على الإطلاق. نحن لا نزال على اتصال دائم بالآخرين من خلال هواتفنا المحمولة، لكن العلاقات الحقيقية المغيِّرة للحياة ما تزال بعيدة المنال.

التخففية تبطئ الحياة وتحررنا من هذه الهستيريا الحديثة للعيش بشكل أسرع. لنجد حرية فك الارتباط. وتسعى للحفاظ على الضروريات فقط. تسعى لإزالة الأشياء التافهة والحفاظ على الأشياء المهمة. وعند القيام بذلك، فإننا نقدر المساعي الحثيثة التي تضيف قيمة إلى الحياة.

التخففية هي أيضًا التحرر من الازدواجية. فعلى الرغم من أن لا أحد يختار

ذلك عن قصد، إلا أن معظم الناس يعيشون في ازدواجية. إنهم يعيشون حياة حول أُسرهم، وحياة حول زملائهم في العمل، وحياة أخرى حول جيرانهم. يتطلب نمط الحياة الذي اختاروه تصويرَ صورة خارجية معينة وفقًا لظروفهم.

من ناحية أخرى، فإن الحياة التخففية موحدة ومتسقة. إنها أسلوب حياة يمكن نقله بالكامل بغض النظر عن الوضع. إنها نفس الحياة مساء يوم الجمعة كما هي في صباح الأحد.. كما هي في صباح الاثنين. إنها موثوقة، يمكن الاعتماد عليها وغير متقلبة. إنها صالحة في كل الظروف.

نحن نعيش في عالم يعبد المشاهير. يتم تصويرهم من أجل المجلات والتلفزيون، وإجراء مقابلات معهم على الراديو، وتسجيلهم للتلفزيون. وتُعتبر حياتهم معيارًا ذهبيًا ويحسدهم عليها الكثيرون. الناس الذين يعيشون حياة الحد الأدنى أو التخففية لا تدعمهم وسائل الإعلام بنفس الطريقة. إنها لا تنسجم مع ثقافة المستهلك التي تروج لها الشركات والسياسيون. ومع ذلك، فإنهم يعيشون حياة جذابة ومبهرة.

في حين أن معظم الناس يلهثون خلف النجاح والسحر والشهرة، فإن التخففية تدعونا بصوت أصغر وأكثر هدوءًا. إنها تدعونا إلى التأني والتؤدة، والاستهلاك الأقل، ولكن مع التمتع الأكثر. وعندما نلتقي بشخص يعيش حياة مبسطة، فإننا ندرك غالبًا أننا نطارد الأشياء الخاطئة طوال الوقت.

الحد الأدنى ليس خارجيًا، بل هو داخلي والحد الأدنى قابل للتحقيق تمامًا.

هناك الكثير من العائلات تقف كدليل حي. لا شك أنك أيضا تعرف بعضهم شخصيا، كانوا مجرد عائلة نموذجية مكونة من أفراد يعيشون في الضواحي مثلا وتتراكم لديهم أشياء بقدر ما تسمح به مداخيلهم المادية. ثم، بعد ظروف أخرى، نجد نفس العائلة وقد تبنت، بوعي أو بغير وعي، نمط حياة تخففية للعيش مع الأقل ولكن حياتها وسعادتها ما زالت كما كانت في عهد الاستهلاك والجمع!



المدرسة أو النزعة المادية Materialism

يمكن أن تشير المادية إما إلى الانشغال البسيط بالعالم المادي، بدلَ المفاهيم الفكرية أو الروحية، أو إلى النظرية القائلة بأن المادة الفيزيائية هي كل شيء. هذه النظرية هي أكثر من مجرد تركيز بسيط على الممتلكات المادية. وتنص على أن كل شيء في الكون هو مادة، دون أي وجود روحي أو فكري حقيقي. ويمكن أن تشير المادية أيضًا إلى مبدأ أن النجاح والتقدم المادي هما أعلى القيم في الحياة. يبدو أن هذه العقيدة سائدة في المجتمع الغربي اليوم وحتى في بعض مجتمعاتنا الحضرية للأسف. كما يمكن أن تشير المادية أيضًا إلى مصطلح المادية الثقافية.

ويمكن تتبع المادية ونظرياتها التي تعود ربما إلى قصيدة "طبيعة الأشياء"، التي كتبت في القرن الأول قبل الميلاد. بواسطة لوكريتيوس. من بين الأعمال البارزة الأخرى: The System of Nature

لـ Paul d'Holbach، Force and Matter by Ludwig Buchner ، والأبحاث الحديثة التي أجراها

Richard Vitzthum، An History History and Definition.

والمادية كفلسفة يعتنقها أولئك الذين يؤمنون بأن الوجود يمكن تفسيره فقط من الناحية المادية، مع عدم وجود حساب للروح أو الوعي. يرى الأفراد الذين يتمسكون بهذا الاعتقاد أن الكون أداة ضخمة يتم تجميعها بواسطة أجزاء من المادة تعمل وفقًا لقوانين طبيعية. بما أن المادية تنكر جميع مفاهيم الخلق الخاص، فهي تعتمد على نظرية التطور لتفسير نفسها، ما يجعل المعتقدات في المادية والتطور مترابطة.

الإشكال الأول الذي يجب أن تطرحه هذه النظرة للعالم هو أن يطرح معظمنا السؤال التالي: "إذا كان كل ما هو موجود مادة فقط، فمن أين جاءت القوانين الطبيعية التي تحكمها؟" إن الاكتشافات العلمية الجديدة في مجالات التعقيد البيولوجي والتصميم الكوني والفيزياء الكمية ونظرية المعلومات تثير تساؤلات كثيرة

حول مفهوم المادية. كما أن هذه الاكتشافات تثبت أيضا عبر عدد هائل من الأدلة أن الكون وجوانبه المادية مرتبطة بشبكة من الطاقة والتصميم والمعلومات. وهنا نرى كمسلمين مؤمنين بالخلق أكثر بكثير من المادة، نرى نتيجة الخلق الواعي.

والمادية، في مستواها الأبسط، تتضمن التركيز على "الأشياء" المادية بدلًا من تلك الروحية أو الفكرية في الطبيعة. نحن نعيش في عالم تحيط به ويتكون من المادة. لذلك، من الطبيعي أن ننصرف عن المساعي الروحية أو الفكرية عن طريق الممتلكات المادية، ولكن هذا يحدث في كثير من الأحيان وفيه تكمن المشاكل.

يمكن أن نصبح مهووسين بالرغبة في الحصول على الأشياء المادية، أو ببساطة نشعر بالإحباط بسبب الحاجة إلى الحفاظ عليها.

الأسئلة التي يجب أن يطرحها هذا الموقف لنا هي: "هل الأشياء المادية أكثر أهمية حقًا من أي شيء آخر؟ هل النجاح المادي هو الهدف الأعلى؟ إذا كانت كل الأشياء مادة بحتة، فما هي الحياة؟ لماذا نحن هنا أصلا؟ إذا كانت الحياة هي فقط عن المادية، لماذا يجب أن نحاول حتى أن نعيش حياة أخلاقية؟ ما الذي يهمنا من كيفية معاملة الآخرين أو كيف نعيش، طالما لدينا ما نريد؟

يبدو أن النظريات الحالية للمادة مغمورة بالظلال والشكوك. ولا نحتاج إلى استنتاج أنه من الضروري اتخاذ وجهة نظر معاكسة تمامًا. وفي النهاية، يؤثر ما تختار أن تؤمن به على الطريقة التي تعيش بها، لأنه كما قال لويس، "المعتقدات المختلفة حول الكون تؤدي إلى سلوك مختلف".

قبل أن تستقر على الموقف الذي تختاره، أنت مدين لنفسك بمواصلة البحث عن الحقيقة عن الحياة والموت والكون.



في المعمعان! In Action

يواجهُ المتعاملونَ مع اللغة سواءً بالكتابة، الصحافة، الترجمة أو الأدب، تحدياتٍ كبيرةً خصوصًا في التعامل مع المضامين اليومية، وعبر مسيرتي في مجاليْ الإعلام والترجمة خاصةً تواجهُني عادةً بعضُ المواقف أو التعابير الخاصة التي تتطلبُ بحثًا ثمَّ اختيارًا قلَّما يكون سهلًا بين ما هو صحيحٌ وفصيحٌ وبين ما هو دارجٌ بين الناس ومفهومٌ وإن كان به عَوَرٌ أو خطأ لغوي خفيف إن جاز وصفُ الخطإ بالخفة.

فالإعلاميون غالبًا عليهم أن يختاروا بين الدقة وبين السهولة وما يفهمه الجمهور المستهدف، والاختيار بين اللغة الجزلة الصحيحة وبين ما هو مفهوم عادةَ يكون صعبًا، خصوصًا في المجالات المستحدثة والعلوم الحديثة، حيث يتم نحتُ المصطلحات بشكل يكاد يكون يوميًا تبعًا لتطور هذه العلوم ومستجداتها، وهذا يُحتّم علينا سرعةَ التعاطي مع النصوص المترجمة فقد لا يُسعفنا الوقتُ لاستشارة المعاجم المتخصصة، وحتى لو أسعفنا فهذه المصطلحاتُ تتجدد باستمرار، وهو ما يقتضي سرعةَ اتخاذ القرارات واعتماد المصطلحات خاصةً في مجال الأخبار السريعة ومواكبة الأحداث الدراسات الجديدة.

وبعدُ فهذا ليس "بحثًا أكاديميًا" ولا دراسةً مِن متخصص، إنما هي ملاحظاتٌ وجردٌ "شخصي" لبعض ما مرَّ عليَّ خلال عملي في مجاليْ الإعلام والترجمة، لعلَّ مَن يُطالعه يبدأُ من حيث انتهيت، أو يُفيدني فيما استغلق عليَّ من مصطلحات جديدة، ويُصوّبَ ما أخطأتُ فيه من اجتهاد.

وأحب أن أورد هنا نماذج مما يمر علينا يوميا من إشكالات في اللغة والترجمة خلال عملنا اليومي كمنتجين للمواد الإعلامية وناقلين لها إلى اللغة العربية الفصحى..

وقد حرصت على جمع كل مثال يردني في ملف خاص وهو الآن عشرات الصفحات وربما أجمعه لاحقا في كتاب إن شاء الله، لكنني سأورد هنا فقط نماذج للاستئناس..

أتتنا مثلا كلمة "الأهرامات" وهو جمعٌ مستعمل كثيرًا لجمع "هرَم"، وشخصيًا أرى أن الجمع الصحيح هو أهرام، وقد يُقبل جمعُ الجمع على أهرامات للضرورة ولا أظن هناكَ ضرورةً له.

وردَتْ علينا أمسِ تَثْنِيةُ كلمَةِ "شَكْوى" في قصّةٍ عنْ رفعِ شَكَاوى ضدَّ الداعيةِ طارق رمضان، وهذه مناسبة للتذكير بقاعدة تثنية "المقصور"، ويبدو أن الكثير يُخطئون فيها:

فالمقصور مثل: أخرى – أولى – فضلى – كبرى – عُظمى –...

عندَ تثنيته يجب علينا أن نقلب الألف ياءً، فتقول:

أُخريان – أُوليان – فُضليان – كُبْرَيان –.

ومن الخطأ أن نقول: أخرتان، أولتان، فُضلتان، وكُبرتان، عُظمتان.

يقول ابنُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في ألفيته:

آخِرَ مَقصورٍ تُثَنِّي اجْعَلْهُ يَا إنْ كَانَ عَنْ ثَلاثَةٍ مُرْتَقِيَا

كما أنه من الخطأ جمعُ شكوى على شكاوي، بل شكاوى بألفٍ قصيرة.

كما مرت بنا كلمة (بربري) بمعنى وحشي أو قاسٍ.. وهي كلمةٌ ذاتُ أصلٍ لاتيني وإغريقي وهي صفة قدْحيةٌ وتحملُ معانيَ يراها البعضُ، خصوصًا في مغربنا العربي، عنصريةً.. وشخصيًا لا أعرف موقف "خطنا التحريري" منها، إلا أنني استبدلتها في النص بكلمة أخرى.

وهذا موضوع للتأمل والتكملة ففي لغتنا الجميلة قد يتحدد معنى المفرد عن طريق جمعه.

فكلمة ضلع تُستعمل بمعنى العظمة في القفص الصدري فتُجمَع على "ضلوع"، وتُستعمل بمعنى الخط الهندسي فتُجمَع على "أضلاع" (يجوز كلا الجمعين لكلا المعنيين، ولكن هذا هو المطّرد في الاستعمال).

ويمكنكم ببعض التأمل معرفة أكثر بكثير من هذه الأمثلة.

ناقَشْنا قضِيةَ كِتابَةِ (إذن) هلْ هيَ بالنُّونِ أم لا؟ وأردتُ تأصيلَ رأيي للزملاءِ الذين استغربوا من إصراري على كِتابتِها بالنُّون.. فقد ذهَب الأكثرون إلى أنَّها تُكتَب

بالنونِ عَمِلتْ أَمْ لمْ تَعْمل، فرقًا بَيْنها وبَيْن "إذا"، ولِأَنَّ الوقْفَ عليها بالنُّون، وكان المُبرِّد يقول: أشْتَهي أنْ أكْوي يَدَ مَنْ يَكْتب "إذَنْ" بالألف لأَنها مثل "أنْ ولَنْ".

المهام أو المهمات؟

هذا الجمع يطرح إشكالًا لدى اللغويين، فمنهم من يفرق في الجمعين تبعًا لأصل الفعل هل هو "همّ" بمعنى نَوى أم "أهمّ" بمعنى شَغَل البال فيجمعون الأول على "مهام" والثاني على "مهمات". والراجح لدينا هو جمع "مهمة" على مهام ومهمات دون إشكال في ذلك

لطيفة: يقول عارف حجاوي في اللغة العالية: "تختص المهام بمهامِّ المنصب أي مسؤولياته، والمهمات: الواجبات الطارئة،" وهو قول ظريف مرده بالتأكيد المبحث القديم أعلاه.

وسألني بعضُ الزملاءِ هل الصحيحُ: صُحَفيٌ أم صَحافيٌّ؟

وهذه مناسبةٌ للتذكير ببعض قواعد النسبة.. فمن قال (صحافي) نسبه إلى الصحافة كصنعة.. وهو خاص بمن يشتغل في صَنْعَة الصحافة.

ومن قال (صُحفي) فقد نسبه إلى الصُّحُف وهي جمعٌ والصواب عند بعض النحويين أن يوقع النسب الى واحدة الصُّحف وهي صَحيفة فيقال صَحَفيّ، كما يقال في النسب الى حَنيفة: حَنَفيّ، لأنهم لا يرون النسبة إلا إلى الواحد..

ومن الطريف أنَّ عالمَ اللغة (الثعالبي) كان يُنكرُ النسبةَ إلى الجمع وأنها غيرُ صحيحةٍ.. واسمُهُ (الثعالبي) نسبة إلى جمعِ (الثعالب)! فكان الأولى أن يكون اسمُهُ (الثعلبي) نسبةً إلى المفرد (الثعلب)..

ومرت علي كذلك في تقرير كلمة disposable وهي تعني (الأشياء التي تستخدم مرة واحدة، كما نقول عندنا بالفرنسية (Jetable) ولم أقف على ترجمة له بكلمة واحدة،

كذلك عبارة (THROWAWAY LIFESTYLE) ويقصدون بها ثقافة "التخلص من الأشياء بعد الاستخدام الأول حتى وهي قابلة للاستخدام أكثر من

مرة، وهي نزعة استهلاكية شاعت مؤخرًا"

وقد طُلب مني أن أترجم هذه الجملة:

so I went on to imagine a parallel universe, where roles are inverted and men are given a taste of their own sexist poison."

فاقترحتُ لإيصال الفكرة، "لذلك ذهبت إلى تخيل كون موازٍ، حيث يتم عكس الأدوار ليذوق رجال مُرَّ ما صنعوا.

وطبعًا هذا مثلٌ عربي رأيتُ أنه مناسب هنا لترجمة المثل الأجنبي الذي استخدم في الجملة الأصلية، men are given a taste of their own sexist poison

وأعطيتُ خيارًا آخرَ أكثرَ حرْفيةً هو: ليذوق الرجالُ مرارة التمييز.

ومن المفارقات التي مرت علي في اختلاف اللغات هي تصريح باللغة الإنكليزية يقول فيه صاحبه:

This Warms my heart.. ومعناه حرفيا إن هذا يدفئ قلبي.. وهذا طبعا عندنا بلا معنى، فاقترحتُ على الصحفي أن أترجمها بـ: إن هذا يثلج صدري، وهذا هو المعنى المقصود من السياق، كما أن صدري أحسن عندي من كلمة قلبي وأكثر ملاءمة للجملة.

وقد أتاح لي العمل في مجالي الترجمة والإعلام فرصة التأمل في لغتنا العربية وفي اللغات الأخرى، ومن الغريب أننا غالبا نركز في دراسة اللغة على حركات الإعراب فقط، ونهمل الصرف والاشتقاق وحتى الضبط، وهو بحر لا ساحل له، خصوصا ضبط الفعل الثلاثي وهو ما يحتاج معجما بالقرب منك دائما لأنه لا قاعدة له، فكلنا مثلا يعرف الفعل عبس الوارد في القرآن ولكن مَن منا يعرف مضارعه؟ هل هو يعبُس أم يعبِس أم يعبَس؟ وقس على ذلك الكثير، ومن الكلمات التي عادة ننطقها بخلاف ضبطها في المعاجم كلمات مثل الوَحدة بفتح الواو، فالغالب أننا ننطقها بكسره، سواءً كنا نتحدث عن الاتحاد أو التوحد.. إلخ وكلها بفتح الواو.. وكذلك الحَلْبة ننطقها الحلَبة بتحريك اللام والصحيح تسكينها.. وكذلك الخَلْوة بفتح الخاء هي الصحيحة ولكن الدارج هو الخُلوة بالضم!

كما أن اللغة تهمل بعض الجموع وأحيانا بعض المفردات.. فمثلا مَن منا لا يعرف كلمة الأوصال؟ ولكن من منا يعرف مفردها الوُصل؟ وكذلك الأشلاء والشّلْو والأرجاء جمع رَجاء مُثَنَّاه رَجَوان..

والأمثلة كثيرة مما مرَّ علي ودونته في مفكراتي، وسأحاول جردَ أهم الاشتقاقات والضبط غير المشهور ونشره في مقالات بحول الله تعالى..

واللغة ليست مجرد مفردات وتراكيب بل هي ثقافة وأسلوب حياة ورؤية للعالَم، فعندما نتعلم لغة ما فنحن نتعلم معها ثقافة جديدة. كما تمكننا من الاطلاع على العلوم والآداب المكتوبة بتلك اللغة، فمن قرأ المتنبي باللغة العربية ليس كمن قرأه مترجما، ومَن قرأ شكسبير بالإنكليزية ليس كمن قرأه مترجما وهكذا..



ثالثًا:

بين الكتب

قيل للمأمون: «ما ألذ الأشياء؟ قال «التنزه في عقول الناس» يعني قراءة إنتاجهم.

ويقول ألبرتو مانغويل: "أعطتني القراءة عذرًا مقبولاً لعزلتي، بل ربما أعطت مغزى لتلك العزلة".

أَحِــنُّ إلــى بــوحٍ سُــحيرًا ولَقْيَــةٍ   إليهــا مســافاتُ الحنــينِ تُجــابُ
ومِمَّــا يَسُــرُّ الــنفسَ مَجْلِــسُ خلْــوَةٍ   نَــديمايَ، شــايٌ جيِّــدٌ وكِتــابُ

المؤلف

أحببتُ الكتب منذ الصبا فصرت ممن يصفهم الإنكليز بعبارة bookworm

أتذكر ولعي بها وندرتَها هنا وأنني طولَ إقامتي في مصر ما انتقلتُ من شقة مؤجرة إلى أخرى إلا وخلفت فيها كتبًا لم أستطع حملَها.. فأفارقها فراقَ وامق..

فأكون كما قيل إنه كانت لأبي الحسن الفالي الأديب اللغوي نسخة في غاية الجودة من كتاب الجمهرة لابن دريد دعته الحاجة إلى بيعها فاشتراها الشريف المرتضى بستين دينارًا فلما تصفحَها وجد بها هذه الأبيات بخط بائعها:

أنِستُ بها عشرينَ حولًا وبعتُها ... وقد طال وجدي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ ... صغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ ... مقالةَ مكويِّ الفؤاد حزينِ

وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائمَ من ربٍ بهن ضنين

فرد الشريفُ الكتابَ إليه ووهبه المال!

وحتى الآن ما زلت لا أستبدل الكتاب الورقي بأي جليس.. حتى أنني أحن أحيانًا إلى رائحة الورق.. وطقوس القراءة في أوقات نسرقها من الحياة لأنفسنا.. وقد قلت سابقًا:

أَحِنُّ إلى بوحٍ سُحيرًا ولَقْيَةٍ ... إليها مسافاتُ الحنينِ تُجابُ

ومِمَّا يَسُرُّ النفسَ مَجْلِسُ خلْوَةٍ ... نَديمايَ، شايٌ جيِّدٌ وكِتابُ

وسأتناول في هذه الصفحات بعضا من الكتب، خصوصا الروايات، التي أثرت فيّ أو أعجبتني، مع تلخيص لأهم ما ورد فيها، لعلها تكون حافزا للمطالعة والرجوع للكتب في عالمنا العربي الذي نسي عادة القراءة للمتعة، فأصبح يقرأ فقط ما تفرضه عليه الدراسة أو العمل.



ذكريات من معارض الكتاب

مواسم معرض الكتاب هي مواسم حماس وترقب جميل للأحدث والأندر من الكتب، ولكنها أحيانًا تأتي وليس في الجيب ما يُشبع نهم العين والفكر إلى مطالعة الجديد والمختلف، وسنواتي بالقاهرة كنت أحرص على حضور معرض الكتاب حتى ولو لم يكن عندي ما أشتري به شيئًا، فهناك خيام وندوات وشعراء ينشدون وحفلات توقيع ونقاش الإصدارات الجديدة وغيرها من الأنشطة المصاحِبة، كما أن مجرد تصفح العناوين متعة بالنسبة لي، ويُعينني على اتخاذ قرار الشراء لاحقًا عندما تسمح الظروف، إنه موسم ثقافي بطله الكتاب وأي بطل!

لكنني ما زلت لا أفهم القيمة التسويقية لبعض التصدير أو الإهداء (غير الشخصي طبعا) في مقدمات أو على أغلفة بعض الكتب خصوصًا تلك التي تحمل عبارات مثل "قالوا عن الكتاب أو عن الكاتب" وكأن القارئ غيرُ راشد ويحتاج من يشرح له لماذا هذا الكتاب الذي اشتراه ويقرأه هو كتاب مهم وصاحبه من شأنه كذا وكذا.. إلخ.

هذه الشهادات لا أراها تنفع بل ربما العكس، فلندع الكتاب يتحدث عن نفسه، ولا داعي لآراء وشهادات الكتاب الآخرين ومراجعي الكتب book reviewers وقد أصبحت هذه مهنةً على غرار تقييم ومراجعة الأجهزة الإلكترونية الجديدة وكل ما ينزل السوق..

بالإضافة إلى أن كثيرًا من الكتب التي حظيت بتقريظ وثناء الكُتّاب والمراجعين لم تكن على مستوى التطلعات، كما أن الكتب التي تعتمد على التذوق الفني والأدبي بالخصوص تخضع للذوق والحِسّ الشخصي وهو ما يختلف من شخص لآخر، فلا مجال لتشارك تجربة قراءتها مع الآخرين لأن كلنا يفهم ويتذوق هذا الفن والأدب بصورة خاصة به وتتدخل في هذه العملية عوامل كثيرة مثل التنشئة، المستوى العلمي التجارب السابقة إلخ..

لذلك أرى ألا مكان للمقدمة في الأعمال الأدبية، سواءً كانت بقلم الكاتب أو الأديب نفسِه، أو بقلم آخر.

زوربا اليوناني

هذه رواية من الروايات ذات الأبعاد الفلسفية التي تجعلنا نعيد تقييم حياتنا نظرا لأنها تقدم لنا نموذجين مختلفين جدًّا، باسيل المثقف الثري الراغب في استثمار أمواله، وألكسيس زوربا الرجل الأمي الذي عجن ثقافته بطين التجارب والأسفار وهي الثقافة التي أتاحت له أن يكوّن موقفا مختلفا من الحياة قوامه صون إنسانيته من كل التهديدات يقول: «تخلصتُ من الوطن، تخلصت من الكاهن، تخلصت من الماء. إنني أغربل نفسي. كلما تقدم بي العمر غربلت نفسي أكثر. إنني أتطهر. كيف أقول لك؟ إنني أتحرر، إنني أصبح إِنسانًا».

وبين الشخصيتين تتجلى طريقتان للعيش، بين المثقف المنطوي وبين العجوز المرح الذي يعيش الحياة ويتمتع بها لأقصى حد ممكن دون قلق ولا تفكير عميق..

أما أسلوب الكاتب فهو الدافع الرئيسي التي يجرك خلال الصفحات طوعًا، في "زوربا اليوناني" تجد "نيكوس كازانتزاكيس" يبدع في الوصف والتشبيهات فالألوان تلطخ وجهك وتعلق الروائح في راحتيك. تشبيهاته، اقتباساته، طريقته الأخّاذة في الشرح، ولا أستثني قدرة المترجم الرائعة على توصيل هذا الإبداع ووضعه في قالب عربي دون أن يختل.

فلسفة الكاتب رائعة، ففي هذه الرواية يحكي عن اللذة والمتعة والألم إلى جانب الحياة والموت، ويغوص في تلافيف العقل الإنساني ويطرح الأسئلة على الطاولة بكل جرأة. كما يتطرق إلى الصفات الإنسانية كالتعود ويوجِد لها حلولًا.

هذه الرواية باختصار: تساعدك على أن تكبر.



الأيام لطه حسين

أول كتاب أقرأه لعميد الأدب العربي طه حسين كان ترجمته لرواية فولتير "القَدَر" أو la destinée بالفرنسية.

وكانت لغة الدكتور جزلة ولكنها أيضا قديمة التراكيب، فتجد كثيرا من عبارات مثل موغل في كذا.. لكن الرواية جميلة وشرقية الهوى بامتياز..

قرأت له بعد ذلك جنة الشوك وحديث الأربعاء ومع المتنبي.. لكنني هنا سأقف مع كتابه الأيام.. فما زلت أذكر ذلك "الفتى" كما يدعو نفسه وأتمسّك به متعلّقا بجوّه وأحاديثه وحكاياته ونظرته إلى الدنيا التي لم يعرف هيئتها ولا ألوانها ولا أوصافها، قراءته متعة حقيقيّة حتى كأنّك رفيقه في الكتّاب أو الأزهر أو في مكاتب الجريدة أو في مقاعد الجامعة وصولا إلى باريس... لا يبارحك سؤال طيلة صفحات الكتاب: كيف لمن ولد ضريرا لا يعرف معنى الضوء من العتمة ولا الأسود من الأبيض ولا الربيع من الصيف، كيف ينظر وأيّ قيد وسجن ووحدة هي ذاتُه، كيف لرهين هذا المحبس أن يصف لنا الدنيا ويسكننا ويرينا ذكرياته؟

هذا رجلٌ يستحقّ أن تحترمه وتكبره وتنحني لحلمه وجرأته وجهده ليعيش فوق الأرض لا خلف العمى.. شقّ من خلال العتمة دربا لم يطمح له المبصرون القادرون المالكون جماع أمرهم، مهما اختلفنا معه أو صدمنا شيء من آرائه أو حتى لو اعتبرنا شيئا من نظراته في الشعر أو الدين خطأ بعيدا عمّا نرضاه ونألفه، فلا نملك - ولا يجوز لنا- سوى هذا الاحترام والإكبار لهذه القامة الباسقة.

إنها رواية في المقام الأول عن العلم، قصة حياة عالم بل علامة، تتحدث عن النفس التواقة للعلم والترقي وما تعانيه في الحياة من كدح وشقاء وعناء، صارعته الظروف السيئة والآفة في عينيه والفقر، بل صارعته نفسه وكرامته وجرأته.

لقد كان رجلا وحيدًا يحارب في أكثر من ميدان، رجلًا يدين بالفضل للكثيرين ولا ينكر، ولم يُنسه ما وصل إليه من علو في المقام وتأثير في الواقع، ما عاناه ومَن يدين لهم بالفضل، إنها رواية لا تتحدث عن قصة حياة شخص بل قصة حياة أمة

وحقبة من التاريخ عانت من الصراعات السياسية والراديكالية، والريف والشعب المعزول عن كل هذا وما فيه من خرافات وجهل وتخلف أودى بعيني هذا الرجل، ثم تنتقل لتتحدث عن الحياة في ربوع الأزهر بعد أن أرانا العلم في ربوع القرية البسيطة، وما أروع الوصف والتوضيح من رجل تتوق نفسه للعالَم بأشكاله وألوانه.

وهنا يأتي ذكر الشيخ الشنقيطي، الذي كانت له حلقة في الجامع الأزهر.. الشيخ محمد محمود ولد التلاميذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثم نسافر مع صاحبنا إلى أوروبا ونرى الفارق في تقدير العلم وصعوبة تحصيله وقصة كفاحه في تعلم اللغات وفي سبقه للعديد من الرتب والإنجازات التي لم يسبقه إليها غيره، بعد أن كنا رأيناه أصلًا شاهدًا على بدايات عصر الجامعة في مصر وأعطانا صورة عن تلك البدايات ونجاور في قصته شخصيات بارزة ومؤثرة في التاريخ المعاصر، بل وفي التاريخ القديم حيث تتوازي قصته مع أبي العلاء وما تؤول إليه حياته في النهاية من صدام مع البلاط الحاكم.

كل هذا في لغة طه حسين الشعرية البليغة المتمكنة الرائعة الرقيقة التي تفطر القلوب في وصف لحظات الألم والتي ترتقي بالنفس لسموها ورقيها.



سجن العُمر

سجن العمر هو البدايات، حيث توفيق الحكيم طفلًا وصبيًا وشابًا، وزهرة العمر، توفيق الحكيم الرجل الذي يطلب الدكتوراه في باريس.

هنا كان الحكيم يتحدّث مع نفسه، أثناء حكايته عن أبيه وأمّه، والظروف التي أحاطت به وبتعليمه، وبانتقاله من بلدة لأخرى ومن بيت لآخر. ويفرد لطباع الأب والأم كثيرًا، ظنًّا منّه أنّه استقى منهما طباعه التي سُجن بها. كان صريحًا بصورة كبيرة، وحكى في سلاسة وإمتاع عن تفاصيل تكوينه، وما أحاط به وأثّر عليه، ودراسته للحقوق، وكرهه للرياضيات (وهو شيء أشاركه فيه وربما أزيد)، وبطء فهمه، وكسله، وحبّه لفن المسرح، ومساعيه من أجل التفرّغ له.

من الفصول المؤثرة، مشهد وفاة والده، حيث حكاه بطريقة غاية في التأّثر.

"الإنسان حر في الفكر، سجين في الطبع" "زهرة عمرنا هي الفكر، وسجن عمرنا الطبع"

هكذا لخص توفيق الحكيم سيرته الذاتية الثانية "سجن العمر" عن الطبع، والتي كتب قبلها "زهرة العمر" عن تكوينه الفكري والثقافي ولهذا الترتيب مدلول واضح.

الطبع الذي وصفه الحكيم بالثقوب التي تنسل بها الأيام من تحت أيدينا، تجبرنا على ارتداء عباءة الوالدين. ثم يطرح قضية أخرى، هل موهبة البعض سببها رغبة مكبوتة عند الآباء لم تسمح لهم ظروفهم بتحقيقها؟ وهل لو أفرغ الآباء مواهبهم لحرموا منها أبناءهم؟ وهل انصراف أبناء مشاهير الأدب عن الأدب دليل على ذلك؟

جذبني حديثه المطول عن أصوله وتفاصيل جذوره العائلية على الرغم من طبعه الذي وصفه بالانطوائي، نجد وصفه لعائلة والدته وأصولها وجدته وبناتها وأزواج بناتها، ووصفه لعائلة والده وجده والأبناء وزوجاته وأبناء أبنائهم، تفاصيل كثيرة قد تبدو غير مهمة لكنها مؤثرة في النهاية في تكوين طباع صاحب السيرة.



العراب، الدكتور أحمد خالد توفيق

تعرفت إلى هذا الكاتب، الطريف خفيف الظل في سخرية لاذعة رغم أنه يكتب أدب الرعب، وأنا في الجامعة، ورغم شكوكي حول مناسبته لي كمحتوى مختصر وشكي العميق في أن سلسلة للجيب تستحق القراءة إلا أنني بعد قراءة أول عدد من سلسلة ما وراء الطبية أعجبتني وصرت أقتنيها أولا بأول وما زالت إلى الآن في مكتبتي الشخصية، وبعدها سلسلة «سافاري» و«فانتازيا» إضافة إلى المقالات التي كان يكتب في مجلات مثل مجلة الشباب و«كلمتنا» وغيرها، إن قلم الدكتور أحمد خالد توفيق قلم أنيق وجميل، واستطراداته العلمية مفيدة وسخريته عميقة، وهذه السلاسل مفيدة جدا للمبتدئين في المطالعة لأنها ستجذبهم لإكمالها وعندما ينتهون تكون القراءة قد أصبحت عادةً عندهم..

رحم الله الدكتور فقد جعل الشباب يقرأون كما تمنى يوما أن يُكتب على قبره، سلام عليك يا دكتور يا طيب، (وحتى تحترق النجوم..).



حصاد الهشيم

هذا هو أول كتاب أقرأه للمازني، وهو أحد كتبه التي نستطيع أن نطلق عليها الكتب النقدية، فهو قد جنّد قلمه لشرح بعض أفكاره في مختلف اتجاهات الأدب، من نثر وشعر ومسرح بالإضافة إلى وجهة نظره في بعض القضايا الحياتية المعاصرة له.

كلامه عن شكسبير والمتنبي وابن الرومي بديع، وعرضه لوجهات نظر أجنبية دليل على سعة اطلاع ومعرفة.

مقدمة الكتاب في غاية الظرف، فهو يبين للقارئ بوجهة نظر عملية أنه لن يتكلف شيئا من شراء الكتاب، بالعكس فهو المتضرر الأكبر.

لغة الكتاب دسمة للغاية، لغة كتابية محترفة، بناء محكم خالطه بعض الملل والتعقيد.

تطرق لشكسبير، لألكسندر ديماس ولعمر الخيام ومقاربته الغربية مع تلك العربية، ثم انتقل إلى المتنبي وختم بابن الرومي. كما كانت له وقفات شعرية متعددة، وكذلك سرد لأعمال روائية مع إبداء الرأي فيها لاسيما رواية "غادة الكاميليا".

الجانب اللافت في "حصاد الهشيم" هو توجه الكاتب نحو الدفاع عن العديد من الشعراء والأدباء ونقد بعضهم الآخر بأسلوب مغدق بالسرد لا يخلو في بعض الأحيان من الثرثرة.

تمر بنا مقاطع نستلذ بقراءتها، ومقاطع أخرى نتمنى لو تنتهي لشدة الاستفاضة في ذكر الأمثال وإبداء الأوجه المتعددة من مسألة واحدة قد يكون له رأي خاص فيها.

ولا يخفى على أحد في دفاعاته تقرّبُه من العقّاد عبر توثيق أفكاره بدراسات وكتابات قام بها هذا الأخير.

"حصاد الهشيم" قد يصنّف عملًا أدبيًا من ناحية إبراز بعض الأعمال العربية والغربية من روايات ومسرحيات وأشعار والإضاءة عليها من جانب قلما يكون حياديًا فهو إما مادح وإما ناقد وإما ناقم.



كتاب المتنبي لشاكر

ما أظن أني رأيت قبل ذلك من يرتشف رحيق القوافي ثم يخرج لنا بالعسل مثلما فعل محمود شاكر في هذا الكتاب..

أهم ما تخرج به من الكتاب هو (المنهج) وفكرة التذوق، وكيفية قراءة الشاعر ودراسته وتشريحه وبيان الصدق من الكذب في تاريخه من خلال نتاجه الأدبي.. غاص الأستاذ شاكر في نفس المتنبي وخرج بآراء معتبرة في قضايا مهمة مثل نسبه، وقضية النبوة، وحبه لخولة أخت سيف الدولة، وحقيقة مذهبه في المدح وغير ذلك..

الطبعة التي طالعتُ من الكتاب تبدأ بكتابٍ آخر هو (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا).. وبعد ذلك مقدمة كتاب المتنبي...ثم كتاب المتنبي كما صدر عن المقتطف في عام 1937، ثم مجموعة مقالات نشرها الأستاذ شاكر في الرسالة بعنوان (بيني وبين طه) يبين فيها ما سماه هو "سَطْوَ طه حسين على بعض أفكاره" وكذلك أخطاؤه في تفسير أبيات المتنبي وعرض حياته.. ثم سجال بينه وبين الأستاذ سعيد الأفغاني في قضية نبوة المتنبي، ثم عرض لأربع تراجم للمتنبي من أمهات الكتب.

لست بالضرورة أتفق مع كل ما ذهب إليه محمود شاكر...لكنني خرجت من هذا الكتاب بمنهج في التذوق، ومنهج في الرد والمحاجة العلمية.

وفي الكتاب، "المتنبي.. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" بالإضافة إلى ما قرأته من كتبه (أباطيل وأسمار، نمط صعب ونمط مخيف، وقضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام) هذه الكتب جميعها تمثل سيرة شاكر كشخص عانى من التصادم الحضاري الذي أنتجه الاحتلال الفكري (التبشير الثقافي) بمساعدة الاحتلال العسكري الغربي لبلاد العرب والمسلمين وهي في ذاتها تمثل ثقافتنا وما حاق بها نتيجة ذلك التبشير.

وفي كتابه هذا جمع ما يمكن أن نعتبره ثلاثة كتب وبضع مقالات، والكتاب الأول هو «**رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**»، وهو بحق باب ومدخل لفهم ثقافتنا كيف وبمن كانت وكيف وبمن أصبحت وإلى أين ستصير وكيف يمكننا تداركها، والثاني

هو «**كتاب المتنبي**»، وهو كتاب كتبه شاكر بعد أن حثه صديقه فؤاد صروف صاحب مجلة المقتطف على كتابته احتفالا بمرور ألف عام على وفاة المتنبي وقد نشر في عدد كامل من مجلة المقتطف، والثالث هو «قضية المتنبي» أو «**بيني وبين طه**»، وهو مجموعة مقالات في الرد على طه حسين وكتابه "مع المتنبي"، نشرت تلك المقالات في صحيفة البلاغ ولكن لم يكتب لها الكمال، ثم تبعت هذه الكتب الثلاثة مجموعة مقالات لشاكر نشرت في مجلة الرسالة تحت عنوان "نبوة المتنبي" وفيها رد على مقالات للأستاذ سعيد الأفغاني، ثم كلمة الرافعي في مجلة الرسالة بعنوان "المقتطف والمتنبي" والتي علق فيها على عدد المقتطف الذي نشر فيه كتاب شاكر.

وسنقف سريعا عند بعضها:

1- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا...

إن جميع كتابات محمود شاكر مترابطة لأنها كلها تدور حول محور واحد ألا وهو المنهج ذلك اللفظ الذي قلقل حياته وترك على إثره الجامعة لمّا لم يجد في مدّعي الثقافة والأدب وخاصة أستاذه "طه حسين" أي فهم أو تطبيق لهذه الكلمة إلا ما كان من دعاوى وزعم يزعمونه ليضللوا به طلابهم كما يقول، وهذه الرسالة كغيرها من مؤلفاته مبعثها هذا اللفظ لكنها لم تقتصر عليه، أما هي "هذه الرسالة" فقد سعى فيها إلى تحديد هويتنا الثقافية ببحثه عن المحور والأصل كل ثقافة ألا وهو الدين (الأصل الأخلاقي) واللغة.

ثم شرع في متابعة تاريخية لثقافتنا خاصة فيما يتعلق بالمؤثرات الخارجية عليها والتي تتمثل في الغزو، سواء كان حربيا رافقته مدخلات ثقافية جديدة، هذا فيما يتعلق بالعصور المتقدمة وقد جعل محورها الحملات الصليبية، أو ثقافيا والذي يحلو لشاكر دعوته بالتبشير الثقافي أسوة بالتبشير الديني الذي تميزت به العصور المتأخرة، وقد جعل شاكر هذا الغزو الأخير المحور الرئيسي في رسالته إذ إن تأثيره كان الأكبر والأدوم، ولم يغفل خلال توضيحه لهذا الغزو أو التبشير الثقافي عن توضيح مدى صغر الفارق بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية في بداية عصر النهضة الحديثة وكيف أن مفاتيح عصر النهضة كانت بيد المسلمين غير أنهم لم يحسنوا استخدامها

وظفر بها الأوروبيون منهم ببعض من الحيل والسطو، وقد تناول كذلك الاستشراق مبينا أهدافه الخفية وكيف كان ذا أهمية ومنفعة كبيرة لأوروبا كما كان نقمة على العالم الإسلامي وهو في ذلك يتناول بعض كتابات المستشرقين.

وأما اللغة فهي لا تنفك عن الدين في بناء الثقافة لأن القرآن وهو أصل الدين هو كتاب عربي فكان الارتباط بينهما وثيقًا لا فكاك منه، ويبين شاكر كيف أن المستشرقين وأعمالهم لا ترقى أبدا إلى أن تكون ذات منهج فضلًا عن أن تكون ذات منهج صحيح لا لمجرد غياب العنصر الأول وهو الدين ولكن لأن هؤلاء المستشرقين غاب عنهم العنصر الثاني إلا قليلًا مما تعلموه بمخالطتهم العرب الذين هم في ذاتهم في حكم الجاهلين بلغتهم، ولذا يكون حكمهم على النص العربي حكما غيرَ مقبول لأنهم لا يملكون مقومات الحكم عليه وهذا من آكد الأمور التي تخل بالمنهجية.

ثم هو بعد ذلك يسرد سردًا تاريخيًّا ملخصًا لحال الأمة منذ القرن الحادي عشر الهجري معرفا برجال النهضة الجبرتي الكبير والشوكاني والزبيدي والبغدادي، وموضحا تقارب الحضارتين الإسلامية والأوروبية في ذلك الحين، ثم يسرد تاريخ الاحتلال الأوروبي العسكري لمصر وكيف سعى إلى توطيد سطوته من خلال إلحاق الغزو الثقافي بالغزو العسكري وقد بين كيف هيأ الاستشراق لكلا الغزوين العسكري والثقافي خاصة فيما يتعلق بالحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت، ثم ما حدث من انشقاق محمد علي عن الخلافة العثمانية ومساهمته في التغريب الثقافي، بحثٍّ من القناصل الأوروبيين، عبر تسيير البعثات العلمية إلى أوروبا، وكيف مثلت هذه البعثات نواةً لتغريبٍ ثقافي أكبرَ يقوم على تنفيذه أبناءُ الأمة ممن شاركوا في تلك البعثات وعادوا منبهرين بالحضارة الأوروبية حسب رأيه، ثم ما لحق الاحتلال الفرنسي من احتلال إنكليزي والسيطرة الإنكليزية على التعليم والبناء الثقافي للنشء ما أدى إلى تفريغ الطلبة من ماضيهم وهويتهم وانتمائهم.



ديل كارنيكي "دع القلق وابدأ الحياة"

هذا الكتاب من أكثر الكتب تأثيرًا علي، فقد قرأته أول مرة في مصر وأنا في تلك الفترة بالذات كنت أعاني من القلق، فكان مُعينا لي على تجاوز قدر كبير منه، وكان بالتالي رفيقي القريب مني دائما في حلي وترحالي، وقد اشتريت منه نسخا أهديتها للمقربين مني لِما رأيت من فائدته في هذا المنحى وفي الحياة عموما.

تحدث المؤلف عن مدى تأثير المخاوف في مختلف المستويات الشخصية والتجارية على الفرد وكيف كانت سببًا في تطور مرض معين كان يمكن تجنبُه. يروي العديد من الأمثلة عن كيفية تمكن الناس، عندما يكونون في أوضاع عصيبة، بعضها لا يمكن تصوره، من التغلب على بؤسهم وتحويل حالتهم السلبية إلى حالة إيجابية.

وما زلت أطالعه كل فترة وفترة، فبعض الكتب دائم الخضرة كلما قمت بفتح صفحاته، تجد شيئًا جديدًا. وهذا الكتاب مهّد الطريق لملايين الأشخاص ليعيشوا حياة سعيدة. بسبب أساليب كتابته. إنه يجعل كل شيء مفهوما وواضحًا. لغته سهلة للغاية والشرح واضح ومفصل.

وهذه بعض النقاط التي أراها جديرة بالذكر من الكتاب:

- يجب أن نكون مشغولين بشكل أكبر بالشيء الذي يمكننا القيام به، حتى لا نضيع أي وقت. يجب علينا اختيار الأشياء ذات الأولوية للقيام بها والمضي قدما.

- يجب أن نساعد من يحتاجون إلينا ونعرب عن امتناننا كلما سنحت الفرصة، لأن ذلك يزيد من رضانا عن الحياة.

وعند قراءة الكتاب، ندرك عدم جدوى تضييع وقتنا الثمين في القلق على أي شيء، لأن ما يمكننا التحكم فيه هو ما يجب أن نقوم فيه بكل ما في استطاعتنا وما لا نستطيع يجب أن نتركه.

- إذا استطعنا أن نتعلم الاستمتاع بالأشياء الصغيرة التي تسبب الملل للبعض، فسنكون قادرين على العيش حياة أكثر اكتمالا بعيدا عن القلق والإرهاق وربما نتعثر بشيء جميل غير متوقع.

وعموما يُعد كتاب "دع القلق وابدأ الحياة" تحفة ونادرة في هذا المجال البكر والمهم جدا لحياة الناس. لقد شرح المؤلف بعض الخطوات العملية لتوضيح كيف يمكن لأي شخص أن يصبح شخصًا خاليا من الخوف والقلق. هذا يعتمد كليا على ما إذا كنا نريد العيش بسعادة أو نريد أن نكون قلقين. بالطبع، هناك خطوات معينة خاصة بكل حالة على حدة في عملية تحقيق حياة خالية من القلق. لكن الأساسيات هي نفسها في كل وقت. وقد عكس المؤلف تلك الأساسيات بطريقة واضحة.



النّجيب

تعرفت إلى الكاتب المصري الكبير نجيب محفوظ عبر ثلاثيته الشهيرة، بين القصرين، قصر الشوق والسكرية، وقد أعجبتني أيما إعجاب، بعد ذلك اقتنيت أغلب أعماله وكانت في طبعات صغيرة ورخيصة تناسب طالبًا في مثل ظروفي، ورغم أنني جئت مصر وهو فيها إلا أنني للأسف لم ألقه، ومن أفضل أعماله عندي ملحمة الحرافيش، حيث الحياة والتاريخ بكل تحولاتهما وتناقضاتهما، وهي من أشهر أعماله المتداولة، وتستحق دراسة لها وحدها، وكذلك روايات، خان الخليلي، اللص والكلاب، زقاق المدق، بداية ونهاية..

لكنني سأقف هنا فقط عند بعض الروايات الأقل شهرة والأكثر عمقا حسب رأيي.

حضرة المحترم

أحببت هذه الرواية البديعة لنجيب محفوظ وأحببت تعبيراتها التي أراها شِعريةً أكثر من كونها سردية روائية، وسأورد هنا منها اقتباسات للتدليل على ذلك، إن نجيب يقدم لك حياة موظف حكومي رأى في الوظيفة كلَّ الحياة، فانغمس فيها بكل ذاته مهملا كل جوانب الحياة الأخرى حتى الجانب الإنساني وما بداخله من مشاعر مختلفة.

أهمل أعوام حياته ورأى أن هذه السنين وُجدت لتضيع في الوظيفة وأن المال وُجد ليكنز.

قضى كل عمره حالِما بمنصب أتاه وهو على فراش الموت ليخرج صفر اليدين من الدنيا بلا عائلة ولا أصدقاء.

في الرواية تعريف مجمل بالنظام الحكومي العتيق في المجتمع المصري ما قبل ثورة 52 والذي لم يتغير كثيرًا بعد الثورة ومن عاش في مصر يدرك مشكلة البيروقراطية.

وعثمـان بيـومي، رجـل فقيـر لا يعـيش معـه أفـراد مـن العائلـة، يبـدأ العمـل كبيروقراطي في الدرجة الثامنة في قسم الأرشيف أو المحفوظات في إحدى الوزارات. كـان لديه هـدفٌ سامٍ هـو أن يصبح يومـا مـا المـديرَ العـام. وهـو يتسـلق مسـتويات الـدرجات في البيروقراطيـة بحمـاس منقطِع النظير تقريبًـا، عـن طريـق أخـذ فصـول تعليميـة، والعمـل لسـاعات إضـافية، وأداء مهـام الترجمـة، ومجاملـة وحتـى تملـق الأشخاص الذين هم في المناصب العليا. ساعده ذكاؤه وأخلاقياته في العمل وسحرُه على تسلق سلّم الحكومة.

خلال حياتـه المهنيـة، يـرفض عثمـان مـرتين الـزواج مـن نسـاء يحببنـه لأنـه يريـد زوجة ذات خلفية مفيدة قد تساعده في الفوز بمنصب أعلى في العمل. إنه لا يخصـص الوقت لأي شـخص يريـد أن يصـادقه، ويحفـظ كـل أموالـه. تـدور حياة عثمـان حـول طموحه، ويتخلى عن فرصه في الحب الحقيقـي والأسرة. إنـه في الحقيقـة لا يسـتمتع برحلة الحياة لأن سرور النجاح يتلاشى مباشرة بعد كل مرة يحصل فيها على منصب أعلى أو ترقية.

عثمان شخصية مثيرة للاهتمام، تناوبتُ بين الشعور بالتعـاطف معـه، والرغبـة في إلقاء شيء عليه لإيقاظه للحياة وإخباره أن المال ليس كل شيء وأن الحياة في الأسرة والأصدقاء أهم من كل شيء.

رواية تستحق القـراءة وقـد قرأتهـا شخصـيا مـرات لأخـذ العـبرة، وللمتعـة الفنيـة أيضًا.

الشحاذ

بحثٌ عـن السـلام الـداخلي! هـل هـو في العائلـة، في الأصـدقاء، في الوظيفـة، في الثروة! لماذا يميل الناس إلى البحث عن الأشياء التي ليست لديهم، بينمـا لـديهم كـل شيء آخر تقريبًا!

عنـدما يكـون لـدى شـخص مـا عائلـة، أو أصـدقاء مقـربين، أو وظيفـة جيـدة، أو ثروات، لكنه ما يزال غير سعيد، ما يزال يتعذر عليه أن يجد قيمة خاصة بـه، وهـدفا في الحياة، ولذلك يعيش في بؤس، تخيل أن رجلًا ناجحًا يقرر فجأة أن يدمر حياته ببطء،

ويفككها، ربما بسبب شهوة أو حسد.

وجد السيد عمر نفسه في أرض قاحلة مهجورة مليئة بالألوان، أصبحت الآن قاتمة، بلا حياة، وذلك بفعل قلقه الوجودي. بفعل السؤال الذي غزا منذ فترة طويلة العديد من النفوس على مر السنين، وأرسلهم إلى طريق القلق الوجودي المزمن، والاكتئاب المزمن. السؤال الذي لا مثيل له؛ في الواقع، إنه سؤال كل الأسئلة. وهو هل هناك معنى للحياة؟ سؤال مدمر يصيب هذا الشاعر السابق، ليجعله يغادر مكتبَ المحاماة، وابنتيه، وأقربَ أصدقائه، والحياةَ في نهاية المطاف، للذهاب إلى الله. في انتظار اللحظة الذهبية لرؤية الحقيقة تظهر من الفراغ.

السيد عمر يسعى لإيجاد علاج للقلق الوجودي، وفشل فشلًا ذريعًا في العثور على الأشخاص الذين يعتز بهم أكثر من غيرهم وإذا بهم يجدون أنفسهم في بؤس سخيف جدا وغير ذي صلة بكل ما تدور حوله الحياة حقا.

الرواية من الروايات الفلسفية التأملية حسب رأيي وسأورد اقتباسات بقيت معي منها:

ألا تخاف الوحشة في الخلاء؟ -أرهقتني الوحشة في الزحام.

الدواء الحقيقي بيدك أنت وحدك. لعل سر شقائي أنني أبحث عن معادلة بلا تأهيل علمي.

ولأنه لا يوجد وحي في عصرنا فلم يبق لأمثالك إلا التسول، التسول! في الليل والنهار... في القراءة المجدبة والشعر العقيم.. في الصلوات الوثنية في باحات الملاهي الليلية. في تحريك القلب الأصم بأشواك المغامرات الجهنمية.

قلب الليل

الرواية هي مثل سابقتها عمل فلسفي رائع عن حياة الإنسان، من الصِغر حتى الكِبر، مراحل حياة جعفر الراوي، تبدأ من النشأة الدينية صغيرًا، ثم مرحلة الجنون والسعي وراء القلب والشهوة، ثم مرحلة النضج والإيمان الكامل بالعقل، ثم مرحلة الحقيقة أو كما دعاها المأساة.

يتخبط جعفر في هذه المراحل سعيًا وراء المجهول..

أفضلها من حيث الفكر مرحلة ما بعد الزواج والنضج، وفي هذه المرحلة آمن جعفر بأن العقل فقط هو المتحكم في الإنسان وألّا مجال للقلب للتحكم به، هذه الفترة التي يسعى فيها لفهم الإله، حيث لا يهديه عقله ولكنه بعد الكثير من البحث والتفكير وحين يسأل عمّا توصل له بعد عمر طويل، يتنهد ويقول: "إني عاجز عن الكفر بالله".

وحينما أراد أن يعرف أكثر عن السياسة وعن كل هذه المذاهب، لم ينل أيٌّ منها إعجابَه، لكنه توصل لمذهب مختلف، مذهبٍ كتبه متحديًا اليسارَ واليمين معًا.. لكن المأساة تحدث عندها، أو هي الحقيقة، في أن المشاعر هي المسيطرة بشكل كبير على الإنسان، حتى لو وصل لأقصى درجة من النضج فلن يستطيع الاعتماد على عقله فقط، العقل وحده ليس بقادر على إدراك الإله، العقل وحده يجعل الإنسان باردًا.. الحقيقة في أن الإنسان لن يصل للكمال مهما كان عقله فذًا.

وسأورد منها اقتباسات مثل: حقًا كانت توجد لحظات خائنة حتى في أيام السعادة الخالصة... ولكن ما هي اللحظات الخائنة؟ هي اللحظة التي تنفصل فيها عن تيار حياتك فتقف على ربوة فوق الشاطئ لتراقبه بدهشة. في تلك اللحظة كنت أشعر بأن ثمة شخصًا قد ضحك علي، قد جرعني مقلبًا.. وأسألُ نفسي عما حدث.

نحن نتكلم عن القلب كنبع للإيمان، ولكن تذكر أن الله لم يعبده إلا الإنسان العاقل، فالواقع هو أساس الإيمان، ولكن عجزه النسبي عن إدراكه – مع حرصه عليه – جعله يرجع الإيمان به إلى عضو آخر هروبا من التناقض.

ماذا حدث يا جعفر؟ – فالتفت نحوي قائلا: -إني أتساءل أيضا عما حدث!



الغريب

قرأت من الأدب الفرنسي بعض الروايات كانت أولاها رواية لفولتير ترجمة طه حسين التي كان عنوانها la destinée أو "القَدَر"، وكانت شرقية الهوى، وفيها تناص كثير مع حكايات الشرق وكذلك مع القصص الديني، ومن أهم الأعمال التي قرأت في الأدب الفرنسي كتاب **ما الأدب**؟ لسارتر طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وهو يتناول الأدب والالتزام الأدبي وربما أعود له بشيء من التفصيل في مقال آخر بحول الله، والكتاب الذي أود التركيز عليه هنا هو رواية الغريب لألبير كامي، الرواية مكتوبة ببساطة وتمكن قراءتها سريعًا إلى حد ما، ولكن العمق الذي تمكن كامي من نقله بهذه البساطة أمر مذهل. أعتقد أن المشكلة التي يواجهها الكثير من الناس في هذا الكتاب هي أنهم يفشلون في النظر إلى ما وراء رسالة "**ما معنى الحياة**" بأكملها. ومع أن هذا السؤال مثير للاهتمام، إلا أن الرواية تثير الكثير من الأسئلة الفلسفية الأخرى. ما وجدته أكثر إثارة للاهتمام هو "ما هو تعريف البشرية حقًا أو ما الذي يجعل الإنسان إنسانًا؟" أثناء محاكمة الشخصية الرئيسية في الرواية Meursault يُتهم باستمرار بعدم إظهار الندم وبالتالي بكونه باردًا وغير إنساني. إنه بالتأكيد إنسان، لكنه منفصل تمامًا عن العالم الواقعي الطبيعي. وهذا يطرح السؤال حول ما إذا كان ينبغي علينا اتباع سلوك أو تصرفات معينة في بعض المواقف "للحفاظ على إنسانيتنا".

كما أنه يثير مسألة ما إذا كانت بعض عواطفنا تأتي من قِبل أنفسنا أو من توقعات الآخرين لبعض العواطف في موقف معين مثلا. الرواية هي أيضًا لائحة اتهام لجهود الناس من أجل التحكم في حياة الآخرين. يقال لنا باستمرار ما هو صواب وكوسيلة لتبرير شعورنا الخاص بـ "ماذا يعني أن تكون إنسانًا". غالبًا ما نفرض تصوراتنا هذه على الآخرين، ونتوقع منهم أن يحققوا صفات وخصائص مماثلة، كما تم فرضها بالفعل علينا. إنها بطريقة ما تبرير ذاتي لأعمالنا على أنها حق أو "إنسانية". يُقال لـ Meursault إنه يجب عليه أن يعيش و / أو يتصرف بطريقة معينة، سواء كان ذلك بواسطة القاضي أو محاميه أو الكاهن. بمجرد عدم امتثاله لهذه الأوامر، يتم تهميشه

ويطلق عليه "اللاإنساني"؛ وهذه حسب المؤلف محاولة من جانب الآخرين لعقلنة طرق حياتهم وفهمهم لها. إذا تمكنوا من توضيح أنه "غير إنساني"، فهذا يسمح لهم بأن يطلقوا على أنفسهم اسم الإنسان وأن يبرروا أساليب حياتهم الخاصة.

في النهاية، هذا الكتاب يثير الكثير من الأسئلة أكثر مما يجيب، لكن بطريقة فلسفية حقيقية.



A tale of two cities قصة مدينتين

قرأت من الأدب الإنكليزي أقل مما قرأت في الأدب الإسباني والروسي مثلا، لكنني قرأت ترجمات لمعظم أعمال شكسبير وديكنز، كما قرأت روايةً، وما زالت في مكتبتي، اسمها **عالم جديد رائع**، كانت ممتعة وسهلة القراء، وسأتناول هنا رواية ديكنز "قصة مدينتين"

وهي رواية تاريخية. يحكي ديكنز قصة اقتحام الباستيل، بعد حوالي خمسين عامًا من حدوثها. على عكس معظم أعماله، فلا أثر هنا في هذه الرواية للفكاهة. لا توجد رسوم كاريكاتورية ولا غرابة في كتاباته. هذه كلها مادة جدية للغاية، وربما يجب أن تكون كذلك. لكن بالنسبة لي، هذا هو أفضل ما فعله ديكنز. إن قدرته على التوفيق بين موضوعات المعاناة الإنسانية والفقر والحرمان بأفكار سخيفة ومثيرة للسخرية، وفي بعض الأحيان مجنونة، هي من أقوى مميزات هذا الكاتب العظيم حسب رأيي.

وكما يوحي اسم الكتاب، هذه قصة عن مدينتين: لندن وباريس. أحب ديكنز انتقاد المجتمع، وجميع الفروق الدقيقة الأرستقراطية الغبية. كما بذل جهدا كبيرا لإظهار أن لندن ليست رمزا للكمال المجتمعي. بعد الثورة الفرنسية البريطانيون لم يتمكنوا من تصديق أن أنظمة الحكم الحالية يمكن أن تسبب مثل هذه المهزلة. ويُظهر ديكنز أن الرجال الموجودين في السلطة كانوا فاسدين وقابلين للفساد أينما كانوا، ويمكن أن تحدث الثورة مرة أخرى.

الرواية جميلة وتؤرخ لحقبة مهمة والأكثر أهمية هي الأفكار التي تخرج بها من الرواية عن الحرية والثورة والظلم والغبن الاجتماعي..



تشيخوف والأدب الروسي

قرأتُ لديستويفسكي **الجريمة والعقاب** بطبعة مترجمة ومختصرة، كما قرأت له **الصرصار والأبله**، وكلها روايات بهرتني وجعلتني أبحث أكثر في الأدب الروسي ذي المسحة الواقعية والفلسفية أيضا، فتعثرت برواية **الحرب والسلام** لتولستوي وللأمانة لم أكملها ولم تعجبني كثيرا بصراحة ربما لأنني توقعت منها كثيرا جدا لكثرة ما سمعت من ثناء عليها، ولشغفي في تلك الفترة بالأدب الروسي.

ولكن الروائي تشيخوف صراحة أعجبني غاية، فعندما أقرأ تشيكوف أشعر أنني أقرأ لصوفي وليس لمؤلف قصص قصيرة أو مسرحيات فهو يلمس أعماقك بكل تأكيد بروعة وبساطة في التعبير، أذكر كم كانت سعادتي حينما حصلت على مجموعة مختارة له طبعتها الهيئة المصرية العامة للكتاب بترجمة القصاص، وكان السعر مناسبا جدا، تحت عنوان مختارات تشيخوف. فالتهمت ذلك المجلد كاملا في أقل من أسبوع واحد فقط.

وفي روايات وقصص الكاتب الروسي تشيخوف الكثير من الواقعية، ولكنها واقعية مغرية في نفس الوقت، فأنت غالبًا تقرأ شخصياتٍ تظن أنك تعرفها شخصيًا لشدة ارتباطها بالواقع وبخلجات النفس البشرية، وأظن أن هذا هو سر انتشاره وخروجه من محيط الثقافة الروسية إلى تعبيره عن الثقافة الإنسانية عموما، وهذا هو الأدب الخالد، الذي يعبر عن الإنسان في كفاحه المستمر.

وقد قرأتُ مرةً أن إحدى قصص تشيخوف تحققت في الواقع صدفة، مع بعض التغييرات الطفيفة بين القصة والواقع!

ولعل حياة الرجل الشخصية وظروفه الصعبة هي التي عجنت وصقلت وعمّقت موهبته، ومنذ أن قرأتُ له أول مجموعة قصصية صغيرة وأنا مأخوذ بأسلوب تناوله للشخصيات وسبره أغوارَ النفس البشرية..

من أقواله الشهيرة: «إن الكلمات مهما كانت جميلة لا تؤثر إلا في ذوي النفوس اللامبالية. ولا نستطيع دائمًا أن نرضي السعداء أو التعساء.. ويبدو أسمى تعبير عن السعادة أو التعاسة هو الصمت، فالعشاق يفهمون بعضهم بعضًا عندما يصمتون».

عندما تقرأ تشيكوف تعرف معنى الموهبة ومعنى النقاء الذي يجعل كلماتك وكأنها تعزف لحنا حزينا يصف ما يعانيه البشر على أيدي بعضهم وربما مهنته كطبيب لعبت دورًا في ذلك.

تكثيف الكلمة والمعنى في القصة القصيرة لتحكي وتقول ما يحتاج إلى عشرات بل ربما مئات الصفحات واختيار تشيكوف لذلك النوع من الأدب يؤكد ما قاله عنه الرائع جوركى حول محاربته للابتذال فهو ربما كتب صفحتين" **البدين والنحيف**" كمثال فيترك انطباعا لديك ربما لا تتركه رواية تسهر عليها شهرا لتنهيها.

لهذا الكاتب لغة عميقة جميلة معبرة، وقد وُفق المترجم كثيرا في نقلها حسب رأيي..

وفي **قصة العنبر رقم 6** تحديدًا معانٍ جميلةٌ وواقعية جدا رغم غرائبيتها..

فقد عرض فيها الكاتب ما يعانيه المرضى النفسيون وما يخبَّأ لهم خلف أسوار تلك المستشفيات خاصة في تلك الحقبة بما تحتويه من خصوصية مجحفة وكتمان وقصور في المعرفة لمن يعانون من هذه الأمراض.

ثم صور لنا الدكتور والطاقم الطبي عندما يكونون مجرمين بزي أطباء!

البطل " أندريه يفيميتش" وشخصيات أخرى ميخائيل أفيريانيتش وخوبوتوف والمجنون العاقل إيفان دميتريتش وغيرهم شكلوا حبكة فيها قليل من المصير الغامض للبطل وعن فلسفة الحياة كل بحسب ما يراه لتختتم القصة بمشهد من البرود والقسوة والغلظة.

وأخيرا نقتبس ما قاله أندريه يفيميتش مستنكرا الرغبة في تخفيف الآلام:

" وما الداعي لتخفيفها؟ فأولا: يقال إن الآلام تفضي بالإنسان إلى الكمال، وثانيا: لو أن البشرية تعلمت بالفعل أن تخفف آلامها بالحبوب والقطرات، فسوف تهجر تماما الدين والفلسفة، اللذين وجدت فيهما حتى الآن لا مجرد الحماية من شتى المصائب فقط بل السعادة كذلك".

الخلاصة أن الكتاب رائع جدا وواقعي ... أرجع إليه دوما من حين لآخر في مكتبتي.

الخيميائي

إن رحلة سانتياغو وسعيه الروحي، والأشخاص الذين يلتقي بهم، والأحلام التي يحملها، والطوالع التي يواجهها، والطبيعة التي يتحدث بها، كلها أمور يمكننا أن نفهمها ونتفهمها.. الأمر كله يتعلق بالعثور على الأسطورة الشخصية ومتابعة حلمك بغض النظر عن أي عقبات، وعن كونك مرتبطًا روحانيًا بالكون، الذي هو جزء منا ففي الأخير كلنا واحد.

إن قراءة هذا الكتاب تعيدنا إلى الطريق الصحيح نحو تحقيق الأحلام التي عَلَّقناها. نحاول دائمًا أن نفعل ما يتوقعه الجميع منا مثل ممارسة مهنة نكرهها لمجرد أن هذا ما يفعله الجميع.

هناك أشياء كثيرة يمكن للمرء أن يتعلمها من "الخيميائي" مثل المخاطرة بمتابعة أحلامك، وهو أمر صعب للغاية في الواقع، وهناك عدد قليل جدًا من الناس في هذا العالم يقومون بذلك، ويعني هنا المخاطرة بكل شيء، لمجرد متابعة قلبك وحلمك. الجميل هو أن المؤلف محق في القول إنه عندما تقرر اتباع أحلامك، فإن الكون بأكمله يتآمر لصالحك وربما هذا هو ما يطلق عليه "حظ المبتدئين" وقد شهدنا جميعًا حظ المبتدئين في نقطة أو أخرى من حياتنا.

كما يتحدث عن مرحلة في رحلتنا نحو تحقيق أحلامنا، ويأخذنا من شفا التخلي عن كل شيء والعودة إلى ما كان مألوفًا ومريحًا (أي حياتنا اليومية المعتادة التي اعتدنا عليها) هذا في الواقع هو الوقت الذي يتم فيه اختبارنا لمرة واحدة أخيرة وهذا يعني أيضًا أننا قريبون جدًا من هدفنا. كان المثال المقدم رائعًا حقًا، وليس شيئا جديدا، لكننا ننسى أشياء بسيطة في حياتنا مثل كون "أحلك ساعة في الليل هي الساعة التي قبل الفجر".

صحيح في الواقع أن الكثير منا يغادرون النضال عندما يصبح قاسيًا جدًا والتوقعات منخفضة جدًا، في حين أننا نكون في الواقع قريبين جدًا من الهدف، لو كنا نتحلى بصبر أكبر لوصلنا إلى الهدف.

في هذا الكتاب أيضًا يتناول المؤلف كويلهو مسألة الموت والخوف منه، رغم حتميته، ويتناول كيف نجعله رفيقًا أو صديقًا لنا لأنه لا بد آت، حيث يقول "إذا كان عليّ أن أقاتل، فسيكون يومًا جيدًا أن أموت مثل أي شخص آخر".

فلا أحد يعرف أبدًا متى يستيقظ في الصباح ويكون ذلك هو آخر يوم في حياته، وفي الواقع، فلن يكون هذا اليوم مختلفًا عن الأيام الأخرى التي عاشها حسب المؤلف. فلماذا لا نعامل كل يوم كما نعامل أي يوم من حياتنا ونعيشه. والموت لا يبحث عن أسباب، ويمكن أن ينبعث من أي شيء تافه وصغير. ويمكن أن يكون كلُّ يوم آخرَ يوم في حياتنا.

الرواية فيها الكثير من التأثُّر حسب رأيي بالمشرق وفهمه للحياة، وهي من الناحية الأدبية الفنية رواية خفيفة لا تتطلب جهدا كبيرا في القراءة لكنها تفتح أبوابا للتأمل في الحياة وأهدافها وأحلامها وخيباتها.



عبد الرحمن مُنيف

قرأت لهذا الكاتب **مدن الملح** (فقط الجزئين الأوليَيْن) ورواية **"الأشجار ومقتل مرزوق"** ورواية **"شرق المتوسط"**، وقد أعجبني جدا بقدرته الفائقة في المجال السردي، فهذا الكاتب بارع حقا، وهو إلى ذلك صاحب رسالة توعوية كبيرة.

وطالما كان هاجسًا لمنيف أن يخلق وعيا وذائقة عند القارئ العربي وبالتالي جعله أكثر إنسانية في محاربة الظلم ومقاومة السائد والتشكيك بالكلمة المزيفة. وهذا ما حاول أن يتحدث عنه في أغلب أعماله.

في روايته "مدن الملح" ، التي تدور أحداثها في بلد لم يكشف عن اسمه – يُفترض أنه المملكة العربية السعودية ؛ من المحتمل أن يكون ميناء حران الخليجي، وهو المسرح الأساسي للرواية، ويمتد لفترة غير محددة من الزمن، يتم خلالها اكتشاف النفط وتحول أسلوب الحياة المحلي بالكامل. المكان نفسه هو بطل الرواية الحقيقي؛ الشخصيات رجال بل إن النساء غائبات تقريبا في الرواية.. يرسم الكتاب اللحظات الأساسية وآثار التغيير على المجتمع ككل، مع سرد يبدو أحيانًا غير متجانس.

ومع ذلك يحافظ الكتاب على زخم سردي معين. استغرق الأمر حوالي نصف الرواية بالنسبة لي لأعتاد على إيقاعها، فالرواية ذات طريقة سرد قصصي أكثر صعوبة ولكنها أكثر وجاهة أيضًا.

وأنا سعيد لأنني قرأت هذا الكتاب، بروايته البانورامية ورؤيته لتأثيرات الاقتصاد النفطي على الطريقة التقليدية للحياة. وهذه الرواية مجردة نسبيا. تتكون أكثر من المشاعر والشائعات وردود الفعل. وهناك قدر كبير من التكرار، لأن هذا ما كانت عليه الحياة.

وخصائص قلم منيف الرائع نراها في الروايتين الأخريين، وأعتقد أن قراءة منيف مهمة جدا لفهم الشرق الأوسط وتحولاته، وفهم كثير من الظواهر الموجودة حتى اليوم.

مع نزار قباني

تعرفت على نزار قباني وأنا طالب في الثانوية، وقد فُتنت بشعره أيما افتتان، فقد كان شيئا جديدًا لم آلفه في الشعر القديم، طرق جديدة للتعبير، أساليب مبتكرة، تجنيح كبير، كل هذا في قالب موسيقي مطرب غفرَ له زلاتِه اللغويةَ التي غالبا تفسد عليّ متعةَ النصوص، وكانت دواوينه خارج متناولي لأسباب مادية وكذلك لعدم توفرها أيضا في البلد، وفي مصر تمكنت من الحصول على دواوينه الصغيرة، التي كانت تباع عند باعة الأرصفة في طبعات شعبية رخيصة، وأتذكر أنني في يوم بارد ماطر من شتاء الإسكندرية وكانت منحتُنا كطلاب متأخرةً جدا والنقود شحيحة، وكانت عندي عشرة جنيهات لشراء وجبة الغداء، لكنني صادفتُ ديوان "**هل تسمعين صهيل أحزاني**" فلم أتمالك نفسي واشتريته واكتفيت ذلك اليوم بوجبة الفول بالعيش البلدي ولم أندم على ذلك الاختيار رغم أن صديقا كان معي تعجب جدا.

بعد ذلك اشتريت أعماله الكاملة، وبعض كتبه النثرية مثل:

"**قصتي مع الشعر**" وهو كتاب في سيرته الذاتية، و"**شيء من النثر**" وهو مجموعة مقالات سياسية كتبها في السبعينيات، وكذلك "**العبث بإتقان وهذه مفاتيحي**" وهو عبارة عن مجموعة مختارة من مقابلاته مع الإعلام..

عموما وباختصار كان نزار أول احتكاك مباشر لي مع مدرسة الشعر الحر، وقد تراجع اهتمامي به بعد ذلك لكنني أعترف له ببعض القصائد الجميلة جدا وبالتأثير الكبير في الشعر العربي المعاصر.



غارسيا ماركيز، اللندي، غالا وآخرون

للأدب الإسباني نكهته الخاصة وأعني هنا الأدب المكتوب باللغة الإسبانية، وقد بهرتني تقنياته السردية، وقد تناولت رواية الخيميائي لباولو كويلهو بشيء من التفصيل، وإن كانت أعمال غارسيا هي الأجود في نظري وكذلك اللندي التي لم أقرأ لها حتى الآن سوى رواية "**حصيلة الأيام**"، وقد أعطتني انطباعا بأن هذه الكاتبة تستحق أن تشتري رواياتها دون تردد مثل الماركات المسجلة، أما غالا فقرأت له رواية "**المخطوط القرمزي**"، سميت الرواية بالمخطوط القرمزي لأن أبا عبد الله الصغير كتب روايته على أوراق قرمزية ويقول غالا إنه عُثر على هذه الأوراق مدفونة في فاس وهي المدينة الأخيرة التي استقر فيها ومات فيها وعلى أساسها روى سيرة حياته.

في الرواية تأملات ملك مهزوم سلَّم آخر َمعاقل المسلمين في الأندلس وهي مملكة غرناطة إلى يد القشتاليين بعد سلسلة من المؤامرات والدسائس بين الممالك الإسبانية حتى لقيت المملكة حتفها بعد حصار الإسبان.

الرواية تقدم الفرصة لأبي عبد الله الصغير ليدافع عن نفسه إزاء سقوط مملكة استمرت قرونا تدافع عن الحضارة الإسلامية ويفند المزاعم التي أدانته بالخيانة فيضع الأسباب والمبررات والمكائد والهزائم التي أدت شيئا فشيئا إلى اتخاذه مثل هذا القرار الصعب. الرواية أيضا تأخذك إلى تلك الأجواء الأندلسية في المسجد الجامع وإلى قصر الحمراء لتضيع فيها بين زفرات الملك المهزوم الذي عاش في المنفى أكثر مما عاش ملكا، هذه رواية تحمل طابعا ذا شجن وتفتح أمامك خبايا نفس هذا الملك.

لو أن المنهزمين يكتبون التاريخ كما فعلتَ بهذه الدرجة من المصداقية والشفافية والدقة اللامتناهية لأوكلنا لهم المهمةَ دونما تردد ولربما عندئذ نتيقن أننا قد قبضنا على الحقيقة..

ولكن التاريخ لا تكتبه سوى أوهام المنهزمين وأكاذيب المنتصرين.. لعبة

مضللة تكشف أوراقها أو تخفيها كما تشاء..

شهادتك جاءت متدفقة متراكمة منسقة لم تكن مدحا ولا تعليلا لهزيمتك ولا تبريرا لضعفك وخسارتك الفادحة..

التاريخ يلقي على كاهلك مسؤولية سقوط بلاد الأندلس ولكن أنت أوكلت إليك مهمة لم تخلق لها.. أجل أنت كان يكفيك أن تنظم الشعر وتختال بالبساتين وترتكب الحماقات وكفى..

أنت ضحية ورطة ملعونة تضافرت فيها الخيانات والخدائع ورجال باعوا أنفسهم بالمال.

عبد الله الصغير لم يكن وحده سببا في الخسارة، لقد كان يخاف أن يكون الخاسر الأعظم الذي بخسارته يخسر الجميع، وللأسف قد كان..

طُعّمت الرواية بالعديد من القصائد لجلال الدين الرومي، الرضيّ، ابن عربي وغيرهم ما ساهم في إشعال فتيل الروح الشرقية بين طياتها.

غالا يكتب بتفاصيل كثيرة جدا ودقيقة لا تخلو من لغة عذبة سلسة ومشوقة، يكفيه أنه أرّخ لحضارة الأندلس ومجدها العظيم، وأخيرا من منا لا يبكي الفردوس المفقود؟.



رابعًا:

«وهو يُحاورُه»

نقاشات دينية!

A little philosophy inclineth man's mind to atheism; but depth in philosophy bringeth men's minds about to religion. Francis Bacon.

الترجمة (حرفيًّا):

قليلٌ من الفلسفة قد يجنح بالعقل إلى الإلحاد.. لكن التعمق في الفلسفة يُرجع عقل الإنسان إلى الدين.. **-فرانسيس بيكون**

أيامَ الجامعة انخرطتُ مع زملاء مهتمين بالترجمة في مجموعاتٍ على برنامجٍ للمحادثات الجماعية يُدعى (paltalk)، في البداية بداعي تحسين خبراتنا في اللغة والترجمة، ومن ثمَّ انصرف اهتمامُنا إلى مجالٍ أوسعَ وأهمَّ بكثير، ألا وهو الحوار بين الثقافات المختلفة والمعتقدات المتنوعة، واستهوتني على وجه الخصوص قضيةُ الدعوة في هذا البرنامج، فركزتُ على المجموعات التي تناقش الأديان، وكان عليّ أن أتعلم الكثير من المصطلحات الدينية باللغة الإنكليزية، وكذلك مطالعة الكثير مما كتب المستشرقون والمستغربون إن جاز التعبير، ومتابعة محاضرات علماء أو دعاة الإسلام الذي عاشوا أو يعيشون في الغرب، فهم أكثر قدرةً على استيعاب وفهم العقل الغربي وبالتالي هم أقدر على التأثير فيه والإجابة على استفساراته، فتابعتُ كلَّ ما وقع في يديّ من مسموعات ومرئيات، تتحدث عما جابهنا به الآخرُ من شُبهٍ في التاريخ الإسلامي والعقيدة والعبادات والشريعة (القانون) وغيرها من مناحي حياتنا الإسلامية.

وقد استفدتُ الكثير من هذه المناقشات والحوارات، ولم تعد مسألة اللغة والترجمة هي الهدفَ بالنسبة لي، فقد صار الهدف أعمق وأحرى أن يُبذل فيه الجهد الجهيد، فأنا على (ثغر من ثغور الإسلام)، أنافح عنه، وأُبطل ما نُسج من أباطيلَ وخرافاتٍ من أعدائه، وأحيانًا كثيرةً للأسف من البسطاء أو غير المؤهلين من أبنائه، وكان من الغريب عندي متابعةُ أصحاب الشبهات للقنوات الدينية وتسجيل خطب الدعاة فيها خصوصا ممن يخدمون تلك الصورة النمطيةstereotype عن الإسلام ولعل من أهم هذه القنوات قناة (Memri TV) التي تقوم على تسجيل وترجمة كل ما يُبث في العالم الإسلامي مما يخدم تلك الصورةَ طبعا، وعندما تُجادل أحدهم بأن الإسلام مثلًا دينُ رحمة وعدالة، جاءك بتسجيل لأحد الشيوخ في خطبةٍ يدعو للقتل أو يشرح الحدود وكل ذلك مجتزأٌ من سياقه تماما ليبدوَّ حجةً لهم.

ومن المهم أن أذكّر بأن هناك فرقًا بين من يسعون للمعرفة ومن يسعون لترسيخ صورة نمطية موجودة سلفًا، والحوارُ مع الفئة الأخيرة غيرُ مجدٍ غالبا، لذلك سأتناول

هنا فقط جوانب تحضرني من الحديث والحوار مع مَن يسعون فعلًا للحقيقة، ولديهم استعدادٌ كاملٌ لقبولها..

كما أن العلماء عندنا في الإسلام أقسامٌ كثيرة، ولعل من أهمها حسب تجربتي الأنواع التالية:

1 - **عالمٌ تقليدي** مقلد لكنه أميٌ في اللغات الأخرى غير العربية وأمي أيضا في الثقافات الأخرى بل أحيانا يكون علمُه محصورًا في مذهب معين أو طائفة معينة، وهذا النوع لا يمكن أن يتحاور مع الآخرين والغالب أنه لا يرى الحوارَ معهم مهمًا فلْيظنوا ما شاءوا عن الإسلام، ولنظن نحن ما شئنا عنهم، ولا طالب ولا مطلوب، وكل حزب بما لديهم فرحون، وهذه النظرة كانت ممكنة نوعًا ما قديما ولكن الآن نحن فعلا في قرية واحدة والتواصل متاح للجميع حتى الأطفال القُصّر، يمكنهم الوقوف على ما يُقال وعلى كل الشُّبه المُثارة، وبالتالي فخيار الانعزال لم يعد ممكنا.

2 - **علماء وخبراء** في اللغات الأخرى والثقافات العالمية ولديهم فهمٌ عميق لها، ولكنْ لديهم أيضا ضعف شديد في علوم الشريعة الإسلامية والعقيدة، وهم غالبًا إما اعتذاريون (apologetics) ينكرون كلما لا يوافق الثقافة العالمية، أو هم لا مبالون "غير دينيين" كما يُقال.

3 - صنف هم **من اعتنقوا الدين الإسلامي من الغربيين** بعد البحث والتأمل، وهؤلاء لديهم دافع كبير لنشر تجربتهم كما أن لديهم فهمًا أعمق لثقافتهم الأصلية وبالتالي فهم يخاطبون تلك الشكوك والاستفهامات التي عند بني جلدتهم، ولكن الغالبية منهم لديها نقص في معرفة اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

4 - الصنف الرابع، وهو الأندر هم أشخاص **جمعوا بين المعرفة الدينية الإسلامية ومعرفة ثقافة الآخر** ولغاته وعقليته، وهؤلاء هم مَن عليهم المعوَّل في تصحيح ما يُشاع عن الإسلام في الغرب خصوصًا والتصدي للدعاية المغرضة ضد الإسلام والمسلمين.

ومن أهم ما لاحظتُه التأثير الكبير لقراءة ترجمة جيدة لمعاني القرآن الكريم، فأغلب من دخلوا الإسلام كان السبب قراءتهم لإحدى هذه الترجمات!

وممّا يجدر ذكرُه هنا أنني لاحظت أن العلماء أو المهتمين بحوار الأديان عمومًا ينقسمون إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول يذهبون بعيدًا في الاعتذار عن الإسلام ونفي كلِّ ما يرونَه منافيًا للمدنية الحديثة وللإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فنراهم يُنكرون الحدود أو بعضها، وكذلك يُنكرون أغلب الآثار التي تذكر العذاب كما سيأتي، وهم بذلك كأنما يفصِّلون الدين على مقياس الآخر حتى يتماهَوا معه كليًا وهم بذلك يفقدون خصوصيتهم أو أغلبها فيصبحون نسخًا مكررة من تلك الثقافة العالمية، وبعضُهم يدعون صراحة إلى أن يقتصر الدين عندنا على العلاقة الفردية بين العبد والخالق، فلا شريعةَ ولا تدخلَ في الحياة الشخصية ولا حدود ولا قضاء شرعيًا .. إلخ.

والقسم الثاني أشخاص جامدون جدا وحرفيون نوعًا ما في فهمهم للدين، وهم بذلك صِداميون، وغالبا تنتهي حواراتهم في طريق مسدود.

على رأي الشاعر القديم:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلفُ

وبين تفريط أولئك وإفراط هؤلاء، هناك طريقٌ للنقاش والتفاهم وتصحيح المفاهيم الخاطئة.

ومن الملاحظ أيضًا أن هذا المجال لا ينبغي أن يتصدى له مَن لا يفقهون في الدين أولا، وثانيا مَن لا يفقهون المدنية المعاصرة، والعقلية الغربية أو قل العالمية، فمن كان لديه نقص في إحدى هاتين الناحيتين كان خليقًا أن يضر ولا ينفع، فلا بد من اطلاع واعٍ وواسعٍ على الثقافة الإسلامية بكل مذاهبها وفروعها، والإلمام بالسياقات التاريخية والعقلية العربية والبيئة التي نشأ وانتشر فيها الإسلام من ناحية، ومن ناحية أخرى لا بد من التضلع من لغة الغرب وثقافته وعقليته، وفهمه للأمور، وتاريخه وسياقاته، فبغير هذا لا يمكن أن تجري حوارًا مثمرًا ولا أن تصحح المفاهيم المغلوطة.

وسأقوم هنا بذكر أهم الشبهات التي كانت تُطرح علينا:

1 - قضية **ارتباط الإسلام باللغة العربية** والثقافة العربية، بل إن هناك مَن

يعتقدون أن الإسلام دين العرب خاصة! فكثيرًا ما نُسأل لماذا الصلاة بالعربية فقط؟ لم لا يكون من حق أي مسلم أن يترجم الفاتحة إلى لغته ويصلي بها بعيدا عن اشتراط اللفظ العربي؟ فالأديان الأخرى، حسبهم طبعًا، لا تشترط لغة معينة للصلاة، وكان ردي على هذه النقطة هو أن القرآن الكريم وقفي لأنه كلام الله جلّ وعلا، وبالتالي لا يمكن أن تعوضه أية ترجمة بلغة أخرى، والصلاة عمادُها القرآن، وكذلك ألفاظ الحديث الصحيح، في الأدعية والله أعلم.

القضية الثانية التي دائمًا تطرحُ علينا هي قضية **أبدية العذاب** (Eternal damnation) وهي في نظرهم تُناقِض العدل، لأن العقوبة يجب أن تساوي الجُرم، فلا يمكن حسب قولهم أن يُعذب أحد عمرُه لا يصل غالبًا مئة سنة (ولو قدرنا أنه أمضى عمره منذ ولادته إلى موته في الإجرام) عذابًا أبديًا أي الخلود في النار، فهذا لا يُناسب الجرم حسب تعبيرهم.. Disproportionate

والقضيةُ هنا حسب رأيي هي سوءُ تقدير لمفهوم الرب الخالق عند المسلمين، فهو الخالق والمالك، وتصرف المالك في ملكه يسمى عدلًا لا جورًا، وفي القرآن الكريم يقول جلّ من قائل حكاية عن عيسى عليه السلام:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ..﴾ [**المائدة**: 118] كما أن قضايا مثل الحدود، خصوصًا الردة (apostasy) وقتل المرتد تُطرحُ دائما من قبل هؤلاء للتدليل على أن الإسلام لا يُعطي حرية الاختيار لمُعتنِقيه في التخلي عنه، وقد طالعتُ الكثير من الدعاة في الغرب ينفون قتل المرتد لأنه – حسب رأيهم – يُناقض صريح الآية ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [**البقرة**: 256]، ومنهم على وجه الخصوص الداعية يوسف أستس، وله محاضرات في هذا المعنى، وهناك من الدعاة والمفكرين حتى العرب من يُبطل حد الرجم، وهو ما يُثيره أعداء الإسلام عادة للتدليل على ما يرجفون به من "وحشية الدين"، وليس هذا مقام البسط في حجج كل طرف، وهي متاحةٌ للجميع على كل حال.

ومن ذلك أيضًا **قضايا المرأة**، كالمساواة في الإرث، والمساواة في الشهادة، والعدة، وفرض لباس معين زيادة على الرجل، وضرب الزوجة، والتعدد،.. وأذكر

هنا أن الأستاذ يوسف أستس قال إن الضرب المذكور في القرآن الكريم، قد مُثِّل له في الأثر بالضرب بالمسواك، وبالتالي يكون أقرب إلى المداعبة من الضرب، ولكن هذا التفسير يُفقد الضرب مقصوده من الردع عن النشاز والمعاقبة عليه، وهذا يُعطينا مثالا على ما ذكرتُ سابقا من أن بعض الدعاة تمادى جدا في استمالة الغرب حتى أفقد أوامر الشرع قوتَها وعزمها. والأمثلة كثيرة، في مواقع وكتب هؤلاء الدعاة والوعّاظ.

المجموعة الأخرى من الشبه، تتضمن **الجانب العلمي**، ومحاولة إيجاد تناقض بين الحقائق العلمية والدينية، وأصحابُ هذه الشُّبه دائما يعتمدون على ما يرونه تناقضا بين الاثنين، مثلا في قضية الخلق مقابل نظرية التطور (evolution theory)، وقصة الانفجار العظيم (Big bang theory)، وحتى مسائل مثل تطور العلم الذي يسمح بمعرفة الأجِنَّة، وقضية نزول الله سبحانه وتعالى كل ليلة في الثلث الأخير من الليل كما في الحديث، مع أن العلم يقول إن اليوم كله هو الثلث الأخير من الليل على مكانٍ ما على الكرة الأرضية، ونحو هذا مما يربطه الذهن بصفات المخلوق التي يُخالفها الخالق، وبالتالي فإن القياس باطل ..

وكذلك وجوده سبحانه في كل مكان في جميع الأوقات، وهذا لا يُدرك بتصوراتنا المنطلقة من محسوساتنا المحدودة طبعًا، وهؤلاء أخف لأن دعواهم يمكن النقاش حولها وعادة يكون النقاشُ مثمرا، لأن الحقائق العلمية والدينية لا تناقضَ بينها. وقد أجاد في هذا الموضوع عالم الرياضيات الأمريكي، جيفري لانغ، وله محاضرات قيمة وكتب في هذا المجال لمن أراد الاستزادة.

المجموعة الأخرى، عادة تتحدث عن **العلاقة مع غير المسلمين**، وتذكر الآيات والأحاديث المتعلقة بالقتال، وكره المشركين، وما إلى ذلك، والهدف منها التدليل على أن الدين لا يتماشى مع مفهوم التعايش السلمي، حيث كل شخص له الحرية فيما يأتي وما يدع، ولا يمكن أن تأمره بمعروف أو تنهاه عن منكر.

كما تدخل في هذا الإطار **قضايا السياسة** والتناوب على الحكم، وقضية المتغلب، **والحريات الشخصية** في إطار الدولة ومفهوم الخلافة.. إلخ

وأخيرا هناك **قضايا التاريخ**، وانتشار الإسلام، ولعل من أكثر المواضيع طرحًا

قضية بني قريظة المشهورة. وفي هذا المجال تكثر الأحاديث والمرويات الضعيفة، ويتلقفها المرجفون ويزيدون عليها لتشويه صورة الإسلام وأنه انتشر بالسيف، وأنه دين همجي يأمر بقتل قبيلة كاملة حتى المراهقين والنساء لأن بعضها أجرم، وعادة عند التنقيح ومراعاة السياق الزمني والتاريخي والبدائل المُتاحة في ذلك العهد، يتبين لهم كذبُ افتراءاتهم..



خامسًا:

في بلاط المتنبي..

مع شاعر العربية الأول

لغيـــر الحســـن قلبـــيَ لا يميـــلُ	ويكفينـــي مـــن النّشَـــبِ القليـــلُ
وتُطربنـــي مجـــالسُ للألبّـــا	مديـــدُ الـــودّ فيهـــا والطويـــلُ
وشـــعرٌ وافـــرُ المعنـــى جميـــلٌ	وإنّ الشـــعرَ وافـــرهُ جميـــلُ
فـــذاك ألـــذُّ مـــن صـــهْبا شَـــمولٍ	بهـــا ينـــسى خليلتَـــه الخليـــلُ

المؤلف

أود أن أشير هنا إلى أنني في هذه القراءات، إنما أصدر عن هوىً خالصٍ في نفسي وطربٍ للشعر، فلم أكتبها لأنال شهادةً أكاديميةً في الأدب أو النقد، وليس هذا تخصصي الأكاديمي، ولم أكتبها لنيل جائزة في البحث، وإنما هي خواطر محب شُغف بالشعر الجميل، وأحب أن يشارك تجاربَه وقراءاتِه مع الناس، والغريب، كما قلت مرارا، هو أنني لم "أُدرّس" المتنبي في الدراسة التقليدية "المحظرة" ولا في الدراسة النظامية بعد ذلك، عكسَ بعض الشعراء الآخرين، مثل شعراء الجاهلية الستة (في صباي تم تحفيظي دواوينهم قسرا، وما زلت أحفظ أغلبها إلى اليوم، وكذلك ديوان الحماسة فيما يسمى قديما بالزرگ وهو تمارين على الإعراب بالشعر حيث نعرب الأبيات ثم نحفظها)..

وقد دونت هذه الدواوين في دفاتر وصحف متفرقة (تسمى عندنا الكنانيش جمع كنّاش أي كشكول من صفحات متفرقة) ولاحقا قمت في إطار مشروع رقمنة التراث برقمنة ثلاثة من كنانيشي الخاصة وإتاحتها للجميع على موقع الأرشيف.. (رابطها في الفهرست).

ورغم أن أبا الطيب لم يُفرض علي ولم يكن يوما جزءا من تكويني ولا تدريسي يجب علي حفظه أو دراسته، إلا أنني أحفظ ديوانه تقريبا كاملا، لا عن قصد ونية، وإنما لاستحسانه والطرب له، فأجدني أكرره بيني وبين نفسي وهكذا يرسخ في ذهني، مع تأمله وتذوقه.

ولعل من أول ما لاحظته من قراءاتي لديوان المتنبي أنني عندما أطالع تراجم الرجل أرى شخصًا مختلفًا عن الشخص الذي أجده عند قراءة الشعر، ولأسباب عديدة، أُقدّمُ الشعرَ على الأخبار التي أرى في معظمِها تحاملًا غيرَ خفي.

ثم إن الشعر في حد ذاته وثيقةٌ تاريخية مقدَّمة على آراء المعاصرين ومن تبعهم، فهم أصحابُ أغراضٍ وأهواء، وكما قيل فالمعاصرة تمنع المناصرة..

وقد تعرفتُ عن قرب على شعر المتنبي في وقت متأخر نسبيًا، حيث كان أول احتكاك لي بالشعر عن طريق الكُتّاب التقليدي (المحظرة)، حيث بدأتُ بالشعر

الجاهلي عبر دواوين الشعراء الستة الجاهليين، كما أسلفت، ومن ثم مقطعات من ديوان الحماسة وبعض الأشعار المحلية، وكانت هذه النصوص تُفرضُ علي فرضًا لا تذوقًا ولا اختيارًا مني، عكس شعر المتنبي.

أذكر أن الأديب المازني كتب في "حصاد الهشيم" ملاحظة تصدقُ عليّ أيضًا حيث قال إن ديوان أبي الطيب لم يكن مقررًا عليه ولا في مكتبته حتى، ورغم ذلك فهو يحفظ له أكثر مما يحفظ لأي شاعر آخر!

وفي بيئتي لم يكن ديوان أبي الطيب متداولًا ولا مما يُدرس للصغار في الكتاتيب عندنا، فلم أتعرف عليه إلا وأنا شاب، ولكنه كان عشقًا من أول نظرة كما يقولون، فمنذ أول قراءة لقصائده وأنا مولع بها، حتى إنني حفظت أغلبه من دون أن أدري أو أنوي ذلك!

بل كانت قصائده لجودتها تفرض نفسها عليّ فرضًا وتظل معششةً في فكري حتى أجدني أرددها وقد حفظتها..

ومن خصائص شخصية المتنبي الظاهرة في شعره هي قوميته البارزة، وتوجعه لما حل بالأمة العربية في ذلك العهد الموسوم بالاضطراب السياسي، حيث استحوذ الأغراب والأعاجم على مفاصل الدولة الإسلامية، وأصبح خلفاؤها خواتم في أيديهم، وكان أبو الطيب يرى ما هم فيه من الذل والتشرذم والاستخذاء، فكان ذلك يؤلمه أيما إيلام، فهناك الديلم والتنوخيون والإخشيد والترك، وكلهم يحكم جانبًا من أرض الخلافة، وأخذ أبو الطيب على عاتقه إدالة "دولة الخدم" هذه كما يسميها.

ورغم أن أبا الطيب في بعض يأسه قد مدح بعضَ هؤلاء الأعاجم، مثل الأمير بن طغج وكافور بعد ذلك وغيرهم، إلا أنه كان مدحا أقرب للرُّقى كما قال هو، والمتأمل لقصائده في هؤلاء الأعاجم، يجد فيها كثيرًا من الإشارات التي لا تخفى على ذي لب من ذمّ للدهر وأهله، ومن استعلاء وفخر لا يخلو من تعالٍ عليهم، وكان ذلك منه اضطرارًا كما أرى، وكما أشار هو، في اعتذاره للأدب والشعر، عندما قال:

وشعرٍ مدحتُ به الكركدنَّ ... بين القريض وبين الرُّقى

فما كان ذلك مدحًا له ... ولكنه كان هجوَ الورى

إن المتنبي لم يكن يمدح بالمعنى التقليدي بل كان كأنه يصبغ خصاله أو يخلعُها على الممدوح، وذلك غالبًا بعد أن ينوه بنفسه وبمكانته ومجده، وأعتقد أنه يختلف حسب الممدوح، فإذا كان أعجميًا أطنب المتنبي في إبراز خصاله هو ومدح نفسه الكريمة قبل ممدوحه ولعله أيضا يشير ضمنيا بذلك إلى ما يجب أن يكون عليه القائد عموما ليستحق القيادة.

فهو يمدح نفسه ثم قصيدته، ثم ما يجب أن يكون عليه القائد أو الشخصية المجيدة عمومًا.

فلهذا المدح أكثرُ من وظيفة فهو توجيه في طيه ملامٌ أحيانا، وهو أيضا إسقاطٌ لما يراه هو في نفسه على ممدوحه، وهو أيضا رأيُه فيما يجب أن يتحلى به الزعماء..

وفي بداياته قصائد رائعة حقا رغم أنه قالها وهو صغير جدا حسب الرواة، مثل داليته التي مطلعها:

أهلًا بدارٍ سباك أغْيدُها   أبعد ما بان عنك خُرَّدُها

ويكفي أن تقرأ مطلعها الغزلي الرقيق حتى تعرف أنك أمام شاعر مختلف:

قِفَا قَليلًا بها عَليّ فَلا   أَقَلّ مِنْ نَظْرَةٍ أُزَوَّدُهَا

فَفي فُؤادِ المُحِبّ نَارُ جَوًى   أحَرُّ نَارِ الجَحيمِ أبْرَدُهَا

يَا عَاذِلَ العَاشِقِينَ دَعْ فِئَةً   أضَلّهَا الله كَيفَ تُرْشِدُهَا؟

لَيْسَ يُحِيكُ المَلامُ في هِمَمٍ   أقْرَبُهَا مِنْكَ عَنْكَ أبْعَدُهَا

ثم قف عند هذا الوصف الطريف لناقته التي هي في الحقيقة نعله!

لا نَاقَتي تَقْبَلُ الرّدِيفَ وَلا   بالسّوْطِ يَوْمَ الرّهَانِ أُجْهِدُهَا

شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا   زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

فقد أخذ صفات الناقة واستعارها لنعله كما ترى، وهذه الفكرة تكررت في قصيدته المسماة الدينارية (مع شكي في تلك القصة):

وحُبِيتُ من خُوصِ الرّكابِ بأسوَدٍ   من دارِشٍ فغَدَوْتُ أمشي راكِبَا

فهو يقول إنه استعاض من الركائب بجلد أسود يعني حذاءه، فصار يمشي وهو راكب!

وهي قصيدة مشهورة جدًّا فلا نحتاج التوقف عندها كثيرًا.

ومن الظواهر المتكررة كثيرًا في شعر أبي الطيب الشكوى من الدهر وأهله ومصائبه، فالرجل لقي الكثير من سوء الحال والحسد والعداء والتآمر عليه، كما قال:

رَماني الدّهرُ بالأرزاءِ حتى ... فُؤادي في غِشاءٍ مِنْ نِبالِ

فَصِرْتُ إذا أصابَتْني سِهامٌ ... تكَسّرَتِ النّصالُ على النّصالِ

وكذلك:

وقِلّةِ ناصِرٍ جُوزِيتَ عني ... بشَرٍّ مِنكَ يا شَرّ الدّهورِ

عَدُوّي كُلُّ شيءٍ فيكَ حتى ... لخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُّدورِ

فلَوْ أنّي حُسِدْتُ عَلى نَفيسٍ ... لجُدْتُ بهِ لِذي الجَدِّ العَثُورِ

وتأمل معي بيته هذا:

لَيتَ الحَوَادِثَ باعَتني الذي أخذَتْ ... مني بحِلمي الذي أعطَتْ وَتَجرِيبي

فهو يريد الزمن أن يبعه السعادة وخلو البال بكل ما أعطاه من حكمة وتجارب، وكأنه يتمنى أن يكون شخصا عاديا لا له ولا عليه خليا مرتاح البال وليذهب الدهر بما أعطى من تجريب وحكمة!

ويكفي أن تقرأ هذه الأبيات لتدرك مرارة حياة الرجل وعصره:

فُؤادٌ ما تُسَلّيهِ المُدامُ ... وَعُمْرٌ مثلُ ما تَهَبُ اللّئَامُ

ودَهْرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ ... وإنْ كانتْ لهمْ جُثَثٌ ضِخامُ

وما أنا مِنْهُمُ بالعَيشِ فيهم ... ولكنْ مَعدِنُ الذّهَبِ الرَّغامُ

أرانِبُ غَيرَ أنّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ

خَليلُكَ أنتَ لا مَن قُلتَ خِلّي ... وإنْ كَثُرَ التّجَمّلُ والكَلامُ

وشِبْهُ الشيءِ مُنجَذِبٌ إلَيْهِ ... وأشْبَهُنَا بدُنْيانا الطَّغامُ

ولا شك عندي أن أبا الطيب كان طُلَعةً فقد روى الرواة أنه كان يقيم في دكاكين الوراقين (المكتبات) ويبيت فيها يطالع الكتب، يقول عنه وراق: "ما رأيت أحفظ من ابن عبدان (لقب أبيه كما يدعي الرواة)، كان عندي اليوم وقد أحضر رجل كتابًا نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ ابن عبدان ينظر فيه طويلًا، فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون، إن شاء الله، بعد شهر. فقال له ابن عبدان: فإن حفظته في هذه المدة، فما لي عليك؟ قال أهدي لك الكتاب. قال، فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه، حتى انتهى إلى آخره". وتقول الحكاية إن المتنبي أخذ الكتاب ومضى بمباركة صاحبه.

وهذه المطالعة أكسبت أبا الطيب ثقافةً واسعة تجدها جلية في شعره،

ومَن طالع "الرسالة الحاتمية" سيدرك مدى اتساع ثقافة الرجل الفلسفة، ومدى اطلاعه على الفلسفة اليونانية الأرسطية خصوصا.. كما نراه يذكر المانوية وهي فرقة ليست مشهورة ترى أن النور خير كلُّه وأن الظلام شر كلُّه:

وَكَـمْ لظَـلامِ اللّيْـلِ عِنـدَكَ مِـن يَـدٍ ... تُخَبِّـرُ أنّ المَانَوِيّـةَ تَكْـذِبُ

وَقَـاكَ رَدَى الأعـداءِ تَـسْري إلَـيْهِمُ ... وَزَارَكَ فيـهِ ذو الـدّلالِ المُحَجَّـبُ

وكذلك تجد آثار هذه الثقافة وتلك المطالعات في رائيته لابن العميد حيث يقول:

مَـنْ مُبلِـغُ الأعـرابِ أنّـي بَعْـدَها ... جالَسْـتُ رِسْـطالِيسَ وَالإسْـكَندَرا

وَسَـمِعْتُ بَطليمـوسَ دارِسَ كُتبِـهِ ... مُتَمَلّكًـا مُتَبَـدّيًا مُتَحَـضّرَا

وَلَقيـتُ كُـلّ الفَاضِـلِينَ كأنّمَـا ... رَدّ الإلـهُ نُفُوسَـهُمْ وَالأعْـصُرَا

وأعتقد جازمًا أن علاقة أبي الطيب بسيف الدولة وبفاتك بعد ذلك كانت علاقة حب وصداقة وإعجاب متبادلة، ولم تكن مجرد علاقة شاعر بأمير أو وال.

واقرأ معي قصائده فيه وستلاحظ معي أمرين، أولهما تخفيفُه من الغلو والمغالاة في الفخر، والذي قدّمنا أن ذلك كان لحاجة في نفس الرجل خصوصًا عندما تجبره الظروف على مدح من هو دونه أو على الأقل يراه دونَه، ولا أمرَّ ولا أمضّ من

ذلك، والأمر الثاني هو صدق العاطفة، ويكفي أن تعلم أن المتنبي قد مدح سيف الدولة بعد عودته من مصر في آخر أيامه، وتعلم أيضًا أن سيف الدولة بعث لأبي الطيب هدايا ودعاه للعودة إليه، واقرأ لامية أبي الطيب الرائعة:

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يَا رَسُولُ ... أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ المَتْبُولُ

وسنورد منها أبياتًا قمة في الروعة وإن كانت القصيدة كلها غاية في الحسن،

يقول في أولها:

وَالمُسَمَّوْنَ بِالأَمِيرِ كَثِيرٌ ... وَالأَمِيرُ الَّذِي بِهَا المَأْمُولُ

الَّذِي زُلْتُ عَنْهُ شَرْقًا وَغَرْبًا ... وَنَدَاهُ مُقَابِلِي مَا يَزُولُ

لَيسَ إلاّكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ ... سَيْفُهُ دونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ

كَيفَ لا تَأْمَنُ العِرَاقُ وَمِصْرٌ ... وَسَرَاياكَ دونَهَا وَالخُيُولُ

لَوْ تَحَرّفْتَ عَن طَرِيقِ الأعادي ... رَبَطَ السِّدْرُ خَيلَهُمْ وَالنّخيلُ

***

وهنا أيضًا يظهر لك رأي أبي الطيب الذي يرى أن سيف الدولة هو الحامي والمحامي عن دولة العرب، ولولاه لوصل الأعداء سِدرَ مصرَ ونخلَ العراق!

أنتَ طُولَ الحَيَاةِ للرّومِ غازٍ ... فَمَتى الوَعْدُ أن يكونَ القُفُولُ

وَسِوى الرّومِ خَلفَ ظَهرِكَ رُومٌ ... فَعَلَى أيّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ

قَعَدَ النّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَساعيـ ... ـكَ وَقامتْ بها القَنَا وَالنُّصُولُ

مَا الّذي عِنْدَهُ تُدارُ المَنَايَا ... كالّذي عِندَهُ تُدارُ الشَّمولُ

وتأمل قوله وَسِوى الرّومِ خَلفَ ظَهرِكَ رُومٌ .. تجد ما قلنا من أنّ المتواطئين من الأعراب ومن ملوك العجم لا يقلون خطورة عن الروم في حقدهم وعدائهم لسيف الدولة ولملكه.

واقرأ قوله متحدثا عن فضل سيف الدولة حتى على المشركين الذين كان سببا في هدايتهم:

سَـــــبقْتَ إلَـــــيْهِمْ مَنَايَـــــاهُمُ وَمَنْفَعَـــــةُ الغَـــوْثِ قَبْـــلَ العَطَـــبْ
وَكـــم ذُدتَ عَـــنهُمْ رَدًى بـــالرّدى وَكَشّـــفْتَ مـــن كُـــرَبٍ بـــالكُرَبْ

إلى أن يقول:

أرَى المُسْــــلِمِينَ مَــــعَ المُشْرِكِيـــــنَ إمّـــا لعَجْــزٍ وَإمّـــا رَهَـــبْ
وَأنْـــــتَ مَـــــعَ الله في جانِـــــبٍ قَليـــلُ الرّقـــادِ كَثيـــرُ التّعَـــبْ
كأنّـــكَ وَحْـــدَكَ وَحّدْتَـــهُ وَدانَ البَرِيّـــــةُ بـــــابنٍ وَأبْ

وحتى في معاتباته يظهر الود والندية أحيانًا:

أرى ذلــكَ القُــرْبَ صــارَ ازْوِرارَا وَصــارَ طَوِيــلُ السّــلامِ اختِصــارَا
تَرَكْتَنِـــــيَ اليَـــــوْمَ في خَجْلَـــــةٍ أمُـــوتُ مِـــرارًا، وَأحْيَـــا مِـــرارَا

فعلى سيف الدولة ألا ينسى أفضال أبي الطيب عليه وما صنع له من صيت وذكر باقيين سارت بهما الركبان،

وَعِنْــدي لَــكَ الشُّــرُدُ السّــائِرا تُ لا يختَصِصْـــنَ مـــنَ الأرْضِ دارَا
قَـــوَافٍ إذا سِـــرْنَ عَـــنْ مِقْـــوَلي وَثَـــبْنَ الجِبـــالَ وَخُضْـــنَ البِحـــارَا
وَلـــي فيـــكَ مَـــا لـــم يَقُـــلْ قَائِـــلٌ وَمَـــا لـــم يَسِـــرْ قَمَـــرٌ حَيـــثُ سَـــارَا

وبالنسبة لفاتك، الذي لقيه في مصر، فيكفيك أن تقرأ مطلع قصيدته الأولى له:

لا خَيْــلَ عِنــدَكَ تُهْــديهَا وَلا مــالُ فَلْيُسْـعِدِ النُّطْـقُ إنْ لـم تُسـعِدِ الحـالُ
وَاجْــزِ الأميــرَ الــذي نُعْمَــاهُ فَاجِئَــةٌ بغَيــرِ قَــوْلٍ وَنُعْمَــى النّــاسِ أقْــوَالُ

فهذا خطابُ نِدّ لنده، ونظيرٍ لمثله، فهو يقول إنه لا خيل عنده ولا مال ليجزي معروف هذا الأمير، والمفهوم أنه لو كان له مال وخيل لما مدح وإنما كان رد المعروفَ بمثله فتأمل! .. وهل في هذا الشطر "وَنُعْمَى النّاسِ أقْوَالُ" إشارة خفية لكافور بعد أن بدأ ييأس منه؟ وستكون بذرة - ربما - لما سيهجو به كافورًا بعد ذلك في قوله:

جُودُ الرّجالِ مِنَ الأيدي وَجُودُهُمُ ... مِنَ اللّسانِ، فَلا كانوا وَلا الجُودُ؟

لك أن تحكم في ذلك بما تراه.

واقرأ معي قوله أيضًا:

وَإنْ تكُنْ مُحْكَماتُ الشّكلِ تمنَعُني ... ظُهُورَ جَرْيٍ فلي فيهِنّ تَصْهالُ

وَمَا شكَرْتُ لأنّ المَالَ فَرّحَني ... سِيّانِ عِنديَ إكْثارٌ وَإقْلالُ

لَكِنْ رَأيتُ قَبيحًا أنْ يُجادَ لَنَا ... وَأنّنَا بِقَضَاءِ الحَقّ بُخّالُ

ومحكمات الشُّكل، وهي القيود، ربما يقصد بها كافورًا الذي يمنعه من إظهار ما يكنه لفاتك من إعجاب وود..

وفي هذه القصيدة أبيات لا يحسن أن نتخطاها، مثل قوله:

إنّا لَفي زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بِهِ ... من أكثرِ النّاسِ إحْسانٌ وَإجْمالُ!

ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثّاني وَحاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيشِ أشغَالُ

وفي الشطر الأخير من البيت الثاني ما أراه ملخّصا لمذهب Minimalism الحديث، في الاقتصار على الضروريات وأن كل ما زاد عليها فضول.

أعود لعلاقته مع فاتك لأؤكد هذه الصلة والود المتبادل بين الرجلين حتى إن أبا الطيب رثى فاتكًا في أربع قصائد! ولا يمكن أن يكون أراد منه نائلًا ولا أي عَرَض أو غرض مما يريده الشعراء، بل كان يقضي حق الود.

وفي عينيته الكثير من الصدق والروعة، وسأتكلم عنها عند الحديث عن الرثاء بحول الله.

ومما يميز أبا الطيب عندي هو كما أسلفتُ عمق وتنوع وثراء ثقافته التي جمعها من أسفاره وأيضًا من مطالعاته الكثيرة، وقد ظهر ذلك في شعره وفلسفته، ولعل أكثر ذلك ورد في ثنايا مراثيه خاصة، حيث يُتاح له التأمل في الحياة وفلسفته فيها، وسأورد بعض هذه التأملات من قصائد مختلفة، ومن قصائده التي لم تكن لمدح ولا رثاء ولا هجاء وإنما لتأمل خالص أبياته الشهيرة:

صَـحِبَ النّـــاسُ قَبلَنـــا ذا الزّمَانَـــا   وَعَنَـــاهُمْ مِـــن شـــأنِهِ مَـــا عَنَانَـــا

ولا أُطيل بها هنا لشيوعها، ولكن فيها من الصور المركبة ما يندر أن نجده قبل الشعر الحديث، فقوله:

كلمـــا أنبـــت الزمـــانُ قنـــاةً   ركَّـــب المـــرء في القنـــاةِ سِـــنانا!

فطبعًا القناة هنا محايدة ومتعددة الاستخدامات كأغلب الأشياء في الطبيعة، لكن الإنسان يركب فيها سنانًا فتصبح أداةَ قتل!

ثم تأمل هذا البيت الأخير،

كـلّ مـا لـم يكُـنْ مـن الصّـعبِ في الأنـ   ـفُسِ سَـهْلٌ فيهـا إذا هـوَ كانَـا

ومعناه أن كل شيء مَهما كان صعبًا على النفس، عندما يقع يكون سهلا عليها.

وأتجاوز إلى قطعته التي قالها بمصر في وصف الحمى..

وأقف بك عند هذه الأبيات، ففيها تظهر فلسفة الرجل واعتقاداته وما يعتمل في نفسه من ضيق بالزمن وحساده ومصائبه، وتجلده وتحمله كلَّ ذلك بنفس الصابر الجلْد:

فـإنْ أمـرَضْ فمـا مـرِضَ اصْـطِباري   وَإنْ أُحْمَـمْ فَمَـا حُـمَّ اعتزَامـي

وَإنْ أسْـلَمْ فَمَـا أبْقَـى وَلَكِـنْ   سَـلِمْتُ مِـنَ الحِمـامِ إلـى الحِمـامِ

ثم اقرأ هذين البيتين اللذين فتحا بابا من الفلسفة سيتعمق أكثر مع المعري، كما يرى طه حسين،

تَمَتّـعْ مِـنْ سُـهَادٍ أوْ رُقَـادٍ   وَلا تَأمُـلْ كَـرًى تحـتَ الرِّجَـامِ

فـإنّ لِثَالِـثِ الحَـالَينِ مَعْنًـى   سِـوَى مَعنَـى انتِباهِـكَ وَالمَنَـامِ

من عبقرية أبي الطيب أنه تناول أشياء في علم النفس وحتى في ما يسمى اليوم التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية، فمن قرأ ديل كارنيكي أو استمع لوين داير مثلًا يجد تناصا واضحا مع أبيات لأبي الطيب، فمثلا قوله:

والأســى قبــل فرقــة الــروح عجــز   والأســى لا يكــون بعــد الفــراق

يتذكر حتما مقولة وين داير إن القلق قبل وقوع المحظور من أسباب التعاسة كما أنه لن يفيد بعد وقوعه أيضا..

وعندما تمر على وصية توماس كارلايل لتلامذته بالعيش في إطار اليوم الواحد «day-tight compartment»، والضرب بينه وبين الماضي والمستقبل بجدران سميكة لا يسعك إلا أن تتذكر قول أبي الطيب:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل   عمّا مضى فيها وما يُتوقع

ومن الغريب أن في قصيدة هجاء هذين البيتين اللذين تناولا جانبا مهما من النفس البشرية بشهادة علم النفس الحديث، ألا وهما قوله:

إذا ساءَ فِعْلُ المرْءِ ساءَتْ ظُنُونُهُ   وَصَدّقَ مَا يَعتَادُهُ من تَوَهُّمِ

وَعَادَى مُحِبّيهِ بقَوْلِ عُداتِهِ   وَأصْبَحَ في لَيلٍ منَ الشّكّ مُظلِمِ

وهذا في مقدمة قصيدة غرضُها الهجاء!

فتأمل!

ونصل إلى غرض الرثاء وهو من أخصب الأغراض في ما يخص الفلسفة والتأمل في الحياة ومحاولة فك غوامضها وتحليل أحداثها، ولعل من أحسن مراثيه، البائية التي قالها يرثي أخت سيف الدولة، وهو حينئذ بالعراق، وكذلك بائيته في رثاء يماك خادم سيف الدولة ويظهر أنه من أصل تركي، وفي أولها يقول أبو الطيب:

وَقَدْ فارَقَ النّاسَ الأحِبّةُ قَبْلَنَا   وَأعْيَى دَوَاءُ المَوْتِ كُلَّ طَبيبِ

سُبِقْنَا إلى الدّنْيَا فَلَوْ عاشَ أهْلُها   مُنِعْنَا بهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذُهُوبِ

تَمَلّكَهَا الآتي تَمَلُّكَ سَالِبٍ   وَفارَقَهَا المَاضِي فِراقَ سَليبِ

وَلا فَضْلَ فيها للشّجاعَةِ وَالنّدَى   وَصَبْرِ الفَتى لَوْلا لِقاءُ شَعُوبِ

وشَعوب يقصد الموت، وقد جعلها علة كل شيء، وأذكر أن المازني في كتابه "حصاد الهشيم" أفاض في هذا البيت ومعانيه، حيث أن الموت هو علة كل شيء، وإذا افترضنا حياةً بلا موت لكانت الصفات التي نعدها فضيلة بلا معنى، فمن دون الموت لا معنى للشجاعة، ولا للكرم والسخاء، لأن الإنسان لا يحتاج شيئا فلا

مرض ولا جوع ولا عطش! وقس على هذا كل شيء في هذه الدنيا!

وَأوْفَى حَيَاةِ الغَابِرِينَ لِصاحِبٍ حَيَاةُ امرِئٍ خَانَتْهُ بَعدَ مَشيبِ

يقول إن أكثر حياةٍ وفاءً هي حياة شخص خانته بعد أن شاب، أي بمعنىً آخر خانته وهو في أشد الحاجة لها في وقت ضعفه وعوزه!

ثم يخاطب سيف الدولة:

تَسَلَّ بِفِكْرٍ في أَبَيْكَ فإنّمَا بكَيْتَ فكانَ الضّحكُ بعدَ قَريبِ

أي تذكر موت أبيك وكيف أثر فيك ثم سلوته فمن باب أحرى هذا العامل،

إذا استَقبَلَتْ نَفسُ الكريمِ مُصابَها بخُبْثٍ ثَنَتْ فاسْتَدْبَرَتْهُ بطيبِ

وَللواجِدِ المَكْرُوبِ مِن زَفَراتِهِ سُكُونُ عَزاءٍ أوْ سُكونُ لُغُوبِ

وَكَمْ لَكَ جَدًّا لمْ تَرَ العَينُ وَجهَهُ فَلَمْ تَجْرِ في آثَارِهِ بغُرُوبِ

ثم إن الكريم إذا استقبل المصاب بحزن وشدة فإنه يخفُّ مع الزمن حتى يستدبره بطيب، والحزين المكروب لا بد أن يسكن يوما ما، إما بالتعب وإما بالسلوّ والعزاء، وهذا الأخير هو ما يليق بالأمير، فكم من جَد لك لم تره وبالتالي لم تجزع عليه رغم أنه جدك وتحبه!

وأتوقف قليلا عند رثائيته لأخت سيف الدولة الصغرى التي يقول فيها:

وَإذا الشّيخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَلّ حَيَاةً وَإنّمَا الضّعْفَ مَلاّ

آلَةُ العَيشِ صِحّةٌ وَشَبَابٌ فَإذا وَلّيَا عَنِ المَرْءِ وَلّى

أبَدًا تَسْتَرِدّ مَا تَهَبُ الدّنْيَا فَيا لَيتَ جُودَها كانَ بُخْلا

فكفَتْ كَوْنَ فُرْحةٍ تورِثُ الغمّ وَخِلٍّ يُغادِرُ الوَجْدَ خِلاّ

وَهيَ مَعشُوقةٌ على الغَدْرِ لا تَحْفَظُ عَهْدًا وَلا تُتَمّمُ وَصْلا

كُلُّ دَمْعٍ يَسيلُ مِنهَا عَلَيْهَا وَبِفَكّ اليَدَينِ عَنها تُخَلّى

شِيَمُ الغَانِيَاتِ فِيهَا فَمَا أدْري لِذا أنّثَ اسْمَها النّاسُ أم لا؟

فهذه الأبيات تظهر فيها فلسفة الرجل جلية واضحة، ولا تحتاج كثير شرح،

وهي أهم ما في هذه المرثية.

ونصل بك إلى درة أبي الطيب في الرثاء، وإحدى أحسن المراثي في الشعر العربي، وهي في رثاء خولةَ أختِ سيف الدولة التي مطلعها:

يا أُخْتَ خَيرِ أخٍ يا بِنْتَ خَيرِ أبِ   كِنَايَةً بهِمَا عَنْ أشرَفِ النّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أنْ تُسْمَيْ مُؤبَّنَةً   وَمَنْ يَصِفْكِ فَقد سَمّاكِ للعَرَبِ
لا يَمْلِكُ الطّرِبُ المَحزُونُ مَنطِقَه   وَدَمْعَهُ وَهُمَا في قَبضَةِ الطّرَبِ
غدَرْتَ يا مَوْتُ كم أفنَيتَ من عدَدٍ   بمَنْ أصَبْتَ وكم أسكَتَّ من لجَبِ

إلى أن يقول مخاطبًا سيفَ الدولة، ومشيرًا إلى رأيه في طبيعة الدنيا:

فَلا تَنَلْكَ اللّيالي، إنّ أيْدِيَهَا   إذا ضَرَبنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ
وَلا يُعِنّ عَدُوًّا أنْتَ قاهِرُهُ   فإنّهُنّ يَصِدْنَ الصّقرَ بالخَرَبِ

فمن كان الدهر عليه لم تنفعه قوة ولا بأس، ومن كان معه لم يضره ضعف ولا خور.

وَإنْ سَرَرْنَ بمَحْبُوبٍ فجَعْنَ بِهِ   وَقَد أتَيْنَكَ في الحَالَينِ بالعَجَبِ

فما أعطت جميلا ولا متَّعت بحبيبٍ إلا رجعت ففجعت به! وعلى قدر حبه تكون فجيعتُه.

وَرُبّمَا احتَسَبَ الإنْسانُ غايَتَهَا   وَفاجَأتْهُ بأمْرٍ غَيرِ مُحْتَسَبِ
وَمَا قَضَى أحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ   وَلا انْتَهَى أرَبٌ إلاّ إلَى أرَبِ
تَخالَفَ النّاسُ حتى لا اتّفاقَ لَهُمْ   إلاّ على شَجَبٍ وَالخُلفُ في الشجبِ
فقِيلَ تَخلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالمَةً   وَقيلَ تَشرَكُ جسْمَ المَرْءِ في العَطَبِ
وَمَنْ تَفَكّرَ في الدّنْيَا وَمُهْجَتِهِ   أقامَهُ الفِكْرُ بَينَ العَجزِ وَالتّعَبِ

وتأمل هذه الأبيات، فالناسُ مختلفون في كل شيء إلا في الموت أنه واقع، ومع ذلك اختلفوا في كنهه وفيما بعده، فمنهم من يرى أن النفس والروح تفنى مع الجسد،

وهذا هو رأي أغلب العلماء في عصرنا هذا في الغرب، ومن الناس من يرى أن الجسد يفنى وتبقى النفس للحياة الآخرة وهذا رأي أغلب الأديان بمن فيهم نحن، ثم إن أبا الطيب يختم بهذه الخاتمة المفتوحة إن صح التعبير، فالإنسانُ المتأمل يدركه العجز عن فهم الحياة والموت ولكنه لا يفتأ يتأمل أيضًا!

ثم أتجاوز إلى مرثية أخرى رائعة وهي عينيته في فاتك الملقب بالمجنون، وقد حدثني بعضهم أن أحد متذوقي الشعر ما سمعها ولا قرأها إلا تغرغرت عيناه لحسن معانيها وصدق عاطفتها، وكما أشرت سابقًا فوده لفاتك كان ودًا صحيحًا صادقا، يقول:

الحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَجَمُّلُ يَرْدَعُ وَالدّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ

يَتَنَازَعانِ دُمُوعَ عَينِ مُسَهَّدٍ هَذا يَجيءُ بهَا وَهَذَا يَرْجِعُ

فانظر هذا الدمع الذي يُجريه الحزن على هذا الفقيد المجيد، ثم يدركه التجمُّل والتصبر فيرقى، فهو جارٍ راقٍ تتناوبه هاتان الحالتان جيئةً وذهابا!

ثم يقول بعد أبيات:

تَصْفُو الحَياةُ لجَاهِلٍ أوْ غافِلٍ عَمّا مَضَى فيها وَمَا يُتَوَقّعُ

وَلمَنْ يُغالِطُ في الحَقائِقِ نفسَهُ وَيَسومُها طَلَبَ المُحالِ فتطمَعُ

وهذه كما قلنا في سياق آخر، مما يقول به أهل علم النفس المعاصرون، ومن قرأ لديل كارنيجي مثلا يجده يقول إن سر السعادة هو غلق الباب دون الماضي وتركه، ودون المستقبل وما قد يأتي به، والتركيز فقط على الوقت الحاضر.

وهذه الفكرة متكررة كثيرا في كتب التنمية البشرية الحديثة.

ثم اقرأ معي من آخر ما قال من الرثاء هذه البائية لعمة عضد الدولة البويهي، وليس فيها ما يستحق أن نقف عنده غير هذه الأبيات المتفلسفة المتأملة في الحياة، ولعل أبا الطيب أرادها أن تكون هي لب القصيدة وزبدتها أما الرثاء والمدح فلم يهتم بهما ولعلنا يمكن أن نفهم ذلك فيما قدمنا من رأيه في البويهيين وفي حكام العجم عموما الذين لم يكن يُكِنّ لهم كبيرَ ود:

لا بُــدّ للإنســانِ مــن ضَــجعةٍ لا تَقْلِــبُ المُضْــجَعَ عــن جَنبِــهِ
يَنســى بهــا مــا كــانَ مِــن عُجْبِــهِ وَمَــا أذاقَ المَــوْتُ مــن كَرْبِــهِ
نحــنُ بَنُــو المَــوْتَى فَمَــا بالُنَــا نَعَــافُ مَــا لا بُــدّ مــن شُــرْبِهِ
تَبْخَــلُ أيْــدينَا بِأرْوَاحِنَــا علــى زَمَــانٍ هــيَ مــن كَسْــبِهِ
فَهَــذِهِ الأرْوَاحُ مــنْ جَــوّهِ وَهَــذِهِ الأجْســامُ مِــنْ تُرْبِــهِ
لَــوْ فكّــرَ العاشِــقُ في مُنْتَهَــى حُســنِ الــذي يَســبيهِ لــم يَسْــبِهِ
لــم يُــرَ قَــرْنُ الشّــمسِ في شَــرْقِهِ فشَــكّتِ الأنْفُــسُ في غَرْبِــهِ

والمعنى أنه ما رُئيَّ قرنُ الشمس إلا تأكد غروبُه ولم يشك أحد في ذلك، وهذا قريب من قولهم (من ولد مات).

يَمُــوتُ رَاعــي الضّــأنِ في جَهْلِــهِ مِيتَــةَ جَــالِينُوسَ في طِبّــهِ

وهذا عندي من شواهد اطلاع وثقافة أبي الطيب. وهو كثير في شعره، وقد تناولت بعضه هنا في الحديث عن ثقافته وتنوع مطالعاته.

وَرُبّمَــا زَادَ علــى عُمْــرِهِ وَزَادَ في الأمــنِ علــى سِــرْبِهِ
وَغَايَــةُ المُفْــرِطِ في سِــلْمِهِ كَغَايَــةِ المُفْــرِطِ في حَرْبِــهِ
فَــلا قَــضَى حاجَتَــهُ طالِــبٌ فُــؤادُهُ يَخفِــقُ مِــنْ رُعْبِــهِ

ومن أهم القصائد التي أسميها المفتاحية لشخصية المتنبي، هي رثاؤه لجدته، وهي قصيدة باح فيها بالكثير من مكنونات نفسه، وفلسفته في الحياة، وآماله وآلامه، وأهدافه وخيباته، لذلك سنقف عند أبيات منها مهمة:

ألا لا أُري الأحــداثَ مَــدحًا ولا ذَمّــا فَمــا بَطشُــها جَهــلًا ولا كفُّهــا حِلمَــا

هنا يُبدي أبو الطيب رأيه في الحياة وأحداثها، فلا هي تحدث لانتقام مثلا ولا هي تكف لكرامة شخص عليها أو حلمها عنه، فهي كقوة عمياء تصيب من تصيب وتخطئ من تخطئ على حد قول زهير الشهير متحدثًا عن الموت:

رأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

فكلا الرجلين يرى الحياة والموت قوة عمياء لا تصيب عن سابق إصرار، ولا تخطئ عنه.

عرَفْتُ اللّيالي قَبلَ ما صَنَعَتْ بنا فلَمَا دَهَتْني لم تَزِدْني بها عِلْمَا

وهذا تأكيدٌ لمعرفته بالدهر وخطوبه لطول ما شاهد ما تبتلي به الدنيا أهلَها فلما جاء دورُه لم يجزع ولم تزده علما لأنه علم صروفها قبل هذا.

طَلَبْتُ لها حَظًّا فَفاتَتْ وفاتَني وقد رَضِيَتْ بي لو رَضيتُ بها قِسْمَا

فأصْبَحتُ أسْتَسقي الغَمامَ لقَبرِها وقد كنْتُ أستَسقي الوَغى والقنا الصُّمّا

وكنتُ قُبَيلَ الموْتِ أستَعظِمُ النّوَى فقد صارَتِ الصّغَرى التي كانتِ العظمى

هَبيني أخذتُ الثأرَ فيكِ منَ العِدَى فكيفَ بأخذِ الثّأرِ فيكِ من الحُمّى

وما انسَدّتِ الدّنْيا عليّ لضِيقِهَا ولكنَّ طَرْفًا لا أراكِ بهِ أعمَى

في هذه الأبيات الرائعة، يقول أبو الطيب إنه ذهب مذاهبَ شتى في البلاد بحثًا عن الحظ، ولك أيها القارئ الكريم أن تفسر هذا الحظ بما شئت، فقد يكون قصد بحثه عن الولاية، أو المجد، أو شرف النسب العلوي أو غيره، لكنه رغم البحث والمغامرة فاته هذا الحظ المنشود وفاتته جدته أيضًا، وقد رضيت به قسما وحظا ولم تكن تريد إلا أن يبقى معها لكنه لم يرض ذلك بل إن شعلة البحث عن المجد والرياسة كانت أقوى.

ولَوْ لمْ تَكُوني بِنْتَ أكْرَمِ والِدٍ لَكانَ أباكِ الضّخْمَ كونُكِ لي أُمّا

لَئِنْ لَذّ يَوْمُ الشّامِتِينَ بيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مني لأنْفِهِم رَغْمَا

تَغَرّبَ لا مُسْتَعْظِمًا غَيرَ نَفْسِهِ ولا قابِلًا إلاّ لخالِقِهِ حُكْمَا

ولا سالِكًا إلاّ فُؤادَ عَجاجَةٍ ولا واجِدًا إلّا لمَكْرُمَةٍ طَعْمَا

يَقُولونَ لي ما أنتَ في كلّ بَلدَةٍ وما تَبتَغي؟ ما أبتَغي جَلّ أن يُسْمى

ولكِنّنـــــي مُسْتَنْـــــصِرٌ بذُبَابِـــــهِ ... ومُرْتكِـبٌ في كـلّ حـالٍ بـه الغَشـمَا
وجاعِلُـــهُ يَـــوْمَ اللّقـــاءِ تَحِيّتـــي ... وإلاّ فلَسْـتُ السـيّدَ البَطَـلَ القَرْمَـا
إذا فَـلّ عَزْمـي عـن مـدًى خـوْفُ بُعـده ... فأبْعَـدُ شـيءٍ ممكـنٌ لـم يَجِـدْ عزْمَـا
وإنّـــي لَمِـــنْ قَـــوْمٍ كـــأنّ نُفُوسَـــهُمْ ... بهـا أنَـفٌ أن تسـكنَ اللّحـمَ والعَظمَـا
كـذا أنَـا يـا دُنْيـا إذا شِـئْتِ فـاذْهَبي ... ويـا نَفـسِ زيـدي في كرائهِهـا قُـدْمَا
فـلا عَبَـرَتْ بـي سـاعَةٌ لا تُعِـزّني ... ولا صَـحِبَتْني مُهجَـةٌ تقبـلُ الظُّلْمَـا

في هذا الأبيات يواصل أبو الطيب ثناءه على جدته التي هي بنت أكرم والد، وحتى لو لم تكن كذلك فيكفيها أن حفيدها المتنبي! وهو بذلك يقلب الأنسابَ العربية جميعا رأسًا على عقب، فقد صار الفرع مفخرًا للأصل! وهذا مثلَ قول الآخر:

قالوا أبو الصقر شيبان قلت لهم ... كلا لعمري، ولكن منه منيبانُ

ثم يواصل بَوحَه بهمومه وأحلامه وتطلعاته وما يلاقي من دهره ومعاصريه من كيد وحسد، لكنه مع ذلك يهددهم ويتوعدهم أقوى الوعيد وأقساه وأمرَّه، وأنه معتمد على ذباب سيفه فهو تحيته التي يلقاهم بها.

وسنقف بك عزيزي القارئ عند بعض الأبيات من قصائد متفرقة تُظهر معاناة الرجل مع ما يرميه به الدهر وأهلُه من نكبات وما يعتمل في نفسه من أحلام وطموح.

اقرأ معي مثلا قوله من قصيدة:

يُحـــاذِرُني حَتْفـــي كـــأنّيَ حَتْفُـــهُ ... وتَنْكُـــزُني الأفعَـــى فيَقتُلُهـــا سُـــمّي
طِــوالُ الرُّدَيْنِيّـــاتِ يَقْصِـــفُها دَمـــي ... وبِـيضُ السُّـرَيجيّاتِ يَقطَعُهـا لحمـي
برَتْنـي الـسُّرَى بـرْيَ المُـدى فرَدَدْنَنـي ... أخَـفَّ علـى المركـوبِ مـن نَفَـسي جِرْمـي
كـأنّي دحـوْتُ الأرضَ مـن خبرتـي بهـا ... كـأنّي بَنـى الإسـكَندرُ السـدّ مـن عزْمـي

***

ثم انظر هذه الأبيات من قصيدته المشهورة هذه:

أُطاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوارِسِها الدّهْرُ وَحيدًا، وما قَوْلي كذا ومَعي الصّبرُ

ويكفيك الشطر الأول حين تتمعن فيه، لتعذر هذا الرجل في حقده على أهل عصره، فهو يُطاعن خيلا الدهرُ كلُّه بعضُ فوارسها!

ثم يواصل وصف أخلاقه وشجاعته واقتحامه:

وأشْجَعُ مني كلَّ يومٍ سَلامَتي وما ثَبَتَتْ إلاّ وفي نَفْسِها أمْرُ
تَمَرّسْتُ بالآفاتِ حتى تركْتُهَا تَقولُ أماتَ المَوْتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ؟
وأقْدَمْتُ إقْدامَ الأتيّ كأنّ لي سِوَى مُهجَتي أو كان لي عندها وِتْرُ
ذَرِ النّفْسَ تأخذْ وُسعَها قبلَ بَينِها فمُفْتَرِقٌ جارانِ دارُهُما العُمْرُ

فالعمر قصير والحياة زائلة فخذ بحظك منها ما دمت قادرا ولا تبال بشيء.

ولا تَحْسَبَنّ المَجْدَ زِقًّا وقَيْنَةً فما المَجدُ إلاّ السّيفُ والفتكةُ البِكرُ
وتَضريبُ أعناقِ المُلوكِ وأن تُرَى لكَ الهَبَواتُ السّودُ والعسكرُ المَجْرُ

وأذكر أني قرأت مرة لبعضهم أنه لو كان غير المتنبي قائل هذا البيت لقال وتضريب أعناق الرجال.. ولكن المتنبي لا يرى كفئا له إلا الملوك، والغريب عندي أن يُنشد هذا أمام أمير أو ملك! فانظر شجاعة الرجل وضيقه بأهل دهره الذين بخسوه حقه و تآمروا عليه، ويتمادى في ذلك في الأبيات التي بعد هذا فيقول:

إذا الفضْلُ لم يَرْفَعكَ عن شكرِ ناقصٍ على هِبَةٍ فالفَضْلُ فيمَن له الشّكْرُ
ومَنْ يُنفِقِ السّاعاتِ في جمعِ مالِهِ مَخافَةَ فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الفَقْرُ
وكم من جِبالٍ جُبتُ تَشهَدُ أنّني الـ ـجِبالُ وبَحْرٍ شاهِدٍ أنّني البَحْرُ
وجَنّبَني قُرْبَ السّلاطِينِ مَقْتُهَا وما يَقْتَضِيني مِن جَماجِمِها النَّسرُ
وإنّي رأيتُ الضُّرّ أحسَنَ مَنظَرًا وأهْوَنَ مِنْ مَرْأى صَغيرٍ بهِ كِبْرُ

فهو يمقت قرب هؤلاء الملوك، وكبرهم بغير حق فهو يرى نفسه مثلهم بل أرفع قدرًا، مثل قوله:

وفؤادي من الملك وإن كا ... ن لساني يُرى من الشعراء!

وسنقف قليلا عند أبيات من لاميته المنسرحية الشهيرة، ففيها يتناول قضية النسب فيقول:

أنا ابنُ مَن بعضُهُ يَفُوقُ أبَا الـ ... ـباحِثِ والنَّجلُ بعضُ من نَجلَهْ

وإنّما يَذْكُرُ الجُدودَ لَهُم ... مَنْ نَفَرُوهُ وأنْفَدوا حِيَلَهْ

أي أن من يفاخر بالجدود هو فقط من عجز ونفدت حيلُه فلم يبق له إلا الفخر بالغابرين واستدعاءُ الماضي وأهلِه، لأن حاضره لا يسعفُه! وأرى أن هذين البيتين يصلحان لحالنا المعاصر فعالمنا العربي العاجز والمتأخر علميا وتقنيا غارق في الماضي وأمجاده الغابرة، لأن حاضره بائس لا مجد فيه، فترى أغلبنا يستدعي عصور النهضة الإسلامية وما كان فيها من تقدم أيامَ عصورها الذهبية، وما ذلك إلا لأن الحاضر لا مجد فيه.

ونرجع إلى أبي الطيب مع هذه الأبيات الرائعة:

فَخْرًا لعَضْبٍ أرُوحُ مُشْتَمِلَهْ ... وسَمْهَرِيٍّ أرُوحُ مُعْتَقِلَهْ

وليَفْخَرِ الفَخْرُ إذْ غَدَوْتُ بِهِ ... مُرْتَدِيًا خَيْرَهُ ومُنْتَعِلَهْ

أنا الذي بَيّنَ الإلهُ بِهِ الـ ... ـأقْدارَ والمَرْءُ حَيْثُما جَعَلَهْ

فهو هنا يعتبر نفسه مقياسا يُبين الله به أقدارَ الناس، ومنازلَهم، فمن كان كريما عظيمَ القدر بان ذلك في تعامله مع أبي الطيب وبان أيضا في شعره. فهو:

جَوْهَرَةٌ تَفْرَحُ الشّرافُ بهَا ... وغُصّةٌ لا تُسِيغُها السّفِلَهْ

إنّ الكِذابَ الذي أُكَادُ بِهِ ... أهْوَنُ عِنْدي مِنَ الذي نَقَلَهْ

فالكذب والنميمة أحقر عند المتنبي ممن يمشي بهما!

فَلا مُبَالٍ ولا مُداجٍ ولا ... وانٍ ولا عاجِزٌ ولا تُكَلَهْ

ودارِعٍ سِفْتُهُ فَخَرَّ لَقًى ... في المُلْتَقَى والعَجاجِ والعَجَلَهْ

وسامِعٍ رُعْتُهُ بقافِيَةٍ ... يَحارُ فيها المُنَقِّحُ القُوَلَهْ

وَرُبّمـا أُشْـهِدُ الطّعـامَ مَعـي مَـن لا يُساوي الخبزَ الـذي أكَلَـهْ
ويُظْهِـرُ الجَهْـلَ بـي وأعْرِفُـهُ والـدُّرُّ دُرٌّ بـرَغْمِ مَـنْ جَهِلَـهْ

وقد والله صدق، فهل ضر شعر المتنبي جهلُ بعض أهل دهره به؟ وها نحن نتدارسُه بعد أكثر من ألف سنة!

ثم اقرأ معي هذه الأبيات من قصيدة له:

يَهُـونُ علـى مِثْلـي إذا رامَ حاجَـةً وُقـوعُ العَـوالي دونَهـا والقَواضِـبِ
كَثيـرُ حَيَـاةِ المَـرْءِ مِثْـلُ قَليلِهَـا يَـزولُ وبـاقي عَيْشِـهِ مِثْـلُ ذاهِـبِ

وتأملْ هذه الفلسفةَ والنظرة الثاقبة لتفاهة الحياة ونسبيتها، وتَساوي جميع أحوالها رغم التفاوت السطحي الظاهر،

ثم ما أحسن قوله:

حَمَلْـتُ إلَيْـهِ مِـنْ لِسَـاني حَديقَـةً سقاها الحجا سقيَ الرّياضِ السّحائِبِ

فهذه الصورة بديعة، وطبعا هو تصرَّفَ في ترتيب الشطر الأخير فقدّم الرياض وحقها التأخيرُ لأن المعنى سقي السحائب للرياض. ...

وأخيرًا سنقف مع إحدى أروع قصائده وأكثرها تعبيرًا عن خلجات نفسه ويمكن أن نستشف الكثيرَ عن حياته من خلال تأملها وتذوقها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَـيسَ التّعَلّـلُ بالآمَـالِ مِـن أرَبـي وَلا القَناعَـةُ بـالإقْلالِ مِـن شِـيَمي
وَلا أظُـنّ بَنَـاتِ الـدّهْرِ تَترُكُنـي حتـى تَسُـدّ علَيهـا طُرْقَهـا هِمَمـي
لُـمِ اللّيـالي التـي أخْنَـتْ علـى جِدَتي برِقّـةِ الحـالِ وَاعـذِرْني وَلا تَلُـمِ

وفي البيت الأخير يوضح لنا عذره في كل ما أتى في حياته، فالخطوب والدواهي هي التي اضطرته لكثير مما قام به...

ثم يعود إلى ديدنه من التجمل والشدة وعدم الاستسلام لخطوب الدهر فيقول:

سيَصحَبُ النّصلُ مني مثلَ مَضرِبِه وَيَنجَلي خَبَري عن صِمّةِ الصَّمَمِ
لقد تَصَبّرْتُ حتى لاتَ مُصْطَبَرٍ فالآنَ أقْحَمُ حتى لاتَ مُقْتَحَمِ

لأتــرُكَنّ وُجــوهَ الخَيْــلِ ســاهِمَةً وَالحـرْبُ أقـوَمُ مِـن سـاقٍ علـى قَـدَمِ
رِدِي حِياضَ الـرّدى يـا نفسِ وَاترُكـي حيـاضَ خـوْفِ الـرّدى للشّـاء والـنَّعَمِ
إنْ لـم أذَرْكِ علـى الأرمـاحِ سـائِلَةً فـلا دُعيـتُ ابـنَ أُمّ المَجـدِ والكَـرَمِ
أيَمْلِـكُ المُلْـكَ وَالأسـيافُ ظامِئَـةٌ وَالطّيـرُ جائِعَـةٌ لَحْـمٌ علـى وَضَـمِ
مَـنْ لَـوْ رَآني مـاءً مـاتَ مِـنْ ظَمَـإٍ وَلَـوْ عَرَضْـتُ لـهُ في النّـوْم لـم يَـنمِ

فهؤلاء الملوك يخافونه ويخشونه وهم أذلاء أمامه، حتى إنه لو عرض لهم في النوم ما ناموا، ومع ذلك هم ملوك وهو مجرد شاعر! وهذا المعنى متكرر كما رأينا معك، فهو يرى الدهر يُعطي من لا يستحق، فهو غير عادل ولا منصف، لذلك فـ:

ميعـادُ كـلّ رَقيـقِ الشّـفرَتينِ غَـدًا ومَـن عصَـى مـن ملوكِ العُـرْبِ والعجمِ
فـإنْ أجـابُوا فَمـا قَصـدي بهَـا لَهُـمُ وَإنْ تَوَلّـوْا فَمَـا أرْضَـى لَهـا بهـمِ

ومن الجوانب التي أغفلها الكثيرون ممن تناولوا أدب الرجل، قضية السخرية اللاذعة في أشعاره، وهو موضوع يستحق البحث والتأمل، ولم أقف على بحث فيه، فقد طغى ذكر الرجل في الفخر والمدح وذم الدهر وأهله على جوانب أخرى تستحق البحث والدراسة، وقد حفظ لنا ديوان أبي الطيب أبياتا غرضُها الوحيد السخرية. فضلا عن السخرية والتهكم المتناثر في قصائده الطوال، والأبيات تصف شخصين أخرقين رآهما الشاعر يتباهيان بقتل جرذ كبير، فتصور هو ما حدث ثم صوره لنا قائلا:

لقَــدْ أصْـبَحَ الجُـرَذُ المُسْـتَغِيرُ أسـيرَ المنَايـا صَـريعَ العَطَـبْ

فهذا الجرذ أغار كما يغير الأبطال والكماة الأشداء! لكن هذين البطلين كانا له بالمرصاد،

رَمَــاهُ الكِنَــانيُّ وَالعَــامِرِيُّ وَتَــلاّهُ للوَجْــهِ فِعْـلَ العَـرَبْ

فقد رمياه وصارعاه أيضا حتى ألقياه أرضا كما تفعل العرب الأقحاح في الحرب الضروس/

كِـــلا الــــرَّجُلَينِ اتّلَـــى قَتْلَـــهُ ... فَأَيُّكُمَـــا غَـــلّ حُـــرَّ السَّـــلَبْ

كلاهما قتله، فأيهما يا ترى أخذ الغنائم من هذا الجرذ العظيم؟ فقد كان من عادة المتقاتلين أن يسلبوا المغلوب ويأخذوا ما بحوزته من غنائم!

وَأَيُّكُمَـــا كَـــانَ مِـــنْ خَلْفِـــهِ ... فَـــإِنّ بِـــهِ عَضَّـــةً فِي الـــذَّنَبْ

... فالأبيات كما ترى في قمة السخرية والتهكم.

وفي لاميته البديعة التي مطلعها:

ذي المَعَـــالي فلْيَعْلُـــوَنْ مَـــن تَعَـــالى ... هَكَـــــذا هَكَـــــذا وَإلاّ فَــــلا لا

نراه يسخر كعادته من ملك الروم، ويشبه القلعة التي بنى سيفُ الدولة من غيظها له بشيء نابت في وجهه كلما رام اقتلاعه زاد..

أَقْلَقَتْـــهُ بَنِيّـــةٌ بَـــينَ أُذْنَيْـــــهِ ... وَبَـــانٍ بَغَـــى السّـــماءَ فَنَـــالا

كُلّمـــا رَامَ حَطّهـــا اتّسَـــعَ البَنْـــيُ ... فَغَطّـــى جَبينَـــهُ وَالقَـــذالا

ثم اقرأ معي هذه الأبيات البديعة:

قَصَـــدوا هَـــدْمَ سُـــورِهَا فَبَنَـــوْهُ ... وَأَتَـــوْا كَـــيْ يُقَـــصّرُوهُ فَطَـــالا

رُبّ أمْـــرٍ أتَـــاكَ لا تَحْمَـــدُ الفَعّـــالَ ... فيـــهِ وَتَحْمَـــدُ الأفْعَـــالا

أخـــذوا الطُّـــرْقَ يَقطَعُـــونَ بهـــا الرّسْـــلَ ... فكَـــانَ انقِطاعُهَـــا إرْسَـــالا

مَـــا مَضَـــوْا لـــم يُقـــاتِلُوكَ وَلَكِـــنّ ... القِتـــالَ الـــذي كَفـــاكَ القِتَـــالا

وَالثّبـــاتُ الـــذي أجـــادوا قَـــديمًا ... عَلّـــمَ الثّـــابِتِينَ ذا الإجْفَـــالا

طبعا الأبيات غير متوالية، وهي جميلة بديعة كلها.

ونجد في قصيدته اللامية المشهورة في وصف إحدى معارك سيف الدولة نجد هذه السخرية من ملك الروم الذي هرب وترك ابنه للموت! يخاطبه أبو الطيب قائلًا:

لَعَلّـــكَ يَوْمًـــا يـــا دُمُسْـــتُقُ عَائِـــدٌ ... فَكَـــمْ هـــارِبٍ مِمّـــا إلَيْـــهِ يَـــؤولُ

نَجَـــوْتَ بإحْـــدَى مُهْجَتَيْـــكَ جرِيحـــةً ... وَخَلّفْـــتَ إحـــدى مُهجَتَيـــكَ تَســـيلُ

أَتُسْلِمُ للخَطّيّةِ ابنَكَ هَارِبًا   وَيَسْكُنَ في الدّنْيا إلَيكَ خَليلُ

يقول له ربما ستعود يوما لما هربت منه الآن، وإن كنت نجوت بنفسك بالهرب، فقد خلفت نفسك الأخرى أي ابنك للموت! فكيف بعد هذا يستأنس بك خليل أو يأمنك صديق؟

وفي قافيته نراه أيضًا يعلق على رسول ملك الروم واستسلامه واكتفائه بالمراسلات بدل السلمية:

ولَمْ يَثْنِكَ الأعْداءُ عَنْ مُهَجاتِهِمْ   بمِثْلِ خُضُوعٍ في كَلامٍ مُنَمَّقِ

وَكُنْتَ إذا كاتَبْتَهُ قَبْلَ هذِهِ   كَتَبْتَ إليْهِ في قَذالِ الدّمُسْتُقِ

فأنت تكتب إليهم في قفا الدمستق أي بالجروح فيه من أثر الحرب، وهم يكتبون متوسلين مستسلمين!

وهذا مثل قوله:

دُرُوعٌ لمَلْكِ الرّومِ هذي الرّسائِلُ   يَرُدّ بهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيُشَاغِلُ

فهو يحتمي بالمراسلات فهي كالدروع له. وفي هذه القصيدة يسخر أبو الطيب من الشعراء كعادته قائلًا:

أفي كلّ يوْمٍ تحتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ   ضَعيفٌ يُقاويني قَصِيرٌ يُطاوِلُ

لِساني بنُطْقي صامِتٌ عنهُ عادِلٌ   وَقَلبي بصَمتي ضاحِكٌ منهُ هازِلُ

وَأتْعَبُ مَنْ ناداكَ مَنْ لا تُجيبُهُ   وَأغيَظُ مَنْ عاداكَ مَن لا تُشاكلُ

وَما التّيهُ طبّي فيهِمِ غيرَ أنّني   بَغيضٌ إليّ الجاهِلُ المُتَعَاقِلُ

في رحلة المتنبي اليائسة إلى مصر، بدأ بقصيدته اليائية التي مطلعها:

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا

وفي هذه القصيدة كغيرها من القصائد الكافوريات، إشاراتٌ واضحة ويكفيك المطلع، ففيه بغيةُ الباحث عن حقيقة يأس المتنبي في تلك الفترة.

وقد أوضح الأوائل هذه المعاني في شروح الديوان، وكذلك تعليقات ابن جني،

وهو مَن قيل إن المتنبي قال إنه أعلم بشعره منه، وفي إحدى الروايات أن المتنبي لما قال في بائيته لكافور التي مطلعها:

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ

وما طربي لما رأيتك بدعةً   لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ

قال له ابن جني: ما زدت على أن جعلته أبا زَنَّة! وهي كنية القرد، فتبسم أبو الطيب.

وفي هذا التبسم إقرار من أبي الطيب بما قال ابن جني.

ولا شك عندي في أن كرهَ المتنبي واحتقارَه للأعاجم الذين استولوا على الدولة العربية الإسلامية بل واحتقاره لهذا الأسود خاصة كان باديًا للعيان ويمكنك ملاحظة ذلك جليًا في قصائده له دون كبير عناء.

وقد أشار هو لذلك في قوله في هجائه بعد ذلك:

وَلَوْلا فُضُولُ النّاسِ جِئْتُكَ مادحًا   بما كنتُ في سرّي بهِ لكَ هاجِيَا

وفي نونيته له على وجه الخصوص الكثير من التهكم المبطن، وقد تناوله الأقدمون وفي ما قالوا الكفاية:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلّ لِسَانِ   وَلَوْ كانَ مِنْ أعدائِكَ القَمَرَانِ

وَلله سِرٌّ في عُلاكَ وَإنّمَا   كَلامُ العِدَى ضَرْبٌ منَ الهَذَيَانِ

أتَلْتَمِسُ الأعداءُ بَعدَ الذي رَأتْ   قِيَامَ دَليلٍ أوْ وُضُوحَ بَيَانِ؟

ففي هذه الأبيات تلك القراءات المتعددة الأوجه، ولا نحتاج تبيانًا أكثر..

ولا يفوتك أيها القارئ الكريم أن أبا الطيب لا يمكنه إلا أن يشير من بعيد جدا عما يختلج في نفسه، فهو قبل كل شيء ضيف عند الرجل ولا يأمن غائلتَه وهو غريب الدار لا سندَ ولا مُعين له، ثم إنه لم يقنط تمامًا مما جاء به إلى مصر وهو الولاية، التي صرح بها أكثر من مرة، مثلا انظر قوله:

وَغَيرُ كَثِيرٍ أنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ   فَيَرْجعَ مَلْكًا للعِرَاقَينِ وَالِيَا

وكذلك قوله في البائية التي مرت بنا:

أبـا المِسْـكِ هـل في الكـأسِ فَضْـلٌ أنالُـه   فــإنّي أُغَنّــي منــذُ حــينٍ وَتَشــرَبُ

وَهَبْــتَ علــى مِقــدارِ كَفّــيْ زَمَانِنَــا   وَنَفــسِي علــى مِقــدارِ كَفّيــكَ تطلُــبُ

إذا لــم تَــنُطْ بــي ضَــيْعَةً أوْ وِلايَــةً   فَجُــودُكَ يَكسُــوني وَشُــغلُكَ يســلبُ

فأنت ترى التصريح تارة والتلميح تاراتٍ أخرى.. وفي بائيته الأخرى اسمع معي قوله وقد بدا اليأس يتسلل إلى قلبه:

أُقِــلُّ سَــلامي حُــبَّ مــا خَــفَّ عَــنكُمُ   وَأســكُتُ كَيمَــا لا يَكــونَ جَــوَابُ

وَفي الـــنّفسِ حاجَــاتٌ وَفيــكَ فَطَانَــةٌ   سُــكُوتي بَيَــانٌ عِنْــدَها وَخِطــابُ

وفي هذه القصيدة الرائعة الكثير مما يستحق أن أقف عنده، فتأملها ففيها يبوح الرجل بمكنونات نفسه تصريحًا حينًا وتلميحًا أحيانًا أخرى.

وهناك منحىً آخر مهمٌ وهو علاقته بالشعراء، ولكي نفهم علاقة أبي الطيب بالشعراء الآخرين، يجب أن نفهم أولًا أن وظيفة ومكانة الشعر في هذا العصر قد اعتورها وأصابها ما أصاب هذا العصر جملةً من ضعف وانحطاط، فقد اختُزلت وظيفة الشاعر في إلهاء الخلفاء والأمراء ومدحهم دون كرامة ولا حياء وصار الشعر للتكسب المحض.

ومن المهم أيضًا أن نفهم أن الشعر كان سلاحًا حتى ضد أبي الطيب نفسِه!

فقد جنّد أعداؤه وحسّادُه الشعراءَ للنيل منه وإلصاق التُّهم به، فكلما افتخر بشيء ألصقوا به ضده، فرووا الروايات والحكايات عن بخله وجبنه حين رأوه يتغنى بالكرم والشجاعة!

وسنورد لك أمثلة من شعره متطايرة في قصائده يتحدث عن الشعراء الآخرين:

يقول في لاميته الشهيرة لبدر بن عمار:

أَرى المُتَشــاعِرينَ غَــروا بِــذَمّي   وَمَــن ذا يَحمَــدُ الــداءَ العُضــالا

وَمَــن يَــكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مَــريضٍ   يَجِــد مُــرًّا بِــهِ المــاءَ الــزُلالا

ويقول في نونيته له أيضًا:

وَانْــهَ المُشــيرَ عَلَيــكَ فيَّ بِضِــلَّةٍ ... فــالحُرُّ مُمْــتَحَنٌ بــأَوْلادِ الزِّنَــى
ومَكايِــدُ السُّــفَهاءِ واقِعَــةٌ بهِــمْ ... وعَــداوَةُ الشُّــعَراءِ بِـئْسَ المُقْتَنـى
لُعِنَــتْ مُقارَنَــةُ اللّئــيمِ فإنّهَــا ... ضَـيْفٌ يَجـرُّ مـنَ النّدامـةِ ضَـيْفَنَا
غَضَــبُ الحَسُــودِ إذا لَقيتُــكَ راضِــيًا ... رُزْءٌ أخَــفُّ علــيّ مِــنْ أنْ يُوزَنَــا

كما أن أبا الطيب عادة ما يقارن بين ما يقوله هو من بديع الشعر وبين ما قيل للممدوح قبله مما لا يراه مستحقًا لأي شيء، بل نجده في أولى قصائده لسيف الدولة يقول إنه غضب لأن صفاتِ سيفِ الدولة الكريمة لم تجد من يصفها وصفًا لائقًا، فيقول:

غَضِــبْتُ لَــهُ لمّــا رَأيْــتُ صِــفاتِهِ ... بِــلا واصِــفٍ والشِّــعرُ تهـذي طَماطِمُـهْ

وانظر أيضا إلى قوله لأبي العشائر:

لــم تَــزَلْ تَســمَعُ المَـديحَ ولكِــنّ ... صَــهيلَ الجِيــادِ غَيــرُ النُّهــاقِ

فالمُدّاح الآخرون مني بمنزلة الحمير من عتاق الخيل، وكذلك لفتت انتباهي عند أبي الطيب هذه المقارنة بين جودة ما يقول من الشعر مع جودة خصال الممدوح وأفعاله، فانظر إلى قوله لسيف الدولة:

لــكَ الحَمـدُ في الـدُرِّ الّـذي لِـيَ لَفظُـهُ ... فَإِنَّــكَ مُعطيــهِ وَإِنِّــيَ نــاظِمُ

وكذلك قوله في آخر قصيدة نظمها:

وكــم طَـرِبِ المَسـامعِ لـيس يَـدري ... أيَعْجَــبُ مِــنْ ثَنــائي أمْ عُلاكَــا

كما أنه يوضح أن ممدوحه عالم بالشعر واللغة وأن إنشاد الشعر أمامه شرف لا يستطيعه كل الشعراء.. فتأمل قوله لسيف الدولة مثلًا:

عَلِــيمٌ بأسـرارِ الـدّيَانَاتِ وَاللُّغَــى ... لَــهُ خَطَـرَاتٌ تَفضَـحُ النّـاسَ والكُتُبَـا

ويعجبني هذا البيت من هذه القصيدة خصوصًا:

وَمــا الفَـرْقُ مــا بَـينَ الأنـامِ وَبَيْنَـهُ ... إذا حَـذِرَ المحـذورَ وَاستَصْـعبَ الصّـعبَا؟

وقوله في قصيدة أخرى لأمير آخر:

لا تَجْسُرُ الفُصَحاءُ تُنشِدُ ههُنا بَيْتًا ولكِنّي الهِزَبْرُ البَاسِلُ

وتأمل قوله البديع هنا:

مَلِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لَدَيْهِ يَضَعُ الثّوْبَ في يَدَيْ بَزّازِ
ولَنا القَوْلُ وهْوَ أدْرَى بفَحْواهُ وأهْدَى فيهِ إلى الإعْجازِ
ومِنَ النّاسِ مَن يَجوزُ عَلَيْهِ شُعَراءٌ كأنّهَا الخازِبَازِ
ويَرَى أنّهُ البَصيرُ بِهَذا وهْوَ في العُمْيِ ضائِعُ العُكّازِ
كلُّ شِعْرٍ نَظيرُ قائِلِهِ فِيكَ وعَقلُ المُجيزِ عَقلُ المُجازِ

ولعل أوضح مثال على علاقته بالآخرين ما قاله في داليتيه المشهورتين لسيف الدولة، حيث يقول في أولاهما:

أجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شِعرًا فإنّمَا بشِعري أتَاكَ المادِحونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كلّ صَوْتٍ غَيرَ صَوْتي فإنّني أنَا الطّائِرُ المَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصّدَى

ويقول في الأخرى:

خَليلَيّ إنّي لا أرَى غيرَ شاعِرٍ فَلِمْ منهُمُ الدّعوَى ومني القَصائِدُ
فَلا تَعْجَبَا إنّ السّيُوفَ كَثيرَةٌ وَلكِنّ سَيفَ الدّوْلَةِ اليَوْمَ واحِدُ

ويمكنك تدبر هذه المعاني في قصائده الأخرى وفيما نقلتُ لك كفاية، وأختم الحديث عن علاقته بالشعراء الآخرين بهذه الأبيات من لاميته التي أعتبرها شخصيًا من أجود ما كتب المتنبي بل مما كُتب في الشعر العربي عموما:

أنَا السّابِقُ الهادي إلى ما أقُولُهُ إذِ القَوْلُ قَبْلَ القائِلِينَ مَقُولُ
وَما لكَلامِ النّاسِ فيمَا يُرِيبُني أُصُولٌ ولا للقائِليهِ أُصُولُ
أُعَادَى على ما يُوجِبُ الحُبَّ للفَتى وَأهْدَأُ وَالأفكارُ فيّ تَجُولُ
سِوَى وَجَعِ الحُسّادِ داوِ فإنّهُ إذا حلّ في قَلْبٍ فَلَيسَ يحُولُ
وَلا تَطْمَعَنْ من حاسِدٍ في مَوَدّةٍ وَإنْ كُنْتَ تُبْديهَا لَهُ وَتُنيلُ

أغلب هذه التأملات، ولكن بزيادة وتوسع أكثر هناك، كنتُ سجلتها خلال حلقات من البث المباشر، وهي موجودة على الإنترنت على العنوان:

https: //youtu.be/t4d3oKVFJwk

وسأختم مقالاتي عنه بهذه القطعة التي ألقيتها بمناسبة ذكرى وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:

طموحُ عُلاكَ يختصرُ الكرامَةْ ... وتاريخَ البطولةِ والشهامَةْ
وشِعرُك صارمٌ من شفرتيه ... نما عشقُ السيادة والزعامَةْ
فعلَّمنا أصول المجد فيه ... وقامت في الزمان به القيامَةْ
وأنت طموحُ دهرٍ مستفزٍ ... لكلِّ كرامةٍ وعُلُوٍّ هامَةْ
فآثرتَ المعالي والعوالي ... وآثر غيرُك الأدنى السلامَةْ
وكم لك في زمانك من ذمام ... فما للدهر لا يرعى ذمامَةْ
وفي عينيك حزنٌ سرمديٌ ... كأن وراءه أمسى أمامَةْ
وأنت الطائر المحكيُّ فيه ... وأنت مطهّمٌ أرخوا زمامَةْ
تذمُّ أهيله الفانين فيه ... وتُكرمُ بالمديح به كِرامَةْ
ولم تقنعْ بدون النجم فيه ... وما كلٌّ رأى نجمًا فرامَةْ
وأنت بعرش شعرك مستقلٌّ ... نداماك المذاكي لا المدامَةْ
وأنت بشعرك الأعلى مقامًا ... ومن حفظ العلى حفظت مقامَةْ



مع شيخ المعرّة

سأقف معك قليلا على رائعة شيخ المعرّة المشهورة في رثاء شيخ حنبلي، والمعري من العباقرة القلائل الذين طبقوا في حياتهم الواقعية ما بشروا به في أدبهم وتراثهم المعنوي، فكان لرحمته بالحيوان مثلا لا يأكل اللحم، كما كان متقشفا في حياته عموما ثم حبس نفسه في داره عشرات السنين، فلقب "رهين المحبسين" والحديث عن علمه بالفلسفة واللغة والشعر وغير ذلك حديث يطول ولا حاجة بنا إليه، لكن سنقف متأملين متذوقين عند أبيات من هذه القصيدة البديعة، ويمكنك عزيزي القارئ أن تواصل في قراءة أعماله الأخرى، كرسالة الغفران التي سبقت (جحيم دانتي)، أو ديوانيه سقط الزند واللزوميات، وكلها أعمال رائعة تُظهر عبقريته وتميزه، وقد تعرفت كثيرًا على أبي العلاء عبر قراءة أعمال عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، فقد كان مولعًا بأبي العلاء، وكانت رسالته للدكتوراه عنه، وألف عنه أيضًا (مع المعري في سجنه)، وكان شديد الإعجاب به وحُق له ذلك.

والمعري أيضا معجب جدا بأبي الطيب حتى إنه سمّى شرحه ديوانَه (**بمعجز أحمد**)، وفيه من الإشارة ما فيه، كما أعجبني اختياره أيضا لعناوين شروحه الأخرى، فسمّى شرحَه لديوان أبي تمام "**ذكرى حبيب**" وأبو تمام اسمه حبيب، وسمى شرحَه لديوان البحتري "**عبث الوليد**".

نعود إلى قصيدتنا، يقول شيخ المعرة:

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعْتِقادي نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنّمُ شادِ

وشَبِيهٌ صَوْتُ النّعيّ إذا قِيـ سَ بِصَوْتِ البَشيرِ في كلّ نادِ

أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمَامَةُ أمْ غَنَّت؟..

فانظر كيف بدأ القصيدة ببيان نسبية الأشياء في الدنيا وتقاربها، فالبكاء مثل الغناء كلهما غير مجد وبلا فائدة، والحزن لا يختلف كثيرا عن الفرح، ثم تأمل سؤاله هذا عن الحمامة، هل تبكي أم تتغنى؟ والحقيقة أن المقصود بالسؤال حسب رأيي هو بيان ما يسبغه الإنسان من مشاعره الخاصة على الأحداث الخارجية، فيفسرها تبعا

لخلجات نفسه، فإن كان فرحًا قال إن الحمام يغني معه، وإن كان حزينًا قال إن الحمام يبكي لحزنه وكآبته! والحقيقة غيرُ ذلك كله، ولذلك ترك أبو العلاء السؤال معلقًا بلا إجابة قاطعة ككل الأسئلة الفلسفية.

صَاحِ هَـذِي قُبُورُنـا تَمْـلأ الـرّحْـ بَ فـأينَ القُبُـورُ مِـنْ عَهـدِ عـادِ
خَفِّـفِ الـوَطْء مـا أظُـنّ أدِيـمَ الـ أرْضِ إلاّ مِـنْ هَـذِهِ الأجْسـادِ

فمن رأى تتابع الأموات أجيالا بعد أجيال منذ بدء الخليقة أيقن أن هذا التراب إنما هو من الموتى كما أن الموتى أصلا من تراب!

ويدعو الشيخ الرحيم إلى التواضع والتخفيف عند التعامل مع هذه الأرض التي هي من أجساد آبائنا وأجدادنا.

وقَبِـيحٌ بنَـا وإنْ قَـدُمَ العَهْـ دُ هَـوَانُ الآبَـاءِ والأجْـدادِ
سِـرْ إنِ اسْـطَعتَ في الهَـوَاءِ رُوَيـدًا لا اخْتِيـالًا عَلَـى رُفَـاتِ العِبـادِ
رُبّ لَحْـدٍ قَـدْ صَـارَ لَحْـدًا مـرارًا ضَـاحِكٍ مِـنْ تَـزَاحُمِ الأضْـدادِ

هنا يواصل المعري بيان فكرة أن احترام التراب الذي إنما هو في الحقيقة آباؤنا وأجدادنا وهو مصيرنا نحن أيضًا، ثم يصور هذه الصورة البديعة، فكم من قبر قد سُكن من طرف عدة أشخاص؟ وتوالى عليه الموتى؟ وكأن هذا القبر يضحك ويهزأ من تباعد وتضاد ساكنيه! ويعجب من تزاحم الملك مع السوقة والغني مع الفقير والكبير مع الصغير.

وَدَفِـينٍ عَلَـى بَقايـا دَفِـينٍ في طَوِيـلِ الأزْمـانِ وَالآبـادِ
فاسْـألِ الفَرْقَـدَينِ عَمّـنْ أحَسّـا مِـنْ قَبيـلٍ وآنسـا مـن بـلادِ

وهنا يقترح المعري أن نسأل أنجم السماء التي هي أقدم الوجود عمن شهدت من أناس ومن بلاد، فكم مر عليها من شخوص وأنعام وبلاد ثم كانت شاهدة على فنائهم جميعا.

كَـمْ أقامَـا علـى زَوالِ نَهـارٍ وَأنـارا لِمُـدْلِجٍ في سَـوَادِ

تَعَـــبُ كُلّهـــا الحَيَـــاةُ فَمـــا أعْـــ جَـــبُ إلاّ مِـــنْ راغـــبٍ في ازْديـــادِ

هنا نرى نظرة هذا الشاعر الفيلسوف للحياة، فهي تعب كلها بلا استثناء.. والعجب ممن يستزيدون منها!

وقد كتب كثيرون عن تشاؤم أبي العلاء، لكنني أعتقد أنّ في اختصار فلسفته في التشاؤم فقط كثيرًا من التسطيح، فللرجل فهم ورأي في الفلسفة والحياة أعمق وأغنى تجربةً من أن يُختصر في التشاؤم.

ولنقرأ من هذه الأبيات الرائعة أيضًا:

إنّ حُزْنًـــا في ســـاعةِ المَـــوْتِ أضْـــعَا فُ سُـــــرُورٍ في ســـــاعَةِ المـــيلادِ

خُلِـــقَ النّـــاسُ للبَقَـــاءِ فضَـــلّتْ أُمّـــــةٌ يَحْسَـــــبُونَهُمْ للنّفـــــادِ

إنّمـــا يُنْقَلُـــونَ مِـــنْ دارِ أعْمـــا لٍ إلـــى دارِ شِـــــقْوَةٍ أو رَشَـــادِ

ضَـجْعَةُ المَـوْتِ رَقْـدَةٌ يُسـتريحُ الـ جِسْـمُ فيهـا والعَـيشُ مِثـلُ السّـهادِ

فالحياة إنما هي سهر طويل ينتهي بالنوم والراحة بالموت!

ونختم هذا الحديث عن الشعر وأهله بهذه المقاطع، فبعد صدور ديواني "وحي الفجر" حياه الأديب الكبير الشيخ الباحث محمد فال ولد عبد اللطيف قائلا:

حظينـا بـوحي الفجـر -والطـور والفجـر- بشـــعر بـــديع كالمـــدام وكـــالتبر

وقـد كـان قبـل الفجـر في النـور سـاطعا ســلامٌ لياليــه إلــى مطلــع الفجــر

وعـــن شـــأوه كـــلَّ الوجيـــه ولاحـــق فمـــن شـــاء فليقعـــد ومـــن شـــاء فليجـــر

قـــريض غـــريض مـــن فصـــيح ودارج مـــدارجَ أهـــل الشـــعر في اللفـــظ والفكـــر

وقـــد زادنـــا فيـــه بيانـــا إمامـــه ســـعيد بـــن ببَّـــاه إلـــى آخـــر الســـطر

ولمـــا عـــلا بـــين المحافـــل ســـعره غلـــت قيمـــة الأشـــعار في بـــرص الشـــعر

تفـــرد بالإبـــداع وتـــرا قضـــية علـــى صـــدقها أقسمت بالشـــفع والـــوتر

ومن المساجلات ما كتب الدكتور الشاعر أدي ولد آدب ذات مساء في الدوحة:

كنا البارحة مساء الجمعة 28 ديسمبر 2018، على موعد مع الأخ العزيز

الشاعر المبدع، النبيل الأخلاق: محمد بن إمام، في مجلس متواضع نسترقه من زحمة مشاغل الحياة، كلما سنحت فرصة، وعندما اضطر للغياب، ناب عنه في الحضور شعره وأدبه؛ إذ أرسل هذه الأبيات الرائعة:

بالتَّحايا وخالِصاتِ التهاني والأماني كالدُّرِّ والمرْجسانِ
وكَتَغريدِ ساجِعاتٍ بِبَانِ تَحْسدُ الأذْنَ عِنده العَيْنانِ
لِبديعِ الزمان هذا الذي فا قَ بديعَ الزمانِ من هَمَذانِ
والذي فاق في بديع المعالي والذي فاق في بديع المعاني
وله مجْلِسٌ من الفَيْدِ كالعِقْـ ـدِ الفريدِ الفريدِ أوْ كالأغاني
وإليه شوقي دوامًا ولكن عاقني الآن عنهُ بعضُ الشانِ
فاعذروني إذا تخلّفتُ عنه رغمَ حبّي مجالسَ الفتيانِ
دوحةُ الشعر منكمُ في ازدهارٍ ببديعٍ مرصّعٍ وبيانِ
كم ليالٍ للشعرِ فيها حسانٍ كليالٍ "بالنعفِ من بدلانِ"

إشارة لبيت امرئ القيس الشهير:

دِيَارٌ لِهِنْدٍ وَالرَّبابِ وَفَرْتَنا لياليَنا بالنعفِ من بدلان

فرددت (أدي بن آدبَّ) عليه:

غبتَ عنَّا.. ولم يعوضكَ ثان رغْم أنَّ الحُضورَ أهل المعاني
غبتَ.. لكنْ حضرتَ.. أكثرَ منَّا فملأتَ المكانَ.. سحْرَ البيانِ
نسي الكلُّ.. عطرَه مذ تفشى شِعْرُكَ العبْقريُّ.. ملْءَ المكانِ
وسكِرْنا.. من خمْره.. برحيق أخجلَ الشايَ في الكؤوس الحِسان
وازدهى المجلس الذي غبت عنه بحلى خلقك الرفيع المباني
وأتانا -في شِعْرك المُتنبِّي وأتى -ناثرا- "بديعُ الزمان"

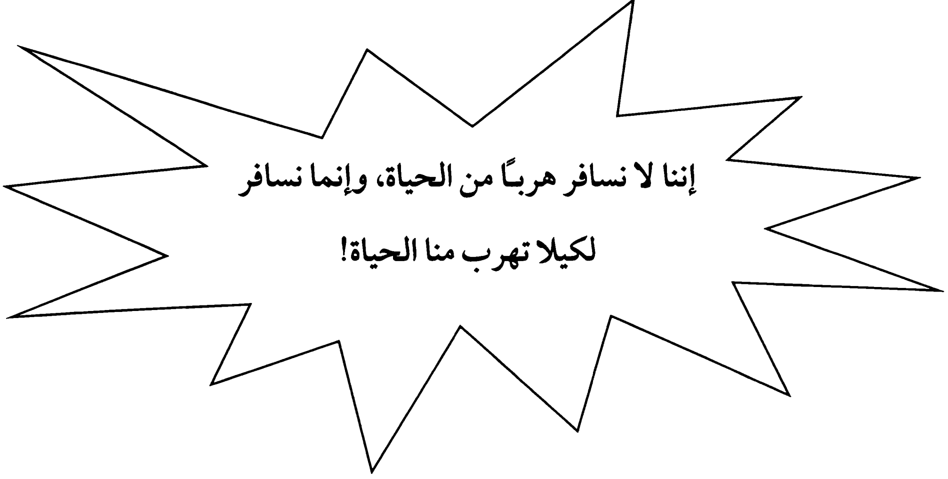
وغدا البيتُ "شِعْبَ بَوَّانَ" "طِيبا   في المغاني".. وأين تلك المغاني؟
أنت يا ابن الإمام -طبتَ- فتى الفتْـ   ـيان.. دانٍ جناكَ في كلِّ آنِ



سادسًا:

بين المدن

في الأسفار والأمكنة



كُنْ في الحياةِ كَعابِرٍ لِسَبيلِ   واتْرُكْ جَميلًا إثْرَ كُلِّ جَميلِ
وارْضَ القليلَ من الحياةِ فَكُلُّنا   عَمَّا قليلٍ راحِلٌ بِقَليلِ
وعِش الحياةَ ولا تُبالِ بِصرْفِها   ودَع الأنامَ لِقالِهِمْ والقيلِ

المؤلف

أحب أن أقدم لهذا القسم بهذه الفقرة من كتاب (مخيّلة الأمكنة)، الذي قرأته بطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكان فيه جزء عن بلدي موريتانيا وهو كتاب جيد عموما وتقنياته السردية بديعة.

"ماذا يعني المكان بالنسبة للكائن! سؤال يطرح علينا كثيرًا عندما نسافر، ونكاد نكتشف في كل مرة، أننا عاجزون عن الجواب. نكتشف أيضًا، على عكس ما تعلمناه عن «أحادية العواطف» الكاذبة، أننا قادرون على أن نحب أكثر من مكان، في آن واحد! (تمامًا، كما نفعل مع الكائنات). من السفر نتعلم أن نرى أبعاد الأمكنة المتعددة والبعد الحقيقي للآخر الذي يسكنها «فالبعد الواحد» لا وجود له، في الحقيقة، إلا في ذهن الكائن الخامل، وهو ما ينشط مخيلتنا التي تكاد أن تغفو في «فضائها المعتاد»! وهذا الفعل المكاني بامتياز سيكون مصدر حبها المتجدد له ومصدر مهمًا لإقامة علاقة ودية مع الآخر. في السفر يتألق التاريخ الشخصي للكائن، وتتفجر دهشته. الدهشة التي كاد أن يدفنها في ركام مكانه الأليف. فيه يغدو التخلص من براثن «الأمكنة الملتهبة» نوعًا من مقاومة الهلاك النفسي المخيف! "

دائما تبهرني المدن القديمة بحواريها وأزقتها الضيقة، لا أعرف هل هو الحنين للماضي، أم هو مغامرة السفر عبر الزمن وفرصة تخيُّل الحياة في أزمنة سابقة، وتصوّر حياة أشخاص عاشوها بآمالها وأحلامها المتحَقّقة والمنكسرة على جدار الزمن وصخْرِه القاسي، أتذكر أنني زمن مقامي في مدينة الإسكندرية المصرية كنت أحب التجوال في أحيائها العتيقة، وعادة أؤجر فيها عكسَ زملائي ممن يحبون الأحياء الراقية الحديثة..

وفي القاهرة كنت أميل للأحياء القديمة، مثل حي عابدين والموسكي والسيدة والغورية، وكنت مولعًا بالعمارة الإسلامية في الجوامع الكبيرة كجامع السلطان حسن، والغوري والأزهر والحسين..

إن الوقوف في هذه الأماكن القديمة وتأمل هذه الآثار تجربة لا توصف، فأذكر أول مرة زرت الأهرام، ووقفت أمام تمثال أبي الهول، جالت في خاطري الكثير من

الأفكار، فهذه الأهرام قد شُيدت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة! فكم شهدت من زوار منذ ذلك العهد السحيق؟ وكم شهدت من موت وحياة أناس جدد؟ وتوالي الأجيال جيلا بعد جيل؟..

أعتقد أن لكل مدينةٍ طابعَها الخاصَ بها المميِّزَ لها عن غيرها، ومن مشاهداتي سأكتب عما علق بالذاكرة من بعض المدن التي زرت:

في مصر

تصور أن تقف أمام إحدى عجائب الدنيا السبع! أمام بناء بُني قبل 7 آلاف سنة! في عصر سيدنا موسى عليه السلام.

وتصور أن تعيش في مدينة بناها الإسكندر الأكبر! ومكتبة بناها اليونانيون القدماء!

ثم تصور أن تذهب إلى جبل طور سيناء المذكور في القرآن الكريم! وأن تذهب في رحلة على خطوات موسى ومن معه إلى البحر الأحمر الذي انشق فكان كل فرق كالطود العظيم!

وتتجول بين تماثيل الفراعنة وتراهم بالعين وقد ماتوا منذ آلاف السنين وكأنك رجعت بالزمن إلى الوراء، وتتجول في مدينة الأُقصر في أقصى الجنوب بين معابدهم..

ومع كل هذا تصلي في فسطاس عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفي مسجد الحسين والأزهر الشريف ومسجد السلطان حسن المشهور، وتتجول بين آثار الفاطميين والأيوبيين والمماليك، من طومانباي إلى قلعة قايتباي الشهيرة على شاطئ الإسكندرية، وتمر بقرى أعلام المالكية من القرافي إلى الشيخ خليل بن إسحق، وترى آثار ولد التلاميد ومحمد الأمين الشنقيطي اللذين مرا من هناك، وتتمشى في حارات نجيب محفوظ، من خان الخليلي إلى زقاق المدق، وتدخل بيوت أم كلثوم وشوقي وطه حسين، وترى ما وصف المازني والعقاد والحكيم!..

إضافة إلى التجول في الأحياء القديمة والمكتبات العتيقة، حيث الكتب النادرة

بأسعار رخيصة.. وكذلك نهر النيل العظيم، ومناظره الخلابة.

كل هذا توفره لك مصر وأكثر.. وسأكتب فقط ملاحظات سريعة عن بعض مدنها التي زرتها، وربما عدت فكتبت عنها بالتفصيل في عمل مستقل إن شاء الله..

وأحب أن أورد هنا قصيدة كتبتها تحية لمصر وأهلها خلال احتفال بذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي القاهرة 2006:

مَـا لِلصَّبابَـةِ مازِلْـنَا نُعَانِيهـا ... نُخْفِـي مَعَالِمَـها والدَّمْـعُ يُبْدِيهـا
وَكَـيْفَ نُطْفِـئُ أَحْزَانـاً تُؤَرِّقُنَـا ... وَذِي الشَّواهِـدُ لا تَنْفَـكُّ تُذْكِيهـا
مَـا لِلْمُحِبِّـينَ تُبْكِيهـمْ إِذَا صَـدَحَتْ ... حَـمَامَةُ الأَيْـكِ قـدْ جَفَّـتْ مَغَانيهـا
جَلَّتْ فَصَاحَتُـها عـنْ عِيِّهـمْ وَعَـلَتْ ... بالصِّـدْقِ فَـوْقَ مَعَانـيهمْ مَعَانيهـا
تَـبْكي بِصَـدْرٍ مَشُـوقٍ لاَ ادِّعَـاءَ بِـه ... وَنَدَّعِـي الحُـبَّ تَزْويـرًا وَتَمْويهـا
وَإِنْ تَغَنَّـتْ تَغَـنَّتْ لِلْـهَوَى طَرَبـاً ... لا مِـثْلَمَا قـد نُغَنِّـى فِي الهَـوَى تِيهَـا
وَلِلْمُحِبِّـينَ وَالـوُرْقِ الحَمَائِـمِ تَـا ... ريخٌ مِنَ العِشْقِ يُعْليهِـمْ ويُعْليهـا
لَيْسَ الهَوَى وَالجوَى مـا نَـدَّعِي كَذِبـًا ... وَإِنَّمَـا هِـيَ أَسْـمَاءٌ نُسَمِّيهَـا
يَا مِصْرُ ما زِلْـتُ ذَاتَ المُسْتَهَـامِ وَمَا ... زالَـتْ عَلَـيَّ دُيُـونٌ لا أُؤَدِّيهـا
أُعْطيـتِ مَجْـدًا عَـلَى البُلْدانِ أَجْمَعِها ... مَنْ يُعْطِكِ المجدَ أَعْطَى القَوْسَ بَارِيهَا
مَـنْ لِلْقَصَـائِدِ تَبْكـي لا اصْطِـبَارَ لَهَـا ... وَكَوْكَـبُ الشَّـرْقِ مَـا عَـادَتْ تُغَنِّيهَـا
وأيـن سُـحْبٌ يَـروقُ النَّفْـسَ رائِحُهـا ... ويُلْـهِمُ الـقَلْبَ بالتَّـذْكَـارِ غَـاديها
ما عُدْتُ أَرْقُـبُ نَجْـمًا في سَمَاوَتِـها[1] ... فَجْـرًا وَمَـا عُـدْتُ بالذِّكْـرَى أُنـاجيها
وَذلِـك النِّيـلُ لا غَبَّتْـهُ مُعْصِـرَةٌ ... تَشُـوقُ رُؤْيَتُـها فُـؤَادَ رَائِيهـا
تُرْويـهِ وَبْـلًا فَيُرْويـنا بِنَائِلِـهِ ... وَتَطْـرَبُ الأَرْضُ شَـوْقًا في تَثَنِّيهَـا

(1) قال في اللسان: سماوة الشيء أعلاه، وأنشد: سماوة الهلال حتى احقوقفا.

وَلِلْحُسَيْنِ نِداءٌ في مَآذِنِهِ وَدَعْوَةٌ لِلْهُدى مَنْ ذَا يُلَبِّيها؟
تِلْكَ المَزَارَاتُ يا مصرُ الحَبيبَةَ لا مجدٌ يُدانيكِ فيها أوْ يُدَانِيها
لِلْعَاشِقِينَ تَراتِيلٌ بِجَنَّتِها وَلِلْمُصَلِّينَ سَبْحٌ في لَيَالِيها
أَيا أَميرَ القَوافي جِئْتُ أَحْمِلُهَا تَحِيَّةً مِنْ رُبَى شِنْقِيطَ أُهْدِيهَا
أَعْطَاكَ شِعْرُكَ قَبْلَ الحُكْمِ والشُّعَرَا إِمَارَةَ الشِّعْرِ تَشْرِيفًا وَتَنْويها
وَ يَا أَميرَ القوافي نحْنُ في سِنَةٍ تُزْري بِضَاحِكِها أَحْوالُ بَاكِيها
وَبَعْدَكَ الشّعْرُ قد جَفَّتْ رَوافِدُهُ واغْتَالَها الجَهْلُ مَنْ بالشّعرِ يُحْيِيها
القَومُ بَعْدَكَ بالأَشْعارِ قد كَفَروا وبالكِتَابَةِ فاجْتُثَّتْ[1] أَواريها
واسْتَعْبَدوا الشعرَ واغْتَالوا كرامَته وَشَوَّهُوا وجْهَه بالذُّلِّ تَشْويها
بِاسْمِ السَّلاطينِ قادوا هُمْ سَفينَتَه وقُدْتَها قَبْلُ باسْمِ الله مُجْريها
جَدَّدْتَ رُوحَ الهوى والشّعرِ فانْبَعَثَتْ مِنْه مَعَالِمُ كادَ الدَّهْرُ يُبْليها
ما زِلْتَ تَكْتُبُنَا شِعْرًا فَتُلْهِمُنَا ما زِلْتَ مَلْحَمَةً لِلدَّهْرِ نَرْويها
مَازَالَ في كَرْبَلاءَ حَقُّنَا هَدَرًا والقُدْسُ بَعْدَكَ مَا جَفَّتْ مَآقِيهَا

حلم الطيران!

كلنا قرأنا عن السفر وفوائده السبع، وربما السبعمائة! وكانت وسائل النقل والسفر من خيول وإبل وغيرها موضوع الكثير من الكتب والأشعار، ففي البيان والتبيين للجاحظ وفي الأغاني والعقد الفريد وغيرها من الكتب القديمة فصول مخصصة لأنواع الخيل ومراتبها ولأبي الطيب الكثير في وصف الخيل والإبل وفضائلها حتى إنه يفديها بالنساء! ألا كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى، فِدَى كلِّ ماشِيَةِ الهَيْذَبَى ..فهذه الإبل الخيل هي في الحقيقة، حبالُ الحياة وغيظُ العداة وميطُ الأذى ..

(1) اقتُلعت/ الأواري بقايا أماكن الخيل، إشارة إلى قول النابغة: (إلا الأواري لئيًا ما أبينها).

والكلام عن هذا الموضوع يستحق كتبًا، وقد كتبت فيه بالفعل، ولن أطيل به عليك هنا، لكنني سأتناول موضوع قريبًا منه يستحق التأمل، ألا وهو وسائلنا المعاصرة، خصوصًا الطيران..

فقليلًا ما نتفكر في هذه المعجزة التي طالما حلم بها الإنسان، ونسج عنها في خياله وأحلامه الكثير وحاولها كثيرًا، وأخيرًا غزا الإنسان الجو بعد الأرض والبحر، وأصبح يمكنه أن يطير حرفيًّا لمئات الأمتار، وبسرعة لم يكن يتصورها في أكثر أمانيه جموحا!

وقد تابعت محاضرة للمفكر وين داير Wayne Dyer يتحدث فيها عن غفلة معظم الناس عن هذه الحقائق، فتراهم يتذمرون إن تأخرت الطائرة ساعات، أو إن اضطروا للانتظار في المطارات أو المبيت فيها انتظارا لرحلة تأخرت.

وأنا شخصيا خلال بداياتي مع الطيران كنت كالجميع، لا أفكر إلا في الوصول بسرعة وإن تأخرت الطائرة امتعضتُ كباقي المسافرين، ولكن بعد فترة أدركتُكم كنت ناكرا للجميل!

فهذه الطائرة وعمالها يقومون بمعجزة حقيقية، فالسفر قبل الطيران لنفس المسافة كان يتطلب من أجدادنا شهورًا من التحضير، وجمع الزاد، وتحضير المراكيب وبعد ذلك الاضطرار إلى تحمل الشمس والبرد والتخييم وطي الخيم وتحميلا على ظهور الدواب كل مرة، ورعي المراكيب وإرجاعها في كل يوم مرتين على الأقل، فضلا عن الطبخ وما يترتب عليه من غسل الأواني قبل وبعد مع عدم وجود ما يحفظ الزاد لأيام فما بالك بشهور فعليهم إما الاكتفاء بالحبوب وما شابهها، وإما البحث الدائم عن الطعام الطازج الذي سيكلف الكثير إن وُجد أصلا ..

ويمكننا أن نتصور باقي التفاصيل المضنية، فضلا عن الأمن واللصوص وقطاع الطرق...

والآن نحن في نعم لا نقدرها غالبا ولا نحمد الله عليها، فأنت تقطع مسافة شهور في ساعات، مع أشخاص يخدمونك ويقدمون لك الأطعمة والأشربة في جو مكيف الهواء مع وسائل الترفيه وإمكانية النوم حتى.. ورغم ذلك إن تأخرت قليلا ترى

لناس يمتعضون ويشكون وبعضهم يشتم المضيفين والشركة!

وخلال تجربتي على مدى ثمانية عشر عاما من الأسفار عبر الطيران، عملت على تنمية الامتنان وشكر الله على نعمه، بدل التذمر أو عدم المبالاة. حتى لو تأخرت في مطار ما ليلة أو يوما كاملين، أذكِّرُ نفسي بأن أجدادي كانوا يعانون ما لا يُقاس بهذا من الجهد على مدى أشهر طويلة مع احتمال التعرض للنهب وربما القتل خلال الرحلة، فماذا يعني أن نتأخر ساعات؟ ونفس الشيء ينطبق على القطارات، والسوبر جيت وغيره.

ثم إنني صرت أحرص على اغتنام كل سفر للتعرف على مجاوري في الطائرة والحديث الودي معهم، طبعا بشرط أن ألمس منهم الاستعداد لذلك، فتعرفت على الكثير من الناس من مختلف الأعمار والأجناس والثقافات، وقد مكنتني اللغة الإنكليزية من صنع الكثير من الأصدقاء عبر الأسفار فنادرًا ما أجد من لا يتحدثون العربية ولا الإنكليزية ولا الفرنسية.

والتواصل الإنساني عندي مهم جدًّا خصوصًا في السفر، وأتعجب ممن يمتعضون أو حتى يغضبون لأن أحدهم سد الممر مؤقتا ليضع حقيبته أو لينزلها، أو غير ذلك، فبدل أن تكون ردة فعلنا أن هذا الشخص يؤخرنا ويأخذ من وقتنا، فلنساعده ونبتسم في وجهه، ولا داعي للعجلة والتدافع فالجميع سيخرجون من الطائرة ويمضون في حياتهم وكل شيء سيكون على ما يرام!

إن هذا المنظور للحياة عموما مهم جدا حتى نعود أنفسنا على الامتنان وتثمين ما لدينا، والبعد عن التذمر والامتعاض من كل شيء لم يسر على هوانا أو توقعاتنا..

القاهرة

ويسمونها قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، وهو الذي بناها، وما تزال آثار الفاطميين ظاهرة للعيان، وأسماؤهم في الشوارع والحارات وكذلك المماليك، فهنا تجد طوماناباي والظاهر بيبرس كما تجد رمسيس والسيدة زينب والحسين.

وفي القاهرة سور الأزبكية المشهور بالمكتبات العتيقة وقد كان مزارا دائما لي

لأنك تجد فيه نوادر الكتب بأسعار رمزية غالبا، فضلا عن التمشي على نهر النيل العظيم أصيلالا.

لكنني شخصيا كنت ربما لطبيعتي الخاصة أتجنب الأماكن السياحية المزدحمة، وكنت أركز على الإنسان العادي البسيط، فأحاور البائع المتجول والحارس والبقال وأمثالهم، وما زالت عندي هذه العادة حتى الآن، وفي المدن والدول الأخرى تجدني دائما أحاور هؤلاء فأعتقد أنّ لديهم فهمًا أكبرَ للحياة وتجربةً أعمقَ لممارستها في مستوياتها الدنيا واجتياز صعوباتها ومحنها الكثيرة، ولأنني كنت غالبا أقوم بتأجير بيت وبعد أشهر يكون علي السفر لمدينة أخرى في العطلة الصيفية مثلا، أو إلى الوطن، وعندما أرجع يكون علي أيضا أن أبحث عن بيت جديد فإنني كنت أتنقل كثيرا بين مختلف الأحياء وهذا كان بالنسبة لي سياحة وتنوعا مفيدا، وكلما أقمت بشارع تعرفت على سكانه وأتذكر أنه في أحد البيوت كان الحارس فلاحا طاعنا في السن، وقد كان وحيدا وعنده الكثير من الحكايات والتجارب الحياتية التي لا يجد من يقصّها عليه فلما وجدني تعلّق بالمجلس حتى إنه أيضا أدمن الشاي الأخضر الموريتاني بالنعناع!

وقد أتاحت لي القاهرة، فضلا عن معارض الكتاب السنوية، فرصة اقتناء الكتب بأسعار تناسب الطلاب، ومنها أنشأت مكتبتي الشخصية شيئًا فشيئًا،

كما أتاحت لي الاحتكاك بأشخاص من مختلف أنحاء العالم لكثرة السائحين، بل أتذكر أنني أجّرتُ بيتا كبيرا في حي الدقي مع مجموعة من الطلاب من السعودية، الصومال، الجزائر فكنا نسميها دار جامعة الدول العربية!

وقد كانت سنوات الجامعة عموما سنوات بحث وتعلم وتجارب كثيرة، وفيها أيضا دخلت عالم الكتابة وتعرفت على المنتديات والكتابة فيها وفيها نشرت لي مجلة العربي الكويتية إحدى أشهر المجلات الثقافية في ذلك الوقت بعض القصائد فكان ذلك شيئا أسعدني كثيرا، وبعد ذلك كتبت لعدة مجلات وجرائد أدبية في مواضيع الأدب والشعر أساسا..

وفي هذه المرحلة أيضا شاركت في كثير من الأمسيات الشعرية والأدبية، فقد

نُظمت لي عدة أمسيات من طرف اتحاد الطلاب العرب والموريتانيين ومعهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة، وكلية الآداب بجامعة عين شمس، والمعهد الديموغرافي (CDC)، وغيرها من الجمعيات الثقافية، وأغلب هذه الأمسيات احتفظت بتسجيلاتها لله الحمد وهي متاحة على قناة المكتبة المرئية على يوتيوب، وقد نشرت صورا من التكريمات على مدونتي على بلوغر وصفحتي على فيسبوك الروابط في المراجع آخر الكتاب لمن أرادها.

عموما كانت فترة الجامعة من أحسن الفترات وأغزرها في التحصيل والمطالعة والاستكشاف والسياحة والتجارب.

الإسكندرية

ربما هي أكثر مدينة أحببتها في مصر، فالجو المتوسطي دائم المطر تقريبًا في الشتاء شيء مبهجٌ وغريب عني أنا القادم من الصحراء حيث ندرة المطر وارتباطه في المخيلة الجمعية بالنماء والازدهار وكل معاني التجدد والنمو، وهي إلى ذلك مدينة حالمة جميلة، ولعل من أهم ما أعجبني هو روحها الثقافية، ففيها أشهر وأقدم مكتبة (مكتبة الإسكندرية) وقد أقيمت حديثا مكان المكتبة القديمة، وبنيت على شكل قرص الشمس، في إبداع معماري بديع، وفيها فضلا عن ذلك، متاحف وأماكن مؤتمرات، وأنشطة ثقافية كثيرة، وهناك الشارع المسمى "النبي دانيال" وهو شارع تمتد عليه المكتبات الشعبية في منظر جميل، يذكرني بسور الأزبكية في القاهرة، حيث يجد محبو الكتب بغيتهم كلٌّ حسب مستواه، وتجد فرصا نادرة، مثلا تجد أحدهم يعرض مكتبة كاملة للبيع، وآخر يعرض مقتنيات نادرة وربما أعدادا قديمة وتاريخية لبعض الصحف والمجلات العتيقة..

ومن المميز في الإسكندرية مزارات شيوخ المتصوفة القادمين أساسا من المغرب، فهنا تجد سيدي بشر وسيدي جابر والمرسي أبو العباس، وهذه كلها مزارات ومساجد وزوايا معروفة في المدينة، واسم مرسي هذا من الأسماء المنتشرة في مصر وقد قرأت أن أصله هذا الشيخ الصوفي القادم من الأندلس من قرية (مرسية)، ولفظ (سيدي) قبل الاسم يوحي بالأصل المغاربي لهؤلاء المتصوفة الذي هاجروا

واتخذوا الإسكندرية موطنا.

والإسكندرية مدينة متنوعة الأعراق، ففيها العرب والأقباط واليونان والإيطاليون المستوطنون منذ القدم، وإن كانت أعدادهم قلت كثيرا مؤخرا إلا أنني أتذكر أنه كانت لنا جارة عجوز من اليونان في العمارة التي نسكن وكنا نتحدث معها بالفرنسية، ومن التجارب الجميلة التي أذكر في هذه المدينة الساحرة، هي تجربتي في دراسة اللغة الإنكليزية في مستوياتها المتقدمة (المستوى الثامن عشر)، كانت مُدرِستُنا قبطيةً متخرجة من بريطانيا ومتأثرة جدا باللكنة الإنكليزية الويلزية Welshخصوصا، وكان الطلاب متنوعين رغم قلة عددهم، وأذكر منهم على وجه الخصوص رجلا في الستين من العمر نسميه مستر عبد العزيز، وكنت أولا أتعجب منه، لماذا ما زال يدرس اللغة؟ ولكنني بعد أن تعرفت عليه حدثني كثيرا عن حياته وكما يقول فهو قد أدى واجباته في الحياة حيث اشتغل في وظيفة حكومية حتى أحيل للمعاش، وله ولد صار محاميا، وبقي هو في الدار وحيدا، فقال لم لا أتعلم أشياء جديدة منها اللغات مثلا؟ أعجبني طموحه وتمسكه بالحياة في سن أغلب من فيها يرى أن الدنيا ولَّت ولم يعد هناك معنىً للطموح.. كما أنه كان متدينا فدائما أراه في مصلى الأكاديمية وهو ما زادنا قربا من بعض. بقية الزملاء كان أغلبهم من الموظفين عموما ممن يتطلب عملهم إتقان اللغة الإنكليزية أو ممن يخططون للهجرة إلى الغرب.

لم أعد أتذكر كثيرا عنهم عدا مستر عبد العزيز فقد علمني الكثير عن الحياة والإصرار وعدم الاهتمام بكلام الناس أو آرائهم ما دام ما تقوم به صائبا.

المنصورة والزقازيق

مدينتان في ريف مصر الزراعي، زرتهما مرات في زيارات لبعض الأصدقاء، كان الطابع الزراعي واضحا في معالم المدينتين، فالحقول محيطة بهما من كل جانب، وأهلهما عموما فلاحون طيبون، رغم أنهما ليستا مدينتين صغيرتين بمقاييسنا على الأقل، لأنهما تماثلان عاصمتنا إن لم تكونا أكبر!

لكنهما بالمقياس المصري تعدان مدينتين متوسطتين أو صغيرتين، الجو معتدل

لكنّ هناك ضبابا كثيفا أحيانا لكثرة المزارع، ويسمونه (الشبّورة) في أحايين كثيرة يسد الرؤية، تمتازان بالطابع الريفي البسيط، وأهلهما طيبون غالبا..

عكس معظم المدن الكبرى التي عصرتها الحضارة وغيرت طباع أهلها.

في البحر الأحمر: العين السخنة، الإسماعيلية، قناة السويس

كانت زياراتي للجانب الشرقي لمصر، على شاطئ البحر الأحمر، أساسا في الرحلات السياحية التي كان اتحاد الطلاب أو الجامعة يقومون بها، ولكنها كانت رحلات جميلة فطبيعة تلك الأرض الجبلية الرائعة والطقس خصوصا في الشتاء، وحتى الناس واللهجة المختلفة تحس كأنك سافرت إلى بلد جديد.

وفي المجمل المدن المصرية متقاربة العمران غالبا، إلا ما كان من سيناء والبحر الأحمر أو الجنوب مثل أسوان والأقصر.



في الجزائر

كانت الجزائر هي أول بلد خارجي أزوره، وكنت في طريقي إلى مصر سنة 2001 حيث أقمت في الجزائر 3 أيام في انتظار الطائرة التي ستقلني إلى مصر، كانت إقامتي القصيرة تلك جميلة جدا، فالجو مختلف والعمارة مختلفة والأكل والناس وكل شيء.. كان هذا في شهر أكتوبر أي بداية الشتاء أو نهاية الخريف، وكان الجو المتوسطي منعشًا عكس الجو الذي قدمت منه حيث كان الحر ما زال سائدا خصوصًا في النهار.. نزلنا في فندق اسمه (آدغير) في حي برج الكيفان بالعاصمة الجزائر، وكنا متحمسين جدا لأنه السفر الخارجي الأول بالنسبة لي ولمجموعة من المتفوقين في الباكلوريا، وأردنا استكشاف العاصمة فذهبنا في رحلات متفرقة إلى نصب الشهيد والبحر وغير ذلك من المعالم التي استطعنا زيارتها..

وكانت هذه الرحلة بالنسبة لأغلبنا هي أول كل شيء.. أول مرة في الطائرة، أول مرة في فندق، أول مرة في المصعد الكهربائي.. إلخ.

في تونس

وصلت تونس 2005 قادمًا من القاهرة وقد حرصت مع بعض الزملاء على أن نقضي يومين على الأقل قبل رحلتنا إلى نواكشوط، ولأن تونس لا تحتاج تأشيرة، فقد أقمنا في فندق ابن خلدون، وكانت أياما جميلة، المدينة صغيرة مقارنة بالقاهرة وأقل تلوثا سمعيا وبصريا، بالإضافة إلى اللون الأبيض الغالب على مبانيها.. وحدائقها الخضراء، وللأسف لم يسمح لي الوقت أن أخرج من العاصمة إلى الداخل الذي سمعت الكثير عن مناظره الأخاذة الجميلة، تجولنا في شارع الحبيب بورقيبة الرئيس الأول للجمهورية، وفيه ميدان فيه نصب ساعة على مثال ساعة بغ بن الشهير في لندن..



في شارل ديغول

سنة 2006 جاءت تذاكر الطلاب في مصر على الخطوط الجوية الفرنسية فيما يُقال إنها صفقة رابحة لأحد رجال الأعمال المتعاملين مع وزارة التعليم، أكثر زملائي الطلاب باعوا تذاكرهم لأنها كانت مربحة، أما أنا وزميل لي مهندس، فقد قررنا ألا نفوت هذه التجربة، في زيارة أوروبا، لكننا لم نستطع الحصول على التأشيرة للأسف، فكان علينا الاكتفاء بالمطار! وإن لم تكن إبلٌ فمعزى.. وأيةُ معزى!

انطلقنا من القاهرة باتجاه باريس وأتذكر أننا خضعنا لتفتيش لم يخضع له أغلب المرافقين فيما يُسمى (Random Selection) أو الاختيار العشوائي ولا أظنه كان عشوائيا بتاتا، ثم كانت إقامتنا في المطار وهو في الحقيقة مدينة متكاملة فيه الأسواق والمطاعم والمقاهي وكل شيء تقريبًا فضلًا عن تنوع هائل في الأعراق والأجناس من أقطار الدنيا

تَجَمّعَ فيهِ كلُّ لِسْنٍ وَأُمّةٍ فَمَا يُفْهِمُ الحُدّاثَ إلاّ التَراجِمُ

قضينا فيه يومين في رحلتي الذهاب والإياب ورغم تعب السفر ومشقته فقد كانت تجربة غنية.



في الخليج

كانت أول رحلة لي إلى الخليج هي رحلتي للمشاركة في النسخة السادسة من برنامج أمير الشعراء، وكانت رحلة تمر عبر الدار البيضاء بالمغرب بالخطوط المغربية، ومن الدار البيضاء نحول إلى خطوط الاتحاد الإماراتية، وبما أنني كنت ساعتها أحمل جواز سفر للعمل من أيام المدرسة الوطنية للإدارة، فقد دخلت به المغرب دون تأشيرة، وهو ما سأفتقده بشدة في أسفاري اللاحقة عبر المغرب بالجواز العادي.

وصلنا فندق "هوليدي إن" Holiday Inn في أبو ظبي ليلا، وكان معي بعض الشعراء من المغرب، وكان مقامنا بهيجا، مدينة نظيفة وأبراج مبهرة وفرصة لقاء أصدقاء هناك وأقارب، وسأتحدث قليلا عن تجربة البرنامج:

فقد جرت مقابلتي مع لجنة التحكيم على مسرح شاطئ الراحة حيث طُلب منا إنشاد النص الذي اخترنا أمام اللجنة لتبدي ملاحظاتها وتجيزه أو لا تجيزه.. وقد ألقيت النص وكانت الملاحظات كالآتي:

1- الدكتور صلاح فضل: اسمك محمد ولد أباه.. لماذا ليس ولد أبيه..متندرا.. ثم قال يبدو أنك يا محمد شاعر متمرس.. فأنت تطربنا بنحيبك ((مشيرا إلى البيت الأول من النص:

لصدى الشعر في القلوب وجيبُ يطرب السامعين وهْو نحيبُ

ثم تأخذنا في رحلة مع "الأنا" إلى عوالم رائعة.. من الأساطير اليونانية إلى الحلاج إلى أيام العرب.. لا أستطيع إلا أن أجيز هذا النص.

2- الدكتور علي بن تميم: شكرا لك على هذا النص الجيد.. أنت يا محمد تسألنا " هل تحسون".. ومهمة الشاعر والقصيدة هي أن تجعلنا نحس لا أن تسألنا هل نحس.. لقد وقعتَ في فخ النظم أكثر من مرة في هذا النص.. كما أن هناك أبياتا قمة في الجمال.. شكرا لك.

3- الدكتور عبد الملك مرتاض: أولا أصحح لزميلي صلاح فضل أن أباه" نطقها بالتفخيم" هو اسم علم معروف عن الشناقطة.. أنت يا محمد كتاجر ثري يأتي

للسوق فيأخذ من كل بضاعة ما حلا له.. وهذا ينبئ عن ثقافة واسعة.. فهنا الأسطورة اليونانية "أخيلوس" "طروادة" وهنا تلك المسحة الصوفية الإسلامية الجميلة في «الحلاج»، وكذلك «صبر أيوب».. وغيرها.. نص ينقصه بعض التماسك وإن ظل نصا شعريا جميلا ومطرب الإيقاع.. شكرا على هذا النص.

وبعد إجازة اللجنة لي ولعدد من الزملاء، قرر المنظمون إجراءَ قرعة بين المتأهلين، فكان أن اختارت فيها شاعرا واحد من الشعراء الموريتانيين الستة المجازين من اللجنة!

قررت أن أنتهز فرصة الإقامة هناك لأزور مدينة دبي.

في دبي

كانت دبي مثالًا للمدينة العصرية الجديدة في كل شيء، غابة إسمنتية كما يقولون، ومركز تجاري حيوي ضخم، مراكز تجارية وخدمية هائلة وأسواق على مد البصر، وهناك طبعا المنتجعات السياحية خصوصا في الجميرة وهي جزيرة اصطناعية على شكل نخلة، وكذلك أطول مبنى في العالم، برج خليفة الشاهق، وما حوله من مرافق سياحية ونوافير..

لبثت فيها حوالي أسبوعين، وكان مقامًا بديعًا حقًّا.

في الدوحة

في الدوحة أُتيحت لي فرصة لقاء كثير من المثقفين والشعراء وأهل الإعلام خصوصا، كما أن فيها أيضًا مزارات ومتاحف سجلت عنها بعض الحلقات موجودة على يوتيوب..

وحظيت فيها بلقاء مع الشيخ العلامة محمد الحسن بن الددو نفعنا الله ببركته وعلمه.. في فندق Ritz Carlton بالدوحة.. تحدثنا قليلًا عن بعض المواضيع أذكر منها حديثًا عن عدنان إبراهيم وآرائه.. ولم يسعفنا الوقت للنقاش طويلًا..

فيه تجلى تواضع العلماء الربانيين وذكرني بالعلامة محمد سالم بن عدود رحمه الله وبمعرفته بالناس والأنساب ومجاملاته الجميلة.

كما حظيتُ منذ حللت بالدوحة بلقاءات مع الدكتور الشاعر أدي ولد آدبَّ وهو شيء أحرصُ عليه كلَّما سنحتْ الفرصةُ.. حيثُ التقيته مراتٍ فكانَ الأدبُ حاضرًا. وقد حدثني عن مفهومه للتجربة الشعرية في مقابل "التجريب".. وكذلك عن الساحة الشعرية الوطنية.. وحدثتُه عن كتب كنت أطالعها وناقشناها.. كما تحدثنا عن أبي الطيب طبعا وعن طه وكتابه "مع المتنبي" وطبعًا حديث المتنبي ذو شجون فكنا نطيل في تلك العبقرية الفذة ما شاء لنا الوقت..

ولي صديقٌ كان يسألني لماذا تحرص على هذه اللقاءات كلَّ فترة فأُجيبه إننا نتناشد الأشعار وندردش حول الأدب وجديد المطبوعات.. إلخ. لكنها إجابةٌ لم يُصدقها صاحبي فلم يتصورْ أن يلتقي أشخاصٌ رغم المشاغل والبعد فقط لإنشاد الشعر والحديث عن الأدب!

وقد حاولت أن أقوم بعمل **صالون أدبي في الدوحة** ولكنه لم يستمر للأسف لكثرة مشاغل الناس إلا أنني سجلت منه بالفيديو حلقات وهي موجودة كذلك على قناة المكتبة المرئية على يوتيوب (انظر الفهارس) فيها إلقاءات شعرية لبعض الشعراء في جو بَيْتي حميمي..

كما أَقام اللقاء الثقافي بالدوحة عدة فعاليات ثقافية شرفوني بالاستضافة فيها، منها **محاضرة عن المديح** عند الشناقطة، قمت بتفريغها في هذا الكتاب، وهي أيضا موجودة على يوتيوب، وكذلك **أمسية شعرية** بمعهد الدوحة للإعلام تحت عنوان أهازيج القصيد، وأمسية في متحف الفن الإسلامي.. وكلها موجودة على الإنترنت، كما أتاحت لي أيضا إجراء مقابلات مع قناتي الجزيرة والجسر الفضائية مع الشاعر العراقي حامد الدليمي.. كما أن في قطر مزارات سياحية كلها يستحق مقالا وحده، مثل السوق العتيق، سوق واقف، والمكتبة الوطنية وقد سجلت فيها جولة بالفيديو وكذلك المتحف الوطني الحديث ومتحف الفن الإسلامي.. فضلا عن البر أو البادية القطرية الجميلة في الشتاء.. حيث الإبل ومرابعها ومرابضها..

وطبعا هناك تجربتي كمحرر محتوى (copy editor) ومترجم في **شبكة الجزيرة الإعلامية** وهي تجربة تستحق أن تفرد لها مقالات لغناها وأهميتها.

في التلفزة

خلال عملي في التلفزيون الرسمي قابلت شخصيات مختلفة جدًّا، ومن موقعي المتواضع فيها كنت أرى الناس على طبيعتهم دون تزلف ولا خوف ولا طمع، وربما كتبت لاحقا عن بعض تجاربي هناك التي أعتقد أنها تستحق الكتابة عنها، وكان من عادتي أن أدون بعض الملاحظات التي استرعت انتباهي في العمل والناس ولكنها للأسف ضاعت مني في ثنايا المكتبة، وأتذكر على وجه الخصوص تكليفي بالترجمة والمتابعة مع الوفود الأجنبية في قمتين للاتحاد الأفريقي حول الثورة الليبية والانقلاب في كوت ديفوار سنة 2011، وكنت مع زملاء لي من الدبلوماسيين من وزارة الخارجية والبروتوكول خصوصا وكذلك من الإعلاميين الرسميين فلم يكن المجال السمعي البصري قد حُرر بعد، إنما هو فقط الثلاثية العتيدة، (وكالة الأنباء الرسمية، التلفزة، والإذاعة)، وكنا ننتظر الوفود في قاعة الشرف في المطار ومنه نرافقهم إلى الفنادق أو أماكن الإقامة، ثم في اليوم التالي نلتقي في قصر المؤتمرات..

وكانت معظم جلسات أو نقاشات المؤتمرين تستمر حتى ساعات متأخرة جدا، ولم تكن لدي سيارة وكنت أسكن حيا بعيدا جدا من مكان انعقاد المؤتمر..

وطبعًا في العمل اليومي تحصل الكثير من المفارقات في التعامل مع الناس ورؤيتهم لنا كوسيلة إعلام رسمية، فالبعض يعتب علينا في ممارسات الحكومة، والبعض يتملقنا ظنا منه أننا "حكومة" والبعض يشكو..

ومن الغريب عندي أن أغلب العاملين في الإعلام لدينا لديهم عقدة من المتخصصين فيه، صحيح أن الإعلام لا يرتبط بالدراسة النظرية غالبا لأنه مهارة ودُربةٌ قبل كل شيء، ولكن هذا لا يعني أنه لا يمكن أن تكون دارسا وممارسا ناجحا له في نفس الوقت، وأتذكر أنني كلما قابلت أحدهم أيامي الأولى وعرف أنني خريج إعلام وترجمة، قال إن الدارسين غالبا لا ينجحون في الإعلام! وطبعا أغلب الزملاء كانوا من قطاع التعليم معلمين وأساتذة.. وبعضهم، وهم الأكثر حظوة ونجاحا، قادمون عبر الوساطات، وأتذكر أن أغلب رؤساء التحرير كانوا لا يهتمون لا باللغة ولا بالمهنية ولا بأبسط قواعد التقرير الصحفي التلفزيوني بل أهم شيء عندهم هو

البروتوكول! وإجادة الرقابة الذاتية Auto censure أو self-censorship وبحسب التقرب من المسؤولين تكون الترقيات ..

كانت تجربة متنوعة جدا وتحتاج تفصيلا أكثر، ربما أعود للكتابة عن تلك الفترة لاحقا بحول الله.

في السفارة

عملت مترجما في سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في نواكشوط، وكان العمل غالبا عبارة عن ندوات يقدمونها أساسًا في المجال الأمني، للدرك الوطني، الجيش، الشرطة..

وكانت مهمتنا تقتضي الكثير من الصبر وسرعة البديهة، خصوصا عندما يكون المتحدث الأمريكي يصف حادثة معينة (جريمة قتل مثلا) والتحقيق فيها ووصف الأدلة وغير ذلك، وأتذكر أن متحدثا من مكتب التحقيقات الفدرالي كان يصف أدلة جريمة حقق فيها، ومنها أنه وجد (Screwdriver) أو مفكًا للبراغي جنب سيارة المشتبه به، وطبعًا لم تتبادر لي الترجمة بالفصحى وعندما تذكرت هذا المصطلح لم يفهمه أحد من الحضور! فاضطررت لشرحه بالحسانية..

ومثل هذه الوقائع كثيرة الحدوث في الترجمات المتزامنة أو الفورية وحتى التعاقبية.

في المحظرة، في البادية، والتدريب العسكري، وتجارب أخرى

كنت قد كتبت يوميات عن صباي في المحظرة أو الكتاتيب، ورحلتي مع الشعر الجاهلي والإسلامي والنحو والفقه وأنظامهما وقضية الحفظ القسري.. وتجربتي أيام المدرسة الوطنية في التكوين العسكري الإجباري - ولو أنني اقتصرتُ على أيام منه فقط - لكنني فتشتُ في مكتبتي ولم أعثر على تلك القصاصات وربما كانت في ثنايا بعض الكتب، وسأنشرها حالما أعثر عليها إن شاء الله ذلك.



سابعًا:

مقالات ومحاضرات منشورة

سأنشر هنا مجموعة من المقالات التي نشرتها في أوقات مختلفة في وسائل مختلفة، مع تفريغ بعض المحاضرات التي شرفتُ بتقديمها لتعم الفائدة.

انحيازات اللغة

الجدل الذي دار حول برنامج في التلفزيون اسمه (الناس بيظان) وطبعًا "البيظان أو البيضان" هم شريحة من المجتمع الموريتاني، يفتح الشهية لنقاش مسألة جوهرية، عرفتُها في المجال الأكاديمي والإعلامي الغربي، ولا أعرف مدى تناولها عندنا في العالم العربي ولم أقرأ عنها بالعربية، إنها قضية اللغة والانحياز الجندري (وفي حالتنا يُضاف أيضًا الانحياز الفئوي والعرقي وحتى الجهوي أو الجيهاتي)، وهو مبحث معروف في اللسانيات وفي السياسة أيضا، وفي اللغة الإنكليزية نجد دعاة المساواة بين الجنسين يدعون لتغيير كلمات كثيرة يرون أنها تحملُ شحنات من النظرة الفوقية للرجل على المرأة وانحياز اللغة في المجتمعات الذكورية (patriarchal societies) ضد المرأة، فنجد عبارات من قبيل الأسماء والصفات التي تلحقها كلمة(man) أو (men) في حالة الجمع، يتم التصرف فيها، فبدل (spokesman) صارت أغلب الدوائر الأكاديمية والإعلامية تعتمد مصطلح (spokesperson)، وكذلك (chairman) صار (chairperson) وهكذا..

حتى إن الكوميدي الأمريكي الشهير (David Letterman) خاف - على حد قوله - من أن تُغير الحركات النسائية (feminists) اسمه إلى (David letterperson)..

ولعل من أشهر الأمثلة عندنا، ما يرتبط بلفظة البيظان من أمثلة وما تحمل هي من شحنات ورواسب، وليس الأمرُ مقتصرًا على الأعراق، بل هناك الكثير من المفردات التي تتناول فئات (الصنّاع، الموسيقيين، الطُّلْبة، العرب، إلخ)، وحتى الجهات والنظرة النمطية (stereotype) عن أهل الشرق وأهل الكبلة، وهو موضوع طويل عريض لا يتسع له المجالُ هنا.

أما بالنسبة للغتنا العربية، فالموضوع يطرح أكثر من إشكال، لارتباط اللغة بالدين ونصوصه المقدسة والتوقيفية، وبالتالي فإن أي تصرف في المفردات قد يكون فيه تجنٍ على المقدسات، فمثلا يقولون إن اللغة العربية ظلمت المرأة في عدة مواضع، مثلًا إذا كان الرجل ما يزال على قيد الحياة يقال إنه حي أما إذا كانت المرأة

ما تزال على قيد الحياة فيقال إنها حية! كذلك إذا أصاب الرجل في قوله أو فعله فهو مصيب أما إذا أصابت المرأة في قولها أو فعلها فهي مصيبة! وقس على ذلك مفردات مثل: قاضية، نائبة، داهية، هاوية.. إلخ.

ولعل هذا الانحياز اللغوي الجندري (Linguistic gender Bias) يظهر أكثر في أمثالنا وأشعارنا الفصيحة واللهجية، وهو مرتبط ارتباطا قويًا بالأدوار الجندرية (gender roles) في المجتمع القديم، وهي أدوار محددة، ونجدها اليوم في الصفات المدحية للمرأة والمرتبطة بالطاعة والنعومة ... إلخ.. وعكسها للرجال، من كرم وشجاعة وقوة. إلخ.

وعندنا في الحسانية خصوصًا تتعدى المسألة اللغوية النوعَ إلى مسألة العبودية وتجذُّر مفرداتها، وعباراتها وأمثلتها، وهنا أيضًا تبرز المسألة الدينية، وإن كنا حديثًا استغنينا، في المجال العام على الأقل، عن أغلب الأمثلة التي تشير لتلك الظاهرة، ولكن بعضها ما زال راسخًا ومتداولًا في الأمثال والأشعار، وأتذكر أنني كنت في اجتماع وظيفي مع وزيرٍ وأمينْ عام، وتحدث أحد الزملاء، ربما يقرأ هذه السطور، وقال بحسن نية، إننا نستبشر بهذا الوزير خيرًا، لأن (غَلْظْ العَبْدْ اللّا من عَرْبيهْ) أي أن قدر العبد تابع لقدر مَولاه، وطبعًا علق الوزير تعليقًا طويلًا على هذه الرواسب وضرورة التخلص منها، وشنّع على الزميل الذي اعتذر، ومن الغريب أن الأمين العام كان حرطانيا.

هذه خواطر عن هذا الموضوع المهم والذي لا ينحصر في نطاق اللغة فقط، بل هو سياسي واجتماعي في المقام الأول.

فاللغة تلعب أدوارًا خطيرة في حياتنا، فهي وسيلتُنا لإدراك الأشياء من حولنا، وبالتالي تُعطيها أشكالها ومعانيها، ولكل مفردة وعبارة شحناتُها وحقولُها الدلالية، وخلفياتُها، (connotations).

وغربلةُ لغتنا العربية موضوع مهم، ولكنه دقيقٌ جدا وحسّاس، ولا ينبغي أن يُترك لغير المختصين (لغويا وحضاريا أيضا)، فإهمالُ مفردة أو عبارة او حتى بيت شعر، قد تموت به معانٍ كثيرةٌ، وما اللغة إلا وعاءٌ حضاري تعيش فيه الأمم، ومن غيره تنتهي.

لماذا..

مجرد بداية استفهام لم يتم..

في النحو، كما في الفلسفة، يستحق الاستفهام الصدارة..

ربما لأنه إنشائيٌّ.. لا يقبل الكذب!

في العلوم الإنشائية -عمومًا - يحتل الإنشاء مرحلة الصدارة..

فالسؤال لا يبحث عن جواب بقدر ما تبحث القضية عن سؤال!

.. يقولون إن الكتابة لـ تختلف عن الكتابة عن.. ومن أجل..

فمن يكتب عن نفسه.. غير من يكتب نيابةً..

ولكن هل هذا صحيح؟

نكتب لحاجات.. شتى.. منها الكتابة نفسُها..

فارتكاب الحرف.. فعلٌ غائي..

ولكن هل هو فعلٌ مسؤول؟

في ساحة ركود.. يكون إلقاء شِلْو في البركة إنجازا!

رغم حقارة الشلو!

فاقتحام الكتابة كاقتحام التابوهات..

يحتاج إحماءًا وإبساسًا.. ربما.

فحتى القلم المملوءُ حِبرًا قد لا يُدِر.. كتابة!



وسائل النَّشر

(مقال نشرته في منتدى المشهد الموريتاني 2006 عن ظاهرة الاغترار بمجاملات الافتراضيين)

لأن وسائل نشرنا" *وللنشرِ هنا أكثرُ من معنىً*" أكبرُ منا، ولأننا نكتب أكثر مما نقرأ! صار الكمُّ عندنا أهمَّ من الكيف، وصرنا نقيس الإبداع بالأرقام!

ولكثرة المساحة المتاحة في العالم الافتراضي، صارت مهمة القائمين عليها، هي ملء الفراغ الحاصل، حتى وإن كان بفراغ أكبر!

فأمطرت السماء ألقابًا بقدر ما يملأه المدون من فراغ، حتى غدا العثور على شخصٍ عادي غيرِ عبقري أو مبدعٍ أمرًا أقربَ إلى الحلم!.

فكل ما يُكتب إبداعٌ، دُررٌ، وكل من يكتب مبدعٌ، محللٌ عبقري!

أصبحت المجاملات (السمِجَة) أصلًا، والصدقُ استثناءً!

انتقلت عدوى العبقري الشهير الذي اخترع (كيف تتقن علوم الأولين والآخرين في سبعة أيام!) إلى الكتابة -تصوّروا- فكل ما عليك -أخي (المستهلَك)- لكي تصبح مبدعًا إلكترونيًا، أن تَنثُرَ مفرداتٍ لا صلةَ بينَها، وأن تتحدث عن السُّهوبِ الهلامي، و الملحِ الوجودي!.

بذلك لا يملكُ المتصفحُ لكتابتك – الغَريرُ- إلا أن يُعجب بما سطرتْه (قريحتُك) الفذَّة، وتفتّق عنه (شيطانُ أدبِك)، وأفكارك المُبتكرة التي لم (يطْمثْها) إنسٌ -قبلك- ولا جان!

يكفي من سب امرئٍ إن قلتَ مبتدئ أو هاوٍ! يالَ السبة!

فجأة أصبح الجميعُ – في طولِ مواقع التواصل وعرضِها- عبقريَّ الكتابة وجُذيلَ فنِّها المُحكَّكَ !

فترى (الكاتب) منهم في منتهى التواضع، حتى إذا نُبِّهَ إلى خطأ بسيط، إذا به يُشمر للحرب! وينعت المنبِّهَ بأوصاف وأوصاف!

فالصّدوق في هذا العالم (التدويني) من المغضوب عليهم، والضالين أيضا!

هل تم حلُّ جميع القضايا (الحقيقة) في (العالم الحقيقي) حتى نتفرغ للقضايا

(الوهمية) في العالم (الوهمي)؟!

وهل انتصرنا – فعلًا – في معاركنا الواقعية، حتى نفتعل انتصارًا على (الكيبورد)؟ انتصارًا (وهميًا) على أشباح (وهميين)! ففقدنا القدرة على (التسليم بالواقع)، وماتت عندنا فضيلةُ المُكاشفة، وأصبح كل همِّنا هو بيعَ الوهم، وشراءَه / تبادلَه!

أتذكر -في امتحان الفلسفة في الباكالوريا- كانت المقالة:

{{إذا كانت الحقيقة تُزعج، فهل نُفضل عليها الوهم الذي يُطمئنْ؟ ما رأيك؟}}.

وما زلتُ أعتقد أننا جميعًا -أغلبُنا على الأقل- سيفضل الوهم الذي يُطمئن، بمن فيهم أنا!

حالة الإغراق التي نعيشها أصبحت -مع التدوين- تضخمًا في الذات.

رحم الله نزار قباني الذي قال يومًا عن الشعراء (المبدعين):

شعراءُ هذا العصر جنسٌ ثالثُ — فالقولُ فوضى والكلام ضبابُ

يتكلمون مع (الفراغ) فما هُمُ — عجمٌ إذا نطقوا ولا أعرابُ!

ورحم الله رسول حمزاتوف الذي قال يومًا:

"إن الإنسان في حاجة إلى عامين ليتعلم الكلام وإلى ستين عامًا ليتعلم الصمت".

شكرًا لمخترع التواصل الاجتماعي، فبفضله اكتشفنا، أننا -فعلا- موهوبون !.



عن اللغة العربية

/ مقال منشور بمناسبة اليوم العالمي
للغة العربي 18-12-2016

أقف حائرًا أمام هذا العنوان.. أنا الذي أُشْرِبْتُ حبَّ اللغة العربية منذ الطفولة الأولى.. والدهشة الأولى.. والعشق الأول.. فحلتْ مَكانا لم يكنْ حُلّ من قبلُ..

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

كانت البدايةُ مع تحفيظي – على غرار لِداتي – دواوينَ الشعراءِ الستة.. وأغلب ديوانِ الحماسة.. مع الإعرابِ والشرحِ ولمّا أبلغ الخامسة عشرة..

ورغم أنّي لم أكن أستوعب أكثر المعاني وبعضُها يتم تجاوزُه بحذر (مغامرات امرئ القيس الغرامية مثلًا).. إلّا أن موسيقى الشعرِ وتلهفي على الاكتشاف كانا كفيليْن بتسهيل المهمة.

كانَ ذلك هو اللقاء الأول والشرارة الأولى لحب دامَ إلى الآن.

بعدها بدأتُ ألتهمُ كتبَ الأدبِ التهامًا وأعبُّها عَبًّا.. فنهلتُ وعللْتُ من موسوعاتِه بمتعةٍ منقطعةِ النظير.. وشغفٍ عديمِ المثيل والشرْوى.. متخذًا هذه الكتبَ ندامى أتعاطى معها المتعة واللذة الوجدانية.

كان ذلك ولَهًا مغريًا باكتشاف كلِّ هذا الجلال والبهاء.. فكنتُ أطربُ طربَ العاشق الولهان للقاءٍ مسروقٍ من الظروف.. فتعتريني هِزَّةٌ كما انتفض العصفور.. فهمتُ مع الهائمين في وديان نجد وشعابِ الحجاز.. بين الدَّخول فحوملَ وبين ذي حُسًا والفوارع..

مرّت الأيام وتوالت السنون وأنا أبحر في تلك اللجج الآسرة الأخّاذة، وأرتشف الزلال من تلك الينابيع الجياشة الفياضة سحرًا وجمالًا، فألقيتُ القياد لنفسي التوّاقة لاستكناه تلك اللغة الزاهية وقد حباني الله بخالٍ من أعلم أهل زمانه باللغة وأسرارها وبالشعر وضروبه..

وكانَ هو نفسه شاعرًا مجيدًا وبحرًا ترمي أواذيُّه بكل جميلٍ ونفيس رَحِمَهُ اللهُ.. ومنهُ

تشرّبتُ حبَّ الشعرِ فقد كانَ لا يُنشدُ إلاّ الجيد من الأشعار الجزلة فكانَ أحسن معلم لي ومربٍ جزاه الله أحسن الجزاء..

بعدَ تلك الفترة جاءتْ صروفٌ صرفنَ إلى تعلم لغاتٍ أخرى فما زِدْنني إلا تعلُّقًا بها واستحسانًا لها.. لكنني انفتحتُ على طرقِ أخرى للتعبيرِ وفنونٍ من الأدب وضروبٍ من التعبيرات جديدة .. فقرأتُ أساليبَ مستحدَثةً.. فدهشتُ من قدرتها على التجدد والنمو تبعًا لما تمليه الظروف.. إن اللغة كائنٌ حي.. متجدد ذاتيًا.. والمحتوى الفكريّ ما زال قويًّا جميلًا، والنتاج الإبداعيّ ما زال ثريًّا، لكن تشوّهه خدوش الركاكة اللغويّة.. وهذا أمرٌ طبيعيّ.. ولا أراهُ مقلقًا فالتجددُ يضمنُ الاستمرار.. ولكن علينا الابتعادُ عن الدوائر المفرغة وإعادة تكرار الذات في الكتابة في حدود قوالبَ لغويّةٍ هزيلةٍ هي نتاج قصر الثقافة على المنشور المحليّ أو المعاصر فقط، بل علينا توسيعُ تجربتنا الاطّلاعيّة عبر الزمان والمكان، فبذلك تتّسع دوائرنا الفكريّة واللغويّة، ويرتقي محتوى وأسلوب ما نكتب ليتمَّ الانتقال السلس بين عهود "الحوليّات" وعصر "التغريدة" والتدوينة المختصرة.. فسدّدوا وقاربوا كما يُقال.. ولنفكر قبلَ أن نكتب..

كلَّ عامٍ ولغتُنا بخير..

أوقاتا طيبة أحبَّائي أصدقاء الحرف.



عن الأدب

مقدمة أولى لأول ديوان أو مجموعة شعرية لي جمعتُها سنة 2005 بالقاهرة تحت عنوان (صهيل مبحوح)، وقد قدت لها بهذا التقديم عن فهمي، في تلك الفترة، للأدب وأؤكد أنني عندما قرأتها بعد سنوات، أدركتُ كم تغيرت أفكاري ورؤيتي عبر السنين، ولكنني أوردها هنا وفاءً لذلك الشخص الذي كنتُه يوما:

هل النحلُ مَلومٌ – وهو يقدم إنتاجه بدون مطوية أو (leaflet) تُبين خصائصَه وطرقَ استخدامه ومكوناتِه؟ أم هل الورد مخطئ بعدم تفسيره كيميائية العبير والشذا؟ ومثلهم الشاعرُ مخطئٌ وملومٌ حين لا يفسر إنتاجَه الأدبي؟

إن النحلَّ والوردَ والشاعرَ ومَن في زمرتهم يقعون في أفدح الخطأ إن حاولوا ذلك، فالعسلُ شيءٌ غيرُ معادلاته الكيميائية وكذلك الشعر غير تنظيراته الأدبية.

وإذا كان القدماء – والمحدثون – على حد السواء قد ذهبوا في تعريفه مذاهبَ شتى، كلٌ حسب رؤيته الذاتية، فقد بقي الشعر خارج كل تلك التعريفات كما يبقى العبير خارج مختبرات الكيمياء.

وإن كان – لضرورات بيداغوجية أبعد ما تكون عن روح الشعر– يُتخذ مادةً للدراسة والتحليل إلا أنها تبقى مجرد ضروراتٍ أباحت محظوراتِ محاولة علمنةِ الشعر أي جعله علميًا، على غرار العلوم الإنسانية الأخرى.

فكانت تلك المحاولات بيئة للفشل الذريع، فالشعر من حيث اعتماده على عنصر الذوق الذي يخضع لمتغيرات نفسية، ولعوامل الخبرات السابقة فهو أبعد ما يكون عن العلْمية.

كما أن إيجاد معايير عامة تصدق على ألوان الشعر وفنونه المتباينة تبقى هي الأخرى محاولاتٍ سخيفةً لأن الشعر يخضع لقانون العمليات الانتقائية "selective processes" كما أنه يمر بالمرشحات الخاصة بكل قارئ التي تختلف باختلاف الشخصيات.

وقد أغرق قوم في الرمز فجاؤوا بضروب من التلميحات وفنون من التعمية حتى

غدا الشعر عندهم أقربَ ما يكون إلى الطلاسم وأنشدوا:

(أنـــام مـــلء جفـــوني....) .... البيـــت

كذلك دعا قوم إلى الإغراق في الوجدان والحلول الطبيعي، وعَبَد آخرون الشكل والصياغة ودعتْ زمرة إلى الالتزام الفني، وآخرون إلى التجربة النفسية الداخلية.

وبين تفريط هؤلاء وإفراط أولئك، ظهر ما أُسميه: (النظرة الشمولية للشعر) وهي تأخذ من كل ما سبقَ بطرف.

فالموسيقى شرط وميزة للشعر ونعني هنا الموسيقى بمفهومها الشمولي الذي يشمل - بالإضافة إلى الموسيقى التقليدية المتمثلة في الوزن والقافية - الموسيقى الداخلية والريتم الإيقاعي للكلمة، والحقول الدلالية لها، فما كل موزون شعرا.

كما أن البنية الفنية للقصيدة والوحدة الموضوعية من هذه المكونات من غير تعسف في كل ذلك.

وكذلك الالتزام الذي لا يُقحم إقحامًا يُخل بباقي الوظائف الإشباعية، ويبقى في حدود الالتزام العام الذي يضم الالتزام الفني والتذوقي الذي هو حق للقارئ فلست مع أن الغائية لا غاية لها.

فشتان بين القصيدة والبرامج الإرشادية، وبين الشعر و(المُباشرية) التوجيهية.

وفيما يخص أغراض الشعر، فهي قصْرٌ على الشاعر نفسه، وعلى صدق عاطفته من عدمه.

فلا يعنينا الغرض العام ما دامت العاطفة صادقة، فوراء الموقف الشعري الخاص تتراءى المثُل العامة، على أن الشعر غير دفاتر الحالة المدنية، وصفحات المواليد والوفيات.

واستخدام الرمز الذي بلغت فيه البرناسية حد التطرف، هو في نظري وسيلة حسبوها غاية!

وشتان ما بين الوسيلة والغاية، وكم ذا يتم الخلط بينهما.

وقد ترى في بعض ما تقدم - أو كله - تناقضا صارخا وربما تنافرا لا يعلو

المستوى التنظيريَ ولك الحقُّ - كلُّ الحق- في ذلك، فالشعر من حيث كونه حياةً هو التناقضاتُ عينُها والتنافرُ نفسُه، فهل الحياة شيءٌ آخرُ غير التناقضات والتنافر؟ حياة وموت.. حب وكره.. أمل ويأس..

والشاعر الذي لا يناقض نفسَه هو أستاذ رياضيات أو واعظ.

فالشعر - ومجاله الذوق والعاطفة والخيال - غيرُ العلم القائمِ على الاستدلال والاستنباط.

وبعدُ..

فهذه بعض سنوات عمر وتجارب حياة وسِفر من أسفار الذكريات، سيسعدني - وأنت تقرأها - أن تستشعر كونَها جزءًا من تاريخ شخص وعمره!

وتلك نقطةُ الافتراق، فأنت تقرأه كتابَ شعر وهو جزءٌ من عمره، وأنت تراه مجموعةَ أوراق، وهو كتابةُ الأيام على صفحة من كتاب عمره!.

أما المناطق المحرمة في الشعر فأقل ما يقال عنها: مدعاة للسخرية، فالشعر لا يعرف (التابو) وبما أنه هو الحياة فكل ما فيها مقبول فيه سائغ.

وإذا كانت مهمة التشريعات والتقاليد هي وضع القيود ورسم الخطوط الحمراء، فإن مهمة الشعر هي كسرُ تلك القيود وتخطي تلك الخطوط.

فالشاعر ليس جنديَّ مرورٍ، بل هو عصفور أسعد ما يكون وهو محلق في أجواء الحرية الحمراء.

ثم إن الشعر ليس هواية - كصيد المها - وإن أشبهها من حيث لذته، ومن حيث خطورته وتجريمه أيضا.



عن الترجمة في يومها العالمي

/ مقال منشور بتاريخ 15-02- 2011

بدأ شغفي بالترجمة مع تعلقي بالآداب العالمية ومتعة قراءة النصوص الأدبية باللغة التي كُتبت بها.

وأتذكر أنني أنشأتُ ركنًا للأدب العالمي في "منتدى المشهد الموريتاني"، كان ساحة للتدريب على الترجمة الأدبية وتبادل الاقتراحات مع النخبة آنذاك،

إلا أن البداية الفعلية كانت خلال دراستي في جامعة عين شمس بالقاهرة حيث كانت مادة "الترجمة" في كل المراحل، وقد استهوتني جدا.

ومع الترجمة يزداد الاطلاعُ على الثقافات الأخرى وطرق التعبير المرتبطة بالخلفية الثقافية للكاتب، فنحن عندما نتعلم لغةً ما فإننا نتعلم معها ثقافة بأكملها ونظرة مختلفة للحياة وفلسفةً إنسانية مختلفة. وكلما تعمقنا في لغة فهمنا ما وراءها من تجاربَ إنسانية وثقافة، فالحقول الدلالية للكلمات والتعابير ترتبط ارتباطًا وثيقاً بنظرة المجتمع للحياة وكذلك بعاداته ومعتقداته... إلخ.

والترجمة – من حيث هي أداة لنقل المعلومات المجردة – هي علمٌ دقيق ولكنها أيضًا فنٌ جميلٌ لنقل الآداب والفنون الجميلة، فحسب رأيي لكي نترجم الشعر ينبغي أن نكتب شعرًا لا أن ننقل النص الأصلي حرفيًا، ولكي نترجم رواية يجب أن نكون روائيين في ترجمتنا لها.. إلخ.

فمهمة المترجم أبعد ما تكون عن إحلال لغة محل أخرى.. إنه بفضل ما يتمتع به من موهبة أدبية، يقوم بتفسير هذه العناصر في ضوء الظرف الجديد وتحويلها إلى نص مولد. على النص الجديد أن يكون مقابلًا equivalent للنص الأصلي وليس نسخة طبق الأصل منه. Top of Form

فالنص الأدبي المترجم هو نص أدبي جديد. إن مترجم النص الأدبي شبيه بمبدع النص الأصلي لأن كليهما يرمي إلى تحويل الـ Geno text إلى phenotext. إلا أن هناك بعض الاختلاف بينهما، والاختلاف هذا يكمن في كون المترجم لا يتمتع بحرية اختيار عناصر الـ genotext كما هي الحال بالنسبة للكاتب

الأصلي. وكذلك في أنه ملزم باحترام العناصر التي اختارها الكاتب الأصلي، والأكثر من ذلك، لا يسمح له بترك بصماته الذاتية على العمل الذي يقوم بترجمته. فمهمة المترجم الرئيسية هي أن يكون ناطقاً أميناً بلسان الكاتب الأصلي.

باختصار يختلف المترجم الأدبي عن الكاتب من حيث أنه يتعامل مع مادة محددة وبطريقة محددة، إلا أنه يلتقي مع الثاني من حيث أن الاثنين يجب أن يتحليا بالموهبة. إذا ما أراد المترجم أن يوصل صوت الكاتب وأفكاره بصورة أمينة فعليه أن يتقمص شخصية ذلك الكاتب، لا بل عليه أن يعرف الكثير عن عصر الكاتب.

لذلك فالترجمة تتطلب أكثر بكثير من إجادة اللغة، ففضلًا عن ذلك على المترجم معرفة الكثير عن الكاتب وظروف كتابته للنص الأصلي والمناخ العام السائد تلك الفترة وغيرها من الأشياء التي تساعده على "إعادة إنتاج أو خلق" النص من جديد، في حلته تظهره نصًا أصليًا لا نصًا منقولًا أو مترجمًا فلا أسوأ من نص أدبي تقرأه فتحس بالمترجم فورًا.

فالترجمة الأدبية خصوصًا تتطلب امتصاص النص الأصلي وإعادة خلقه وإبداعه في صورة توصل الأفكار الأصلية لكنها تُلبسُها ثوبًا أصيلًا من صناعة المترجم.

وأتذكر أن من أجود ما طالعتُ قديمًا ترجمات للأستاذ الزيادي، فعندما تقرأه لا تحس أنك تقرأ نصًا مترجمًا وتلك علامةُ الترجمة الجيدة، فحتى إذا نقل الكاتب الأصليّ نصوصًا دينية مثلًا من أديان أخرى، فعليك إيجادُ مقابلها في دين وثقافة اللغة التي تترجم إليها، وهنا أتذكر في أحد امتحانات مادة الترجمة طُلب منا أن نترجم عبارةً من الوصايا العشر هي:

«Honour thy father and thy mother» وكانت الترجمة الأحسن هي أن نكتب الآيةَ الكريمة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: 23] بدلَ أن نترجم العبارةَ حرفيًّا.

والترجمة ألوانٌ شتّى وفنون مختلفة وضُروبٌ متنوعة، منها التفسيرية والتحليلية والمتعاقبة والفورية.. إلخ.

ولكل نوع أساليبُه الخاصة، وفي بيئة العمل الميداني تظهر الإكراهات وضغوط الوقت وغيرها، لكن متعة الترجمة والدُّربة كفيلةٌ بتخطيها.

ويتعرض المترجم للكثير من المواقف الغريبة والطريفة أحيانًا، سأكتب عنها بحول الله لاحقًا.

فالمترجم -كالطبيب- يُسأل دائمًا ويستشار في أي وقت وعن أي شيء!



اللغة العربية وتحديات الرقمنة

مقال منشور في العدد 12 من مجلة الصحافة الصادرة

عن معهد الجزيرة للإعلام بالدوحة

بسم الله الرحمن الرحيم، أود في البداية أن أنبّه إلى أن هذه ليست محاضرةً أكاديمية، وإنما هي خواطرُ ممارسٍ للصحافة والترجمة، ومن محبّ للغة الضاد وساعٍ إلى إثراء محتواها الرقمي على الإنترنت، فبطبيعة عملي تمر علي يوميًا مصطلَحات جديدة لترجمتها للغتنا، وغالبًا ما يكون المصطلحُ جديدًا ولا ترجمةَ له باللغة العربية، ما يدفعُنا إلى محاولة نحتٍ واستحداثِ كلماتٍ أو تعابيرَ جديدة، ورغمَ كل التحديات فإن الهدفَ نبيل، ليس فقط على مستوى المجتمع، والنهوض به، وترسيخ هُويته وانتمائه العربي، بل أيضًا على المستوى الشخصي، حيث إن ترك الإنسان أثرًا طيبًا وراءَه ينتفعُ به الناس هو هدفٌ سامٍ ونبيل، ويدخل في بثِّ العلم في صدور الرجال، وحفظ التراث خدمةً للعربية وللإسلام. وعلاقتي بهذه اللغة الجميلة علاقة ابنٍ بأمه حيثُ أنني أُشْرِبْتُ حبَّها منذ الطفولة الأولى.. والدهشة الأولى.. والعشق الأول.. فحلتْ مَكانًا لم يكنْ حُلَّ من قبلُ..

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبًا خاليًا فتكّمنا

وتهدف هذه الكلمة غير المعدة مسبقًا، إلى تناول قضية الرقمنة، وهذا الموضوعُ ما زال جديدًا ولا يتوفرُ الكثيرُ من الدراسات حولَه، ولكنه من صميم عملي اليوميِّ في مجال الترجمة للغة العربية الفصحى والنشرِ بها والتأكدِ من سلامتها.

وسنتناول أهمَّ التحديات التي تواجه اللغةَ العربيةَ في المجال الرقمي، ثم المحتوى العربي على الإنترنت، ونعني به وجود اللغة العربية في الفضاء الرقمي، وسبلَ تنميتِه وتطويرِه وأهمَّ المبادرات التي قيمَ بها في هذا الشأن، مع تعريج على خصائص اللغة العربية وتحديات الترجمة والنقل إليها من اللغات الأخرى وتحديات نشرها وتدريسها، ثم نختم بتوصيات وملاحظات للمهتمين بالموضوع.

ولعل من المناسب أن نبدأ بتعريف الرقمنة فهي تعريبٌ لكلمة «digitization» وهو مصطلح جديد وله عدة مرادفات باللغة الأجنبية منها:

digitizing , computerization , digitalization , scanning

كما تُرجم للغتنا عدة تراجم مثل "الترقيم"، "التمثيل الرقمي"، "الأرشفة الرقمية والإلكترونية".

وهو باختصار تحويل المواد سواءً كانت مرئيةً أو مسموعةً أو مقروءةً إلى صيغ رقميةٍ صالحةٍ للتداولِ على الأجهزة الرقمية والإنترنت والتخزينِ على الوسائطِ الحديثة من أقراصٍ صلبة ومرنةٍ وقابلةٍ للنشر على الإنترنت.

ويواجهُ المتعاملونَ مع اللغة سواءً بالكتابة، الصحافة، الترجمة أو الأدب، تحدياتٍ كبيرةً خصوصًا في التعامل مع المضامين اليومية، وعبرَ مسيرتي في مجاليْ الإعلامِ والترجمةِ خاصةً تواجهُني عادةً بعضُ المواقفِ أو التعابير الخاصةِ التي تتطلبُ بحثًا ثمَّ اختيارًا قلَّما يكونانِ سهليْنِ بين ما هو صحيحٌ وفصيحٌ وبين ما هو دارجٌ بين الناس ومفهومٌ وإن كان به عَوَرٌ أو خطأٌ لغويٌ خفيفٌ إن جاز وصفُ الخطأ بالخفة.

فالإعلاميون غالبًا عليهم أن يختاروا بين الدقةِ وبين السهولةِ وما يفهمُه الجمهورُ المستهدف، والاختيارُ بين اللغة الجزْلةِ الصحيحةِ وبين ما هو مفهومٌ عادةً يكونُ صعبًا، خصوصًا في المجالاتِ المستحدثةِ والعلومِ الحديثة، حيث يتم نحتُ المصطلحاتِ بشكل يكادُ يكونُ يوميًا تبعًا لتطور هذه العلوم ومستجداتِها، وهذا يُحتّم علينا سرعةَ التعاطي مع النصوص المترجمَة فقد لا يُسعفنا الوقتُ لاستشارة المعاجم المتخصصة، وحتى لو أسعفنا فلن تُفيدنا فهذه المصطلحاتُ تتجدد باستمرار، وهو ما يقتضي سرعةَ اتخاذ القرار واعتماد المصطلحات خاصةً في مجال الأخبار السريعة ومواكبة الأحداث والدراسات الجديدة.

وفي سعينا كأمة عربية للتحول نحو مجتمع المعرفة، ومن أجل تقليص الفجوة المعرفية الرقمية السائدة بين العالم المتقدم والعالم النامي تُواجهنا هذه التحديات التي من أهمِّها:

1 انتشار الأمية، والأُمية المعلوماتية حيث تقدر بعض الدراسات نسبة الأمية في العالم العربي بنحو 40٪ أضف إلى ذلك انتشار الأمية المعلوماتية أي عدم القدرة

على استخدام الحاسوب والإنترنت والبحث عليها فضلًا عن إنتاج المواد ونشرها.

2 ضعف البنية التحتية لشبكات الإنترنت، وضعف المستوى المادي لغالبية شعوبنا، وهذا يمنعها من الاستفادة والحضور في العالم الرقمي الذي يُنظرُ إليه في المستويات الاقتصاديةِ الدنيا على أنه ترفٌ فكري.

3 غياب دَور الجامعات ومراكز البحث في رقمنة المخطوطات مثلًا والدراسات والبحوث التي يُقام بها في هذه المؤسسات، وهذا أيضًا مرتبط بقضية الموارد وشُحِّها.

4 ضعف حركة النشر وغياب شبكات التوزيع.

5 انتشار ما يُعرف بـ (franco-arabe) أو ما يسميه إخوتنا المشارقة بالعربيزي وهو كتابة اللغة العربية بحروف أجنبية، وهذا جنى على اللغة العربية كثيرا، فالمادة عربية ولكنها بحروف ليست عربية وبالتالي فخوارزميات الأجهزة تتعامل معها كنصوص أجنبية، كما أن ابتعادَ أبنائنا وطلابنا عن الكتابة والتعبير باللغة العربية جنى على مستوياتهم في الكتابة والإملاء.

6 قضية التدقيق الآلي وشيوع الأخطاء، معظم محركات البحث عندها خوارزميات ثابتة تتعلق بشيوع الاستخدام بغض النظر عن السلامة اللغوية، فكلما كان اللفظ مستخدمًا أكثر تعاملت معه على أنه هو الصحيح، فمثلا لو بحث مليون شخص أو كتبوا عن كلمة (الاعلام) بدون همزة قطع، عندما تبحث أنت عن الإعلام مكتوبة صحيحة بهمزة قطع لأنها مصدر الرباعي (أعلم) سيقترح عليك هل تقصد الاعلام؟ وقس على هذا جميع الأخطاء في اللغة. لذلك علينا جميعا الحرص على شيوع اللغة الصحيحة والإملاء السليم.

7 غياب الموسوعات العربية الموثوقة والمصادر المفتوحة أو ما يُسمى MOOCs وهو اختصار للعبارة الإنكليزية Massive Open Online Courses

التي يمكن ترجمتها عربيًا إلى: المقررات الإلكترونية المفتوحة ذات الانتشار الواسع.

وهي مواقع متخصصة في كل فرع من العلوم، وفيها معلومات موثَّقة، وغياب

هـذه الموسـوعات يزيـد الفجـوة المعرفيـة ويُتـيح المجـال لانتشـار المعلومـات المغلوطة. أو غياب المعلومات عن مواضيع معينة، فلو أنك بحثت عن مسائل في الفيزياء الكمية مثلا أو علم النبات لما وجدت بحوثا ولا كتبًا بلغتك العربية الأم تروي ظمأك وتشبع نهمك في هذه العلوم، وإنما أكثر ما ستجد هو منتديات فيها معلومات من دون مصادر ولا توثيق، بينما في اللغات الأخرى ستجد كل ما كتب عن الموضوع متاحًا بها.

هذه التحدياتُ أو العقباتُ أثّرت بشكل كبير على المحتوى الرقمي العربي الذي لا يتماشى ولا يُناسب قيمةَ وأهميةَ هذه اللغة الجميلة ولا إشعاعَها الثقافيَّ التاريخيَّ كلغة أولى للعلوم والمعارف، حيث يُقدرُ حجمُ المحتوى العربيِّ الرقميِّ المنشورِ على صفحاتِ شبكة الإنترنت وعلى مختلف الوسائط الإلكترونية حسبَ تقديراتِ أكبر محركاتِ البحث العالمية مثل غوغل وياهو بأكثر قليلًا من (1)٪ من مجمل المحتوى الرقمي العالمي وكان قبل سنوات قليلة لا يتجاوز 0.3٪ وهذه النسبة طبعًا دون المستوى المقبول ولا ترقى لمكانة هذه اللغة، يقول فرغسون في دائرة المعارف البريطانية إن اللغة العربية سواء بالنسبة إلى عدد الناطقين بها أو إلى مدى تأثيرها تعتبر إلى حد بعيد أعظمَ اللغات السامية جمعاء، كما ينبغي أن يُنظر إليها كإحدى اللغات العظمى في عالم اليوم Ferguson, C: .1971

وتنمية المحتوى العربي الرقمي تتطلب حسب (Escwa) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي سيا: 2003) أدواتٍ معلوماتيةً أساسيةً تعتمدُ على حوسبة اللغة العربية، وتحليلها بشكل عملي دقيق، وأهم هذه الأدوات هي محركات البحث والمعاجم. وما يوجد حاليًا لا يلبي الاحتياجات، ولا يرقى إلى مستوى الأدواتِ المُماثلةِ في لغات أخرى، وخاصة الإنكليزية فنحن بحاجة إلى بحوث في كيفية تصميم وصناعة المعاجم لتولد المصطلحات وتوحيدها؛ إضافة إلى حوسبة اللغة العربية.

وتواجه لغتنا الكثير من المشاكل المعجمية، رغم الجهود الكبيرة التي قامت وتقوم بها مجامع اللغة في عدة أقطار عربية، ومن هذه المشاكل أن أغلب معجمات

اللغة العربية هي معجمات تاريخية أو مرتبطة بتاريخ معين وغالبا تنتهي عند عصر الاستشهاد، وذلك لأن واضعي هذه المعاجم كانوا في خلفيتهم يضعونها للحفاظ على لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو لا شك هدفٌ نبيل وفي غاية الأهمية، لكنه من ناحية أخرى قصرَ اللغةَ على تلك العصور، وكأنَّها ماتت هناك، ولن يتطور الإنسان وتُستجدّ له مسائلُ وأشياء تتطلب كلماتٍ وتعابيرَ جديدةً للتعبير عنها ولا مخترعات جديد كالسيارة مثلا وغيرها، وهذا ما وقع للاتينية، التي أصبحت مختصرةً في المجال الديني المسيحي قصرًا وحصرا، ولم تعد لغةَ خطاب ولا أحدَ يتحدثُها في بيته أو في الشارع، وهذا ما نخشاه على لغتنا التي أصبحت للأسف لغةً أكاديمية إعلاميةً فقط، وانحسرت كثيرًا حتى في هذه المجالات.

فالدارس للغتنا لديه معاجمُ ضخمة جدًا مثلا أكبر معجم ربما (تاج العروس) يقع في أربعين جزءًا وكل جزء حوالي خمسمائة صفحةٍ إن لم تخني الذاكرة.

لكن هذه المعاجم الضخمة لن تُفيده كثيرًا في دراسته للعلوم الحديثة ولا حتى في متابعة الإعلام ولا في لغتنا المتحدَّثة في الشارع.

8 غياب الجانب الاشتقاقي (ETYMOLOGY) في معاجمنا أيضًا مشكلة، فنحن لا ندري متى استخدم هذا اللفظ بهذا المعنى المعين ولا ما مسوغاتُ استخدامه للدالة على كذا، أتذكر أنني كنتُ مع زميل مترجم ولغوي وتحدثنا عن كلمة (مشروع) في المجال القانوني مشروع قانون مثلا، فتساءلنا لماذا جيل الرواد من المترجمين استخدم هذا اللفظ بالذات؟ أم أنهم فقط استخدموا كلمة مشروع لترجمة (PROJECT) حيثما وردت؟ ففي المعاجم الأجنبية عندما نبحث عن كلمة (PROJECT) مثلا ستعطينا تاريخ هذه الكلمة واستخداماته المختلفة وأصلها فهي من كلمتيْ (PRO) و (JACERE) اللاتينيتين وتعنيان حرفيًا ((THROW FORTH)) أي الدفع للأمام لكننا لا نجد شيئًا كهذا في معاجمنا، وهنا أطرح عليكم سؤالا عن لماذا نقول مشروع تجاري؟ ما علاقته بمادة (ش ر ع) فب المعجم التي منها الشارع والشريعة والشرعية والمشروعية إلخ؟

9 الفجوة الكبيرة بيننا وبين العالم المتقدم في العلوم الحديثة، وعدم مسايرتنا

لتطوراته وما يُصاحبها من مصطلحات وتعابير...

10 الثراء الكبير في المفردات ما يجعل البحث صعبًا خصوصا على غير العرب، من الدارسين والمهتمين، فمثلا إذا كنتُ أبحثُ عن كلمة (عارضة) عليَّ أن أقرأ حوالي خمسين صفحةً هي مادة (ع ر ض) في قاموسٍ مثل (تاج العروس)، وحتى بعد هذا الجهد الجهيد، لن يُفيدني هذا في معناها الحديث عارضة المرمى في كرة القدم! وقس على هذا..

وكذلك قضية المترادفات المتناقضة في المعنى مع اتحاد اللفظ، مثل كلمة (جَوْن) التي تعني أسود وأبيض أيضًا وكذلك الجلل، ووضع العمامة مثلا وغير ذلك.

11 اختلاف طبيعة اللغة العربية عن أغلب اللغات الأجنبية، من حيث كتابتها من اليمين إلى اليسار، ومن حيث اعتمادها على (الجذر) بدل التسلسل الأبجدي.

ومن قضايا وإشكاليات الرقمنة التي تواجه اللغة العربية وتعوق إثراء المحتوى الرقمي العربي على الإنترنت:

الفجوة المعجمية العربية، وعدم وجود محرك بحث عربي يتعامل مع اللغة العربية، بالإضافة إلى إشكاليات الترجمة وتعريب المصطلحات ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وأذكرُ هنا أنني منذ أشهر قليلة كنت أترجم تقريرًا إخباريا وردت فيه كلمة Whataboutism وهي تقنية الرد على الأسئلة الصعبة أو الاتهامات باتهامات مضادة أو بالتطرق لأسئلة مختلفة (تغيير الموضوع).

مثلا أن أسأل عن شيء ويُجيبني أحد قائلًا وماذا عن كذا أو وماذا عن فلان الذي قال أو فعل كذا وكذا؟ فيغير بذلك الموضوعَ دون أن يُجيبَ على السؤال أو الأسئلة، وبهذا المعنى تُمكن ترجمتها بالمراوغة أو التهرب من الأسئلة.. وهذا المصطلحُ في اللغة الأجنبية مكوَّنٌ من كلمة (WHAT) وتعني ماذا؟ و(ABOUT) وتعني عن و(ISM) وهي لاحقة أو(SUFFIX) تجعل الصفةَ أو النعتَ اسمًا فكان عليَّ أن أجد أو أنحتَ على الأصح لها مقابلًا باللغة العربية، وهذا

تقريرٌ سيصدر بعد دقائق فلا أنا أملك الوقت لمطالعة المعجمات أو البحث على الإنترنت، وحتى لو كان عندي كل الوقت في العالم فهذا المصطلحُ جديدٌ حتى في اللغة الإنكليزية إنما نحتوهُ قبلَ أسبوع!

وقد اقترحتُ الكلمات التالية (مع تبيين أنه مصطلح جديد) لكي نستغني عن ذكر هذه الكلمة الأجنبية في صدر النص (المَذْعَنية) "أسلوب ماذا عن؟" "الماذاعنية".

وكلها طبعًا اجتهادات، لكنها ترد تقريبًا كلَّ يوم!

وهناك أيضًا نزعة الاعتماد على الأجنبي في معظم جوانب صناعة المحتوى العربي، وتتم استضافة معظم المواقع من خارج المنطقة العربية.

وفي مجال الترجمة أيضًا لا بد من التأكيد على أهمية التنسيق بين مختلف المجامع اللغوية واتخاذ قرار بتوحيد ترجمات الكلمات الأجنبية. كما أنه من ناحية تقنية، على مترجمينا الابتعاد عن الحرفية والارتباط باللغة المنقول عنها، فلننحت مصطلحاتِنا من لغتنا وخلفياتنا الثقافية والحضارية، ولا نكن مرآةً للغات الأخرى واستنساخا لها.

ويمكن أن نعمل على تطوير سياسات واستراتيجيات للمحتوى الرقمي العربي، كذلك إنشاء جهات أو مؤسسات وطنية وإقليمية لدعم مشاريع المحتوى الرقمي العربي، والاستثمار في شراكات إقليمية لتطوير وسائل آلية للتعرف الضوئي للرموز العربية لتوفير وسيلة لتطوير التطبيقات المتطورة للغة العربية، وإطلاق برامج توعية من خلال وسائل الإعلام موجهة للمدارس والشباب حول جمال وثراء اللغة العربية وأهمية المحافظة عليها من خلال الرقمنة.

وقد قيم بعدة مبادرات منها مثلا مبادرة (أيام الإنترنت العربي) التي قامت بها شركة (غوغل)، وكذلك عدة مبادرات من دول وجهات عربية، وحتى مبادرات شخصية ولكنَّ أمامها كمًا هائلًا من المعلومات والتراث والمخطوطات والمسموعات لا يمكن أن تقوم به جهة واحدة ولا دولة واحدة. وأرجو أن يتم توحيد هذه الجهود والتغلب على التحديات السابقة.

كما أنني أتصور أن قضية توحيد المصطلحات والعمل على استصدار قوانين تجعل العمل بها مُلزمًا شيءٌ ضروريٌ في كل البلدان التي تتحدث العربية أو تتخذها لغةً رسمية، وهذه الخطوة حسب رأيي ستحل الكثير من المشكلات التي يعانيها ممارسو الكتابة سواءً في المجال الإعلامي أو غيرِه، فنجد الآن مصطلحًا يُترجم بكلمة في بلد ويُترجم بأخرى في بلد آخر، بل حتى إننا نجد نفسَ المصطلح يُكتب بصيغة في المشرق وبصيغة أخرى في المغرب! مثل الجيم المصرية مثلًا التي تُكتب مرةً جيما وتارةً غينا وأخرى قافا. وهكذا.

وكذلك الاقتصارُ قدرَ الإمكان على جمع واحد يكون هو الشائع، وقد ارتأى البعض تخصيصَ كل كلمة لمعنى مختلف حسب الجمع وقد لاحظ أن هذا موجود في اللغة الفصحى وهذا موضوع للتأمل والتكملة ففي لغتنا الجميلة قد يتحدد معنى المفرد عن طريق جمعه. فكلمة "عين" إذا جُمعت على "عيون" فهي "عيون الماء (في جنات وعيون). وإذا جُمعت على "أعيُن" فهي عضو الإبصار (أم لهم أعيُن يُبصِرون بها). وإذا جُمعَت على "أعيان" فهي الرجل العظيم في قومه. وإذا جُمعَت على "عَيْنات" فهي حرف العين. (إلا أن الشعراء استعملوا "عيون" لمعنيَيْ عضو الإبصار وعين الماء).

كذلك إذا جمعت كلمة "عامل" على "عُمَّال" فهو الشخص الذي يعمل في مصنع مثلًا، وإذا جمعتها على "عوامل" فهي الأمر المؤثّر في شيء ما. وكلمة "أمر" إذا جمعتَها على "أمور" فهو الشأن"، وإذا جمعتها على "أوامر" فهو عكس النهي. وكلمة "كاتب" إذا جمعتَها على "كُتَّاب" فمعناها "مؤلّفون"، وإذا جمعتها على "كَتَبَة" فمعناها "مَن يعملون في كتابة الوثائق ونحوها في المؤسسات"، وإذا جمعتها على "كواتب" فمعناها "الآلات الكاتبة". ويمكنكم ببعض التأمل معرفة أكثر بكثير من هذه الأمثلة.

وكذلك قضية النسبة أيضًا مشكلة وتعلمون أنه في اللغة إذا قلنا مثلًا صَحافي فنحن ننسبها للصحافة كصناعة، وإذا قلنا صَحَفي فنحن ننسبُه لصحيفة مفردة، أما عندما نقول صُحُفي فإننا ننسبه للصُّحف جمعا. ومن المعروف أن هناك اختلافًا بين

اللغويين حول قضية جواز النسبة للمفرد أو للجمع فقط؟

ومن الطريف أن اللغوي الشهير الثعالبي قيل إنه كان لا يرى أن النسبة تصح إلا للمفرد، فقال له بعضهم إذن الأوْلى أن يكون اسمك "الثّعلبي" نسبة للمفرد.

وأختم بأبيات من قطعة حيّيتُ بها اللغة العربية عندما خصصت لها الأمم المتحدةُ يومًا عالميًا هو الثامن عشر من ديسمبر:

أنا لُغَتي وفي لغتي تَجلَّى ... هَيُولا[1] العِشْقِ والمجدُ المعلَّى

بها الكلماتُ من نارٍ ونورٍ ... بها بُعث المتيمُ فاسْتَهَلَّا

بها نزلَ الكتابُ هُدىً ونورًا ... ففاتَ بها الأعزُّ هنا الأذلّا

بها عُرِفَ التقى عملًا وعلمًا ... بها عَرَفَ الأنامُ اللهَ جَلَّا

بها برقُ البلاغة ألَّ لمعًا ... فضاءَ الكونَ منهُ حينَ ألّا[2]

تَحَلَّى النثرُ منها حسْنَ حَلْيٍ ... وحَلَّتْ شِعرَها الوشْيَ المُحَلَّى

هواها في دمي عبقٌ زكيٌّ ... أذمُّ له الشَّذا بعضًا وكُلا

بها قد أينعَ المعنى قُطوفًا ... على قُربٍ فحينَ دَنَا تَدَلَّى

ظلالُ هواكِ وارفةٌ وليستْ ... لغير العاشقين تُنيلُ ظِلا

ومن ولّوا لسانَهمُ الأعادي ... تولّوا إثرَهُ عدَمًا وولَّى

وما ازدهرتْ بلا لغةٍ بلادٌ ... وما عزَّ امرؤٌ عنها تَخلّى

ولا وطنٌ تحرَّرَ وهْو يَرعى ... لسانَ الغيرِ فيه وما استقَلَّا

نواكشوط 20 أكتوبر 2018 محاضرة الرقمنة:

https: //youtu.be/nyYjr8pCP6g

(1) يونانية معربة، تعني أصل الشيء.

(2) ألَّ لَمَع.

اللغة في الإعلام الحديث

(مقال منشور في مجلة الصحافة العدد 14)

تطرح قضية مستويات اللغة عدة إشكاليات للصحفي والكاتب الممارس وحتى الأديب، فاللغة هي المادة الخام لأي كتابة، وسأتناول في هذا المقال قضية استخدام اللغة الفصحى والعامية في الإعلام الجديد خصوصًا، وذلك انطلاقًا من تجربتي في هذا المجال وتفضيلاتي لبعض العبارات على أخرى كما سأبين لاحقًا.

اللغة جزء لا يجزأ من العملية الاتصالية التي تقوم في مفهومها البسيط على العناصر:

المرسل والرسالة والوسيلة والمستقبل، والرسالة الإعلامية وسيلتها اللغة وهي تبادل المفاهيم أو الرموز وفكها بين المرسل والمستقبل، وقد قسم العرب قديما الكلام إلى أنواع هي:

النثر العادي أي الخطاب بقصد التعبير البسيط بين المتحدثين دون اهتمام أو اكتراث بالشكل أو الناحية الجمالية.

والنثر العلمي الذي هو وسيلةٌ لنقل المعارف والحقائق العلمية ويكون التركيز فيه على المحتوى لا على الشكل، ثم النثر الفني وهو أعلى مراتب النثر، حيث يستخدم اللغة لأقصى مداها التعبيري والتصويري متجاوزا لغة الخطاب العادي وكذلك لغة العلم الجافة إلى لغة أدبية ذات أبعاد جمالية باستخدام التنسيق والأخيلة والتنميق للتعبير عن ومضات النفس وخطرات الروح وخلجاتها..

ثم إن هناك نوعًا آخر حديثًا هو النثر الصحفي، الذي يقع في المنتصف بين الأدب والخطاب العادي، فيأخذ من كليهما بطرف.

وقد ارتبطت الصحافة العربية منذ نشأتها بالأدب، فأغلب الصحف كانت أدبية وكبار الأدباء من جيل النهضة وما بعده كالعقاد وطه حسين وشكري والمازني وغيرهم كانوا يكتبون في الصحف وكثير من الكتب كانت مقالاتٍ في أعمدة الصحافة ثم جُمعت لاحقًا في كتاب، مثل حديث الأربعاء لطه حسين وكذلك مقالات شكري في المقتطف ومقالات المازني وغيره.. ويكفي أن تعرف أن جريدة الأهرام بدأت

صحيفة أدبية..

وهذا التمازج أو التزاوج بين الصحافة والأدب في طور نشأة الصحف خف مع الزمن حيث تخصصت الصحف وظهرت، الصحف الإخبارية والفنية وغيرها.. كما اختلفت لغتها تبعا لذلك، وكلما ابتعدت الصحافة عن الأدب كانت لغتُها أسهل، لكنها أيضا ابتعدت عن الفصحى، ثم جاء الراديو والتلفزيون، فصار أغلب المواد المُذاعة باللهجات المحلية، خصوصًا الدراما والبرامج الحوارية، ولم يسلم من طغيان العامية إلا نشرات الأخبار، وقد أدى هذا إلى نقاش طويل عريض بين الصحفيين والكتاب حول استخدام العامية وضرورة الموازنة بين ما يُكتب وما يفهمه الجمهور المستهدف، ولن نطيل بتتبع الآراء هنا. فالحاصل أن اللغة الفصحى انحسرت كثيرًا في إعلامنا عمومًا بل كادت تختفي في الإعلام المحلي تماما.

ولن أطيل هنا كثيرًا في قصة نشأة العاميات أو اللهجات المحلية، ولا الفوارق بينها وبين اللغة الأم عبر التصحيف والإبدال والإدغام والنحت والقلب وغير ذلك فهو موضوع مستقل وبحث طويل..

والمتتبع للعاميات يجد بعض الأنماط الواضحة، vivid parallels رغم الاختلافات في الكلمات والدلالات، من ذلك ما ذكره أحد المستشرقين، عندما كتب أنه تعلم اللغة العربية في إيطاليا لكنه واجه مشكلة كبيرة عندما سافر إلى بعض الدول العربية، حيث يذكر أنه في بعض الدول عندما يطلب شرابًا يُعطونه مشروبًا، وفي البعض الآخر يعطونه جوربا.

ومع ظهور المنصات الرقمية على وسائل التواصل الاجتماعي ظهرت ضرورة الاختصار والبساطة، وهو ما يتطلب تدريبًا كبيرًا للمنتجين على هذا الشكل المستحدث من الكتابة، حيث تتميز أيضًا هذه القصص الخبرية إضافة إلى السهولة والاختصار، بالتوجه إلى جمهور حديث السن وذي اهتمامات شبابية ورياضية وإنسانية، وهذا يضعنا أمام اختبار صعب للمواءمة بين ما يفهمه المتلقي الشاب من جيل الألفينيات وبين سلامة اللغة وسلاستها وسهولتها، مع الميل للأسلوب الشبابي في الاختصارات مثلا والرموز واستخدام الوجوه التعبيرية..

وهنا على المنصة أن تستخدم الفصحى السهلة المفهومة ولكن الصحيحة أيضا، في كل ما تنتجه مسموعًا أو مكتوبًا، أصليًا أو مترجمًا عن لغات أخرى، هذا لا خلاف عليه، لكن المتدخلين في القصص يتحدثون غالبًا بلهجاتهم، وهم من شرائح مجتمعية ومستويات علمية واقتصادية مختلفة ومتباينة، ففي القصص الإنسانية مثلًا علينا أن نُجري مقابلة مع المريض أو ضحية العنف ومع الطبيب أو المرافق كذلك، وكلهم سيتحدث بالعامية، وكذلك شهود العيان والخبراء وغيرهم..

هذه المداخلات والمقابلات لا نتحكم في لغتها وهي ضرورية للقصة.

وللغة في هذه الوسائط خصائص أخرى غير الأسلوب الموجز والأنيق الجاذب، فينبغي انتقاء واختيار ألفاظ دقيقة وصحيحة لغويًا وسأضرب أمثلة مما أقدِّمُه وأفضله شخصيا بين ما هو شائع في الاستخدام ويُتناول كمترادفات مثل:

كلمة تواجد فهي لغويا تختلف عن الوجود ورغم ذلك كثر استخدامها بهذا المعنى، كذلك الجموع مثل كلمة الأهرامات لم لا نكتب الأهرام؟ وكذلك الضغوطات فلنكتب الضغوط وهكذا..

وعلينا أيضًا أن ندقق في الفروق الدقيقة بين الكلمات، فمثلا نجد في الإعلام كلمات: محَجَّبة ومُحْتجِبة، ومتحَجِّبة.. وبالتمعن نجد أن كلمة محجبة تومئ إلى أن الأمر مفروض عليها، ومحتجبة تومئ إلى معنى الخلوة أو الانعزال عن الناس وكأنها تتخذ حاجبا على بابها والأحسن عندي كلمة متحجبة. وقس على ذلك كلمات تستخدم كمترادفات رغم اختلاف معانيها مثل: خاطئ ومخطئ، جاثٍ وجاثم، آهلة ومأهولة، عشواء وشعواء، إلخ.

وربما أنشر لاحقا كل ما صادفني من هذه المفردات التي تكثُر في الإعلام.

وسأتناول أيضًا هنا تحديًا ظهر مع هذا النوع من الفيديوهات الرقمية، وهو هل نكتب العامية التي يتحدث بها مشاركون في الفيديو أم نترك الكلام غير مكتوب؟

ولأن طبيعة هذه المقاطع تعتمد على الكتابة على الصورة فكان لزامًا علينا أن نكتب كل ما يُقال، على غرار المنصات الأجنبية، لكن تلك المنصات لا تواجه قضية العامية والفصحى كما هو الحال عندنا، فاقترح البعض أن تتم ترجمة ما يُقال

بالعاميات إلى الفصحى، لأن هذه المنصات تتوجه للناطقين بالعربية عموما، وربما لن يفهموا العاميات بمختلف أنواعها، ولكن هذا سيبعدنا عن الكلام المنطوق فيصير مثل ترجمتنا للمقاطع التي نستخدم باللغات الأخرى،

وأمام هذا التحدي اللغوي الكبير، في قضية اللهجات المتعددة واستخدامها من عدمه في الرسائل الإعلامية، علينا كمنتجين ومحررين لهذه القصص الإخبارية القصيرة التعامل مع المتدخلين بلهجاتهم المحلية من شرق الوطن العربي إلى غربه، فعقدنا اجتماعات تحريرية وناقشنا الخيارات المتاحة، وخلاصةُ ما توصلنا له هي ضرورة كتابة هذه اللهجات بدل أن نتركها مسموعة فقط ولكن مع مراعاة الآتي:

1- التفكير بالمتلقي العربي في مختلف أقطاره وجهاته:

وهذا يعني أن نقرب كتابة الكلمة لأصلها العربي قدر الإمكان، فمثلا إذا كان شخصٌ مصري يتحدث وقال "أؤول" نكتبها باعتبار الأصل وهو انقلاب القاف همزة في النطق، فنكتبها "أقول" وهكذا إذا قلب الذال زايًا أو غير ذلك..

وكذلك لو قال المتحدث (هوم بيتحملو هاظ) نكتبها (هم يتحملوا هذا) ولو قال أنا أعرفو نكتبها بهاء باعتبار الأصل أيضًا أعرفه، فلاحظ أن فعلَيْ (يتحملو وأعرفو) كلاهما مكتوب في العامية بواو، بينما الأصل مختلف كما ترى.

2- الاستغناء عن اللواحق والزوائد في بعض اللهجات:

مثلا في المغرب هناك زيادة الغين في بداية الأفعال: (غَنديرِ) وكذلك الكاف (كنقول)، وفي المشرق "حنعمل" وأحيانًا تُكتب "هنعمل" و"بنعمل" هذه اللواحق يمكن أن تُربك من يقرأها مكتوبة لذلك نحذفها لتسهيل فهمها على بقية المتابعين من دول عربية أخرى.

3- الكلمات التي من لغات أخرى كالفرنسية في المغرب العربي مثلا والإنكليزية في المشرق، نقوم يكتابة ترجمتها باللغة العربية الفصحى فقط ولا نكتبها بلغتها ولا بالحروف العربية طبعا.

4- مراعاة قواعد الفصحى حتى في اللهجات:

فبدل أن نكتب" بيؤولو" أولا كما أسلفنا نُرجع الهمزة لأصلها القاف، ونحذف اللاحقة الباء، ثم نراعي العاقدة في كتابة ألف الجماعة فتتحول من "بيؤولو" إلى "يقولوا".. فأغلب أهل المغرب لن يفهموا الكتابة الأولى بينما الكتابة الثانية أصبحت مفهومة رغم النطق المختلف للمتحدث باللهجة.. وكذلك لو كتبنا عن شخص مغربي يقول "كنحكيو" فنزيل اللواحق الكاف فتصير "نحكي".. ولو أن شخصًا من موريتانيا قال في تسجيل: "اشطاري" بدل أن نكتبها هكذا نكتبها باعتبار الأصل، "أيش طارئ" فإذا قرأها أحد من المشارقة مثلا سيفهمها عكس الكتابة الأولى..

هذه نماذج مما يمر علينا في بعض القصص التي يتحدث فيها متحدثون باللهجات العربية المختلفة، ومن أهداف هذا المسعى أيضًا الحفاظ على رابطة اللغة التي تربط المتلقين في جميع أنحاء الوطن العربي، وكذلك ربطهم باللغة الأم الفصحى، فضلًا عن تسهيل التواصل بينهم. بدل أن نترك كل شخص يتحدث دون كتابة حديثه، أو ترجمته بالفصحى فيبتعد المكتوب جدا عن المنطوق.



مبادرات

أودّ أن أذكر هنا مبادرتين أعمل عليهما منذ زمن وذلك للإعلام بهما أكثر ولتحفيز مَن يقدر أن ينتج باللغة العربية أن يُنتج بها، وللفت النظر إلى ضرورة الحفاظ على الاستخدام السليم لهذه اللغة.

وقد وفقني الله لخدمتها عبر الترجمة إليها ومنها، وعبر تصحيح المواد الإعلامية بها ومراجعتها لغويًّا، والإنتاج بها شعرًا وسردًا، ولكن هذا قليل مما تستحقه هذه اللغة مني ومن غيري من محبيها..

وقد قمت منذ مدة بمبادرتين سأتحدث عنهما باختصار هنا ويمكن الرجوع إلى الفهرست للاستزادة أو المساهمة فيهما أو في إحداهما، وهما تهدفان لتنمية وتطوير المحتوى الرقمي العربي على الإنترنت (مشروع رقمنة التراث)، والمبادرة الثانية عن ترويج الإنتاج باللغة العربية.

مبادرة الإنتاج باللغة العربية

هذه مبادرة تهدف إلى تشجيع الناس على الكتابة باللغة العربية والترجمة إليها، فكم يحز في نفسي أن أرى العلوم والمعارف المختلفة متوفرة للناطقين باللغة الإنكليزية مثلا بينما يُحرم منها أهل العربية لا لشيء إلا لأنهم لم يتعلموا تلك اللغة! عندما نبحث عن أي موضوع باللغة العربية إما أننا لا نجد بغيتنا أو نجد للأسف كمية هائلة من الشائعات والمعلومات غير الدقيقة من المنتديات والمدونات الشخصية.. فأغلب البحوث العلمية لا تتم ترجمتها للغتنا، وكذلك جامعاتنا للأسف لا تنتج العلوم ولا تترجمها حتى..

وهذه معضلة لا يمكن لجهة واحدة ولا حتى دولة واحدة التصدي لها فما بالك بشخص! ولكن على قدر جهدي أسعى ولو بالتنبيه والتوعية ولفت الأنظار لضرورة الحفاظ على اللغة من جهة والترجمة إليها من جهة أخرى.. فلا معنى لأن يحرم العرب من هذا التدفق المعرفي اليومي لمجرد أنهم لم يتعلموا اللغات الأخرى..

وطبعًا الإنتاج يشمل المكتوب والمرئي والمسموع، وفي هذا الإطار تعاونتُ مع

مركز عربي نت، وشبكة الجزيرة الإعلامية، وشاركت في ندوات للمهتمين باللغة العربية عمومًا، وبالترجمة إليها خصوصًا، وعندي على يوتيوب مقاطع من هذه الندوات على قناة المكتبة المرئية وغيرها، وأحرص دائمًا على أن تكون المواد التي أنتجها سواء كانت مكتوبة (مثل المقالات، والبحوث المنشورة) أو مسموعة (مثل سلسلة **أدبيات** عن المتنبي، وسلسلة **جرعات أدبية خفيفة**، وسلسلة **مناجاة الليل وإمام كاست**)،

مجموع ما أنتجته من هذه الحلقات المسجلة بلغ حتى الآن **أربعين حلقة مسموعة** أتناول فيها مختلف القضايا كل حلقة تتناول موضوعًا معينًا بلغة فصحى،

إضافة إلى مقابلتي في برامج الإذاعة مثل:

1 برنامج الساعة الثقافية.

2 برنامج المرصد الثقافي.

3 برنامج شعراء رمضان.

4 برنامج من وقتكم الثمين.

5 برنامج صحراء تووك.

أو كانت مرئية (لقاءاتي الإعلامية مع التلفزة الموريتانية، وقناة الجزيرة، ومداخلاتي في الندوات العلمية وغيرها).

وكل هذا متاح على الإنترنت ويساهم في تنمية المحتوى العربي، وهي المبادرة الثانية التي قمت بها.

مبادرة رقمنة ونشر التراث

كانت فكرةُ رقْمَنَةِ التراث (Digitization)، تُراودني منذ فترة، ففي النشر الإلكتروني فوائدُ جمّة، فهو من جهة يُؤمِّن الوثائق والصور من الضياع، ومن ناحية أخرى يُتيحُها للجميع أينما كانوا، وبالتالي فأي باحث في أي مكان يمكنه الاستفادةُ منها، عكس المخطوطات والمواد غير المرقمنة.

وقد أخذتُ على عاتقي مهمة المساهمة بكل ما يتيحه الجهد في زيادة المحتوى

الرقمي العربي على الإنترنت.

فقمت في هذا المجال بعدة أبحاث ومحاضرات وحضرت ندوات عن الموضوع وتناولته بالدرس والتحليل، لضرورة تبوؤ لغتنا العربية المكانة اللائقة بها بين اللغات، وحفظ ونشر تراثنا العربي، الموريتاني خصوصا، لندرته على الإنترنت وقلة المهتمين به والعارفين بسبل رقمنته وآلياتها.

وأكثرُ الباحثين اليومَ يعتمدُ على الإنترنت في بحوثه، ويُهمل ما لا يتوفر فيها من مواد، فلو فرضنا أن باحثًا في الخارج يُعدُّ رسالةً أو يؤلفُ كتابًا، عن أعلام البلد أو شعرائه، فلِكيْ يجدَ تراجمَ أعلامِنا وشعرائِنا عليه أن يرجعَ للوطن ويطلبَ مقابلاتٍ مع أشخاصٍ في أماكنَ متفرقةٍ وربما احتاج للسفر للبادية لتصويرِ وثيقةٍ أو لقاءِ شخصية، مع ما يتطلبه ذلك من جهد واتصالات، فالأغلب أنه سيُعدُّ بحثَه من موادَّ موجودةٍ ومتاحةٍ ويُهمل الباقي، لذلك فإتاحةُ هذا التراث ضروريةٌ لانتشاره وأمْنه من الضياع، واستفادةِ الجميع منه.

وقد بدأت بنفسي في هذا المجال، فقمت برقمنة ثلاثة "كنانيش" أو كشكولات شخصية أغلبها بخطي، عبارة عن دفاتر من الأشعار والأنظام والفوائد اللغوية وغيرها على عادة أهل المحاظر، وهي متاحة للمطالعة مباشرة وللتحميل أيضا في أي وقت من موقع الأرشيف الأمريكي على الروابط:

الكناش الأول:

https: //archive.org/details/mohamedebah_gmail_Pdf2

الكناش الثاني:

https: //archive.org/details/FullPagePhoto_201902

الكناش الثالث:

https: //archive.org/details/FullPagePhoto222

وهذه في النهاية إنما هي خطواتٌ على الطريق ومناراتٌ لمن أراد السير في هذا المسعى، ولعلَّ فيها إرشادًا ومثالًا للأجيال القادمة بحول الله. وأنا بحول الله ماضٍ في هذا المسعى، متّكلًا على الله أولا، خدمةً للعلم، واللغة العربية وتراثها.

وأردتُ منه إطْلاعَ المهتمّين على ما أُنجز، والاستعانة بما لديهم من تراثٍ مادي (المخطوطات، الصور، المرئيات، الفيديو) ومعنوي (التراجم، المؤلفات، الإنتاج الأدبي).

وقد عملتُ منذ أيام (منتديات المشهد الموريتاني)(2005) أيامَ كان الوصول إلى الإنترنت ضعيفًا في الداخل، وكانت بداية النشر الإلكتروني، أنشأتُ زاوية لأدب المرحوم (الطيب ولد ديدي)، فضلًا عن زاوية للأدب الإيگيديِّ عمومًا، وقد لاقت استحسانًا كبيرًا لشُحِّ المحتوى الأدبي المحليّ على الإنترنت، وتمت إعادةُ نشر تلك المواد مرات على عدة منصات رقمية بعزو مرةً وبدونه مرات.

فقد افتتحتُ قناة على يوتيوب، سمّيتها "المكتبة المرئية"، على الرابط:

https: //www.youtube.com/channel/UCRRi2Z3h99b89iuvgoYS05Q

وهي خاصة بالمرئيات والمسموعات، وقد وصل عددُ زائريها إلى **مئتين وستة وخمسين ألفًا** ومئتين وثلاثين زائرا.. **أكثر من ربع مليون زائر!**

كما وصل عدد المشتركين فيها إلى ألف وثانية وخمسين مشتركا.

وفي هذه القناة ما يربو على **ثلاثمائة مقطع** فيديو وتسجيل مسموع، فيه التراث الشخصي، مقابلات إعلامية، وندوات وإلقاءات شعرية، إضافة إلى التراث العام، مثل المسموعات القديمة التي حولتها إلى شكل فيديو لتناسب النشر على القناة..

ومع ظهور وسائل التواصل الاجتماعي، وانتشارها الكبير، أنشأتُ "مجموعة للتراث، وقبل 3 سنوات أنشأت مدونة باسم "موقع اللّفعة الثقافي"، تجاوز المشتركون فيه حتى الآن ألفًا وتسعمائة متابع منتظم.

ورابطها: https: //allavaa.blogspot.qa

وقد حوت حتى الآن تراجم حوالي 26 عالمًا وشاعرًا.

وكذلك عشرات القطع الأدبية، الشعبية والفصيحة لشعراء المجموعة، والمخطوطات النادرة.

وأنشأت لها صفحة على الفيسبوك بنفس الاسم على الرابط:

https: //www.facebook.com/allavaa

وقد بلغ عدد متابعيها حتى يناير 2019 حوالي 2174 متابعًا.

كما أنشأتُ منذ سنوات صفحة "مدوّنة إيگيدي الثّقافية" ورابطها:

https: //www.facebook.com/iguidii

وقد لاقت قبولًا واسعًا وتم تداول منشوراتها على أوسع نطاق، كما أرشفتْ كثيرًا من التراث الأدبي للمنطقة عموما، وواكبت أهم الأحداث الأدبية فيها، بعيدًا عن السياسة وتجاذباتها..

وقد وصل متابعوها إلى حوالي **سبعة آلاف** متابع!

وقمت بحمد الله برفع هذه المواد على موقع الأرشفة الأكبر على مستوى العالم، موقع أرشيف الإنترنت الأمريكي. على الرابط:

https: //archive.org/details/@mohamed_imam

وأرجو من الجميع التعاون على إثراء هذه المواقع والصفحات بالمخطوطات النادرة والتراجم والمواد المسموعة والمرئية، والمواضيع النافعة الهادفة، وبما ينفع الناس ويمكث في الأرض.



مراجع

المكتبة المرئية: https: //www.youtube.com/anonymousmed

https: //www.youtube.com/channel/UCRRi2Z3h99b89iuvgoYS05Q

أمسية النصرة: https: //youtu.be/xOC_8rJ8eLs

أمسية اتحاد الطلاب بمصر:

صفحتي على فيس: https: //www.facebook.com/mohammadimame

المدونة على بلوغر: http: //mohamedimame.blogspot.com/

مشروع رقمنة التراث:

https: //drive.google.com/file/d/1PX6bKg

FydaPL0ONvBFljLQ2hhN2SbxE_/view?fbclid=IwAR21EHQyC82Tx1Fc1

n-K31wZyDYQOx90KZLoPWf2_DEgTU1HP-mT5zOKMLc

مدونة إيكيدي الثقافية: https: //www.facebook.com/iguidii

موقع اللفعة الثقافي: https: //www.facebook.com/allavaa

https: //allavaa.blogspot.com

موقع الأرشيف: https: //archive.org/details/@mohamed_imam

الكناش الأول: https: //archive.org/details/mohamedebah_gmail_Pdf2

الكناش الثاني: https: //archive.org/details/FullPagePhoto_201902

الكناش الثالث: https: //archive.org/details/FullPagePhoto222

محاضرة اللغة والرقمنة: بلوار ميديا: https: //youtu.be/LWn1q7bMCRg

على المكتبة: https: //youtu.be/nyYjr8pCP6g

على اللسان: https: //youtu.be/cseVDKfcWTc

المديح عند الشناقطة: https: //youtu.be/zmDUNGJfj6Q

برنامج أدبيات المسموع: https: //youtu.be/t4d3oKVFJwk

البرنامج المسموع جرعات أدبية: https: //youtu.be/NiA0LGU_o-g

البرنامج المسموع مناجاة الليل: https: //youtu.be/S30S_LRFKwk

أمسية أهازيج القصيد: على بلوار: https: //youtu.be/9glpPwhlsJw

المكتبة: https: //youtu.be/QE6tSjXf_aM

لقاء الجزيرة: على بلوار ميديا: https: //youtu.be/ckiBZvrWdMs

على المكتبة: https: //youtu.be/C8D5BBL2tAM

مقابلة الأخبار: https: //alakhbar.info/?q=node/7412

مقالات ريم ناو: http: //rimnow.net/w/?q=taxonomy/term/657

الصالون الأدبي: https: //youtu.be/pAs_TKiYjmk

مقابلة الجسر: https: //youtu.be/Qov9mZbvNW8

مقابلات تلفزيونية: برنامج شعراء: https: //youtu.be/z8wmDYBICOM

مقابلات الإذاعة: الساعة الثقافية: https: //youtu.be/-5nlCUmjTNQ

https: //youtu.be/CGF10ccj3Fg

https: //youtu.be/bQwUt7_Lx9c

من وقتكم الثمين: https: //youtu.be/EPlvKGRKUrc

المرصد الثقافي: https: //youtu.be/_C3bX8SXzx4

برنامج صحراء تووك: https: //youtu.be/ue2hutZL75o

شعراء رمضان: https: //youtu.be/8VctgdqI74s



فهرس المحتويات

